كُسوةٌ جديدةٌ للكعبةِ

رواية

مدحت، مجيب الرحمن.
كسوة جديدة للكعبة : رواية / مجيب الرحمن مدحت.
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2020.
352صفحة، 20 سم.
تدمك : 978-977-820-068-3
1- القصص العربية
أ- العنوان : 813
رقم الإيداع : 2019/25721
الطبعة الأولي : يناير 2020
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع

KAYAN PUBLISHING

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي – الجيزة – الهرم
هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772
هاتف محمول: 01000405450-01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

كُسوةٌ جديدةٌ للكعبةِ

مُجيب الرَّحمن مدحت

رواية

في بلدتنا، طاف الموت بكل شبر من الأرض.

تبعه العسكر، يبنون أسوارهم من جديد، وثكناتهم التي حطمناها.

يفرضون قوانين ظنًّا أننا قتلناها للأبد.

طافوا بكل أنحاء الأرض، وامتلكوا السماء كلها.

إلا بقاع معدودة،

سميت بالأحراش، أو البادية، أو الجبل،

بقع جدباء، كالحة، لم يعش بها أهلهُا إلا لأن أجدادهم دفنوا بها،

لا تهم أحدًا ولا يسهل الوصول إليها.

من هذه البقاع كانت مَرْيَمَة.

هضبة صخرية كبيرة، لا ينمو بها الزرع إلا بمشقة، يحدُّها من الجهة الغربية جبل يمنع عنها السيل، وتحيط بها أحراش بدائية مظلمة من كل اتجاه آخر.

أقرب النقاط إليها هضبة أخرى، يسمونها الصغرى،

وهي الهضبة الأخرى المأهولة وكل الهضاب عداها، ومريمة هي أراض لم يعش فيها الإنسان.

تكوِّن الهضبتان مع بعضهما هلالًا يحيط بشمس ويفصل بينهما دغل ضيق.

الهلال هي الصغرى...

والشمس هي مريمة.

ابتسم عبد الله على رغمه ذلك الصباح، وهو يتوقف أمام مخبز «أبو ظريف»، وصل المال الذي وعده به أخوه بعد انتظار أشهر، كان قد فقد الأمل فيه والعوز ينمو في أركان حياته مثل جبل، مالٌ يعني انفراجة في حال أسرته الصغيرة، زوجته رحيمة، الطفلين والمولود الجديد إسماعيل.

يستطيع عبد الله الآن شراء ما يلزم من مؤنة، ترميم بعض أجزاء المنزل، وربما ابتاع بعض قطع الثياب للأولاد عوضًا عن تلك التي وجب تغيرها، تنهَّد بألم وهو يفكر بالرضيع، لم يشهد ما شهده إخوته من رغد العيش من قبل، الطعام المتوفر والثياب المريحة وحتى الحفاظات عند التبرز، لكنه الآن يمرض فلا يجد له الدواء، ويعالجه بخلطات الأعشاب والشاي الحار، وكان من قبل يعود من مشفاه محملًا بكل علاج يمكن أن يحتاجه هو وأولاده وجيرانه ورواد المسجد القريب، لم ولن يشهد الطفل ذلك، وهو المولود بسنوات ما بعد الحرب بهضبة مريمة.

عبد الله رجلٌ رحيمٌ، لم يذهب الموت عقلَه كما ذهب بعقول آخرين خلال سنوات الحرب وما بعدها، ألمه الباطني لا علاقة له بشبح الموت، ألمه هو حاجة أولاده وضعفهم، ألمه زوجته المستكينة الصابرة، تلك التي بَليت ثيابها الجميلة حتى بهتت ألوانها وامتلأت بالرقع، الخيط القديم يجاور آخر جديدًا لقطع محدث، جسدها نحل كثيرًا، ببطء وبما يشبه الخجل حتى عبد الله لا يكاد يلحظه، لكنه يلحظ تلك النحافة حين ينظر للصور القديمة، يلحظ حاجتها حين

يلمح ملابسها بتلك الصور، يلح عليها أن تأكل، لكن كيف تأكل أم لا تضمن توفر الطعام لأولادها في اليوم التالي، فقط ما يزال وجهها العزيز جميلًا الى حد السحر، ما تزال نظيفة، ما تزال رائحتها كريمة، ما تزال تحاول أن تتماسك لتحفظ بقية من كرامتها أمامه.

والأولاد، أين ثيابهم الوثيرة؟ المبطنة بالقطن والفرو، المنقوشة بأشخاص رسومهم المتحركة، تعرف الرضا والسعادة في مشيتهم مرتدين إياها وإن لم يظهروه، تلمح جواربهم الثقيلة على السجاد بلا ثقوب أو ندب، يعشق هذا الوضع، يشعره بطفولته الآمنة القديمة ولكنه لم يعد يراه.

تغير كل شيء، ولم يعد، حتى بعد انتهاء الحرب.

أمامه، تجاورت أصناف الحلوى، بكميات بسيطة قد لا يقدر أن يشتريها أحد.

صوابع زينب، البسبوسة، العوامة وحلاوة الجبن، يتساءل إن كان عليه أن يشتري منها أم يبقي كل فلس يستطيع إبقاءه، يسمع صوت رحيمة وهي تعاتبه بلطف على إسرافه، لكنه يكاد يرى الابتسامة الراضية على وجهها والأولاد يلتفون حول الطبق بلهفة، ربما اقتطعت جزءًا يسيرًا منها ولامست به لسان إسماعيل ليتذوق طعم الحلو، جعلته تلك الفكرة ينادي على البائع بلا تردد مشيرًا بيده الى أًصابع زينب المغموسة بالعسل، تناولها البائع بحرص، رصها واحدة بعد أخرى في الطبق الورقي وعبد الله يقول مستدركًا «أضف عليها القشطة لو سمحت»، استمتعَ بصوت الورق الخفيف وهو يُلفُّ على طبقه، تناوله بحرص وهو يلتف مغادرًا

باتجـاه داره، ليسـت المسـافة بعيـدة مـن الشـارع التجـاري إليـه، سـيقطع الشـارع بمحلاتـه، العاملـة والمهجـورة وتلـك التـي حطمتهـا المعـارك، ومنـه يدخـل الى حـارة القريـات تلـك التـي كانـت مـأوى للثـوار مـن قبـل وهجـرت بعـد أن تحطمـت كل دار فيهـا، حتـى أن بقايـا الـدور ومتاعهـا المحـترق مـا يـزال يمـلأ طرقاتهـا، كل الأشـياء هنـا غطاهـا الرمـاد، لـون الإسـمنت المبعثـر الـذي ابتلـع كل شيء حتـى دمَ الذيـن قتلـوا، ثـم حـارة الشـيخ شـاهين التـي سـتظهر عنـد أول دورهـا مئذنـة مسـجد «صخـر» العظيمـة البيضـاء التـي تحتـل منتصـف الهضبـة بالضبـط كـما كان أبـوه يقـول لـه، وإلى جـوار المسـجد داره.

كانـت الهضبـة هادئـة هـذه الأيـام مثـل مـدن وقـرى كثـيرة طحنتهـا الحـرب مـن قبـل، قُتـل الكثـير وهـرب أكثـر منهـم، واسـتكان مـن تبقَّـى للوضـع الحـالي، لكـن نوعًـا غامضًـا مـن الفخـر بقـي داخـل سـكاناها سرًّا؛ لأن الجنـود لم يدخلوهـا حتـى بعـد أن وضعـت الحـرب أوزارهـا، لم يبـق إلا عوائـل مسـتكينة لا خـوف منهـا، يمـشي رجالُهـا في الطرقـات تائهـين مثـل الموتـى الأحيـاء، غارقـين في الوحـل المختلـط بغبـار الإسـمنت الـذي سـيخلق السرطـان في صدورهـم عـن قريـب، وقـد تاهـوا عـن أحـلام المـاضي وأمـاني الغـد، فقـط يعيشـون اعتـمادًا عـلى الذكـرى مثـل حيوانـات سـارحة؛ لـذا لم تعـد الطائـرات تـرى مهاجمـة، فقـط تحلـق وكأنهـا تذكِّـر بالقتـل كـي تسـتمر حالـة السـكون تلـك.

عنـد نهايـات حـارة القريـات، وبـين الكتـل الإسـمنتية رأى قطتـه تتحـرك بصعوبـة ببطنهـا الممتلـئ، لم تكـن لـه، لكنـه يطعمها

بقايا طعام أهله، تأكل أي شيء، وتشرب الماء الذي يضعه لها بالكوب الورقي الذي قطعه عند منتصفه، يجالسها يومًا بعد يوم حتى استأنست به، تراه قادمًا من بعيد فتركض نحوه، يمكنه أن يربت عليها دون أن تهرب، يتلمس الأجنة ببطنها المنتفخة وفي أحيان كثيرة بالساعات الأخيرة من الليل قد تترك نفسها لتنام عند قدمه حين يجلس على مصطبة المسجد، يحب مشيتها اللطيفة واهتزاز بطنها وتلك اللهفة المضحكة التي تلوح في خطواتها حين تلمحه من بعيد، ينتظر بصبر نافذ أن تلد فيرى ذريتها، ربما أخذ إحداها الى منزله للأولاد.

لكن القطة لما اقتربت بدت غريبة، تموء بتألم، تدور حول قدميه في حلقات بلا توقف، تبدو غير قادرة على الهدوء أو الاستكانة، تجلس بصعوبة، تلحس جسدها وتفلت منها أنات، اقترب منها أكثر وهو ينظر لها بقلق، رفعت رأسها إليه وماءت كالمستغيثة، ثم مضت في خطوات مبتعدة وهي تلتفت إليه وكأنها تسأله أن يتبعها، وقف مكانه لثوانٍ وهو يفكر في حمله الثمين، وعندما ماءت من جديد مشى خلفها كالمسحور وهو يفكر أنه لن يتأخر.

هكذا سار بين الدور حتى دخل الى حارة مهجورة لم يستطع أن يميز منها دارًا واحدة أو أن يتذكر اسمها، بمدخلها زاوية للصلاة، احترق بابها الخشبي وتكسرت الأشجار أمامها، لونها تحول ببطء الى رماد، بتعجب نظر الى المصاحف التي غطاها الغبار الإسمنتي وتساءل كيف نسي الناس أن يخرجوها؟! دخلت القطة الزاوية والغبار يتطاير من تحت

أقدامها، عبرت فوق الأرضية الإسمنتية التي كان يغطيها السجاد قبل أن يُسرق، انقبض قلب عبد الله وهو يمر بالزخارف التي تساقطت أجزاء متفرقة منها، كانت آيات قرآنية مزهرة، لكنه رأى فيما تبقى منها صور وحوش شرقية قادمة من حكايات الجان، رنت قدماه على الأرضية بصوت قطرات ماء مسكوب، أو نهر ينبعث من تحت الأرض، توقف للحظة، فتوقف الصوت معه، تعجب متخوفًا، لا يجب أن يكون هذا صوت أقدامه فوق تلك الأرضية، وكأن هناك خطأ بالنظام الصوتي للحياة، داس الأرض من جديد بدت دعسته الأولى له وكأنها ارتطام رأس بأرضية طينية، ثم كانت خطواته كقطرات مطر من جديد، دعك عينيه بتعب وبحث عن القطة، رآها عند أعمق ركن بالزاوية، عند منبر تفحمت جوانبه، إلى جوار سجادة صلاة وحيدة قد تكومت، وقفت أمامها ورفعت رأسها إلى عبد الله فهمس في غير فهم: «ماذا تريدين أن تقولي أيتها المسكينة؟»، اقتربت منه تتمسح في ثوبه وهي تموء باستعطاف، ثم انصرفت إلى السجادة فلامستها بوجهها، نظر إلى السجادة فرأى بدهشة الكعبة المرسومة وقد تغير لون كسوتها بالتراب فصار إلى لون الطمي أقرب، والزخارف الذهبية استبدلت بأخرى داكنة في منتصفها بالضبط بقعة من دم. بدت رغم كل شيء أبهى من صورة الكعبة الحالية، وكأنها كسوة جديدة تلتئم، انحنى على الأرض، أمسك بنهاية السجادة وفردها حتى استوت ومن دون انتظار جلست عليها القطة وهي تغمض عينيها بألم، نامت عليها بجانب بطنها المنتفخ، تراجعت قليلًا

على ظهرها، حاولت أن تفتح قدميها، توترت من صوت المقاتلات التي تعبر السماء فوقهم، نظر عبد الله من السقف المحطم فلم يرَ غير السحاب، اقترب منها وربت على رأسها وهو يهمس «لا تخافي»، وبدهشة سبَّح الله وهو يرى دفقة ماء تندفع من بين قدميها متبوعة برأس صغير إلى أقصى حد، ملتف بكيس دهني وهي تحاول أن تدفعه خارجها.

لم يتقزز عبد الله وكان طبيبًا لكن بدنه اقشعر وهو ينظر الولادة، وانبعثت في الأجواء ما يشبه صوت صرخة معدنية معذبة، ورفع رأسه ليرى بدهشة الخيط الأبيض العظيم يرتسم بالسماء متلويًا وكأنه يكتب بخط النسخ وانفجرت في رأس عبد الله صورة لكتابة لا يذكر أين قرأها «كما تريدني أكن» والصاروخ يمر بأقرب نقطة إلى جوار المقاتلة، يُخطِؤها بما بدى لعبد الله أنه سنتيمترات ثم يتابع رحلته للأعلى قبل أن ينفجر بالسماء وحده بدوي رهيب وتتناثر منه قطعه المعدنية ساقطة ببطء مقدس، وقف مصدومًا وهو يشاهد الركام، بدا وكأن الطائرة نفسها تحطمت ولو لم تفعل، وكأن السماء تميل لأهل هذه القرية وتخلق في نفسها صور المعدن المحترق والزجاج المحطام وبزة الطيران العسكرية الباهظة وهو يحترق فيها، وانبعثت أصوات تكبير من مئذنة مسجد صخر وبدا وكأن موجة تهليل مندهش قد صرخت داخل كل حي ومنزل وقلب ومصلى، ترجمت بلا ادعاء إلى اسم الله المعظم محاطًا برهبة شاملة، تمامًا مثل اللحظة التي حكى عنها النبي في صحن الكعبة عندما يظهر المهدي ويصرخ الحجاج باسم الله أو تصيح الملائكة أنه قد حان الوقت،

وارتعش جسده، التفت سريعًا إلى قطته، رأى عندها مولودًا كاملًا قد خرج وهي تلعقه قبل أن تتراجع وتفتح قدميها من جديد، ربت على رأسها بيد مرتجفة وهو يتراجع دون انتظار، جرى خارجًا من الزاوية باتجاه منزله وحتى في ذروة انفعاله تلك ميز صوت أقدامه الطبيعية، ما تزال البقايا في السماء تنزل بخيط نار وكأنها دليل جريمة لا يمكن أن تمحى، احترقت عيناه بعرقه وكل شيء يهتز من حوله أثناء ركضه، أنفاسه متلاحقة، وذراعاه تحتضن طبق الحلوى بقوة، يمر بالناس فيرى الذي ما زالت الدهشة تملأ كيانه والمستبشر والخائف والضائع، الكل يتحدث دون توقف عما حدث، سعداء به وخائفون مما سيأتي لكن زلزالًا من نوع ما ضرب قلوب الكل وأحيا داخلهم الرغبة القديمة بالانتقام من النظام ومن معه.

لكن النظام من ينتقم الآن...

وكأنها الشؤم مجسدٌ امتلأت السماء بالطائرات المقاتلة حتى حجبت بعض أجزاء الشمس، كان من الممكن أن تشتم رائحة معدنها الصدئ أو لعلها بقايا الصاروخ، عض عبد الله شفتيه وهو يراها، كان يقترب من منزله، لعن اللحظة التي تبع فيها القطة، هذه الدقائق خطرة، متوحشة في كل مرة، يجب أن يكون مع أهله الآن.

ثم صرخ المعدن في السماء مرات متتابعة، لم تكن البراميل القذرة التي ألفوها، كان معدنًا مصقولًا موجهًا وسريعًا، سمع الانفجار الأول، كان بعيدًا، ثم واحدًا آخر فبدأت الأرض بالاهتزاز، تعالى الصراخ من كل مكان وأصوات

التحطم والاحتراق تلتحم، وارتفع الدخان القاتم البطيء بأطوال الرجال بداية، ثم العماليق، ثم عبرها إلى السحاب، أضحت الرؤية أصعب واستمرت الانفجارات بتوال كئيب، كان صوتها صرخات بهيمية نجسة، اختراق هواء بصفير مقبض، ارتطام غير إنساني يتبعه صوت تساقط كل شيء، الحوائط والحجارة والأخشاب ومرايات غرف النوم والألعاب والزجاج الملون بورود متداخلة وأغصان ترقد عليها عصافير جنة متخيلة، أواني الطهي والحواسيب القديمة وسرائر الأطفال والناس، انبعثت الأدخنة في كل الاتجاهات من حوله، خبأ الطبق تحت ثيابه يحميه من الرائحة الخبيثة وهو يركض في الحارة الأقرب إلى منزله وغير بعيد رأى مئذنة المسجد وكأنها تهتز مع خطواته، قد وصل تقريبًا.

وانطلقت من فوقه ضحكة عابثة ستظل تلاحقه بكل أحلامه، ثم كان الانفجار الأعظم وسقط.

ملقًى على وجهه، الدخان يعميه، صرخاتٌ معذبة تنبعث من المجهول ورائحةٌ خانقةٌ تملأ روحه،

تحسس طعم الدم في فمه، توقف مرتعدًا، شعر بالبلل بثيابه، بول أم دم؟! مسح الغبار عن عينيه فرآه محمرًّا، ما يزال الطبق هناك تحت ملابسه، وألم دافق ينبض بصدره، حرك يده وفتح قميصه ومسح براحة يده أسفل صدره حتى لامس الثقب، أدخل إصبعه به ولدهشته لم يصرخ، داخ وكاد أن يقع من جديد، جرح سطحي، همس لنفسه وهو يمشي متعرجًا نحو المئذنة، أفلتت منه أنةُ دهشة خرجت من فمه بالدم وهو ينظر إليها، سمع صوت تفكك المعدن، ميزه

قطعـة فقطعـة، ميـز صـورة الأحجـار وهـي تتفـكك مـن منتصفها وكأنهـا بالتصويـر البطـيء وخيـط أسـود يتشـكل في منتصـف المئذنـة، يكـبر بانشـقاق مقبـض، ميـز كل ذرة غبـار تتصاعـد مـع الانشـقاق المصحـوب بصـوت زئـير هـادر، والمئذنـة تنقسـم مـن منتصفهـا منحنيـة عـلى نفسـها كنخلـة قطعـت مـن سـاقها، تهـوى وهلالهـا مـا يـزال ملتصقًـا بهـا وأمـواج غبـار كاسـحة تتصاعـد، رأى شرفـة المـؤذن وهـي تقـترب مـن الأرض ومـن خلفهـا كانـت داره غـير موجـودة! كيـف اختفـت؟!

لكـن المئذنـة لم تلامـس الأرض، فقـط انثنـت بتلـك الصـورة غـير المعقولـة وكأنهـا إصبـع سـبابة يشـير إلى الأرض بـدل السـماء في التشـهد الأخـير، وهمـس عبـدالله لفـظ الجلالـة برهبـة وهـو يقـترب، لم يعـد فزعًـا، انبعـث داخلـه شـعور طـاغٍ بالخـدر وكأنـه بـلا قلـب، فقـط اخـترق الزحـام وأصـوات الصرخـات وسـتائر الغبـار إلى حيـث كانـت داره، ظهـر أمامـه ركامـه فميـز فيـه كلَّ شيء وكأنــه الوحـي، ورأى بقايـا حمَّـام داره، الحـوض الصغـير والمقعـدة وأرضيـات السـيراميك محطمـة، لكنهـا مـا تـزال تلمـع وكأنهـا تشـهد مـرة أخـيرة لصاحبـة الـدار، تسـارعت مشـيته وهـو يـرى النـاس يتجمعـون، صرخ في الحشـد وهـو يمـد ذراعـه أمامـه مهـدئًا «ابتعـدوا!»، دفـع الرجـال بقـوة، زاحمهـم وأبعدهـم بصمـت وقدمـاه تنغرسـان في الـركام المحـترق، عـرف كل ركـن مـن منزلـه حتـى متهدمًـا، مواضـع أولاده وزوجتـه وحـدود الغـرف، شـعر وكأنـه يسـمع حديثهـم الأخـير مختلطًـا بأغـاني قنـوات الأطفـال الأجنبيـة، حمـل الحجـارة، واحـدًا بعـد آخـر، انحنـى بـلا دمـع، اسـتمر يحملهـا ويلقـي بهـا، عـرف أنـه لـن

يسمع أصوات استغاثة ولو أن الله ترك الأصوات بلا ضوابط لميز أصواتهم مع الملائكة، لامست يده القماشة، نفض عنها التراب فبان لونها الأخضر الداكن، ملابس الشتاء الرخيصة، ربت على القدم بحيرة مصدومة، خبأ نفسه من الجميع وهو يرفع أحجارًا جديدة، لم يرد أن يرى أحدٌ أولادَه موتى وكأنه عار، ظهرت الرجل كاملة، شد ببطء فظهر الجسد الصغير، أغمض عينيه فنزل منهما دمع غزير وهو يهمس لنفسه «معي حلوى».

في نفس الوقت، غير بعيد عن هذا الموضع تحت الركام، كان الرضيع إسماعيل ملتصقًا بأمه، ما تزال لثته الناعمة ممسكة بحلمة صدرها، قد توقف غناؤها لكن لبنها ما زال ينسكب بفمه، محتضنة إياه بقوة وكأنه سينام، رائحة جلدها ما تزال في أنفه، والظلام الذي يلفهما الآن يشعره بالأمان، وكأنها تبتعد عنه سمع صوتها تقول كلمات أخيرة، لم يميز ما تقول، كانت غير أغنياتها التي يألفها، تئن غير قادرة حتى على البكاء، قلبها متلهف على لمس الرضيع لكنها غير قادرة على أن تحرك يديها، تريد أن تنظره لكن رأسها مشلول بما يحيطه، نزلت دموعها في انعدام حيلة وهمست مثل طفلة تكلم أبوها الميت «ها أنت رأيت يا الله... افعل ما تريد الآن ولا تنتظر أكثر...»، وبدهشة وجدت نفسها تكمل «يا حبيبي» قالتها لله مباشرة، اختلطت الكلمة في وعيها الذي يغادر بصورة أولادها وزوجها، وزفرات رياح الربيع المحملة برائحة أشجار الموالح وكف أبيها الميت يضغط برفق على كفها الصغير، وآلاف الأشياء الصغيرة الأخرى التي أحبتها،

تكونت كلها في دفقات متتابعة داخل عقلها حتى أنها ماتت وهي تتابعها باستغراب مستمتع.

كانت تلك الكلمات آخر ما سمعه إسماعيل منها، وانقطع لبنها عن شفتيه وطعم لاذع حمضي يلامسها للمرة الأولى فبكى، ومن السماء انبعثت الملائكة هابطة مثل الشهب، من دون انتظار عبرت الأهالي المتكاثرين، عبرت صيحات الألم والاستغاثات، عبرت الأب المكلوم وهو يرفع ابنه الثاني بين الركام، عبرت كل ذلك إلى حيث أُمرت، إلى حيث الرضيع.

«ها هنا!» صاح أولها وصولًا وهو يضرب الأرض.

دفقات مائية متتابعة،

ثم صوت السريان اللطيف،

الماء يخرج من الأرض،

شعر به إسماعيل أسفله، كأنه محمول على فراش يدغدغه،

ثم بدأت الرؤى في عينيه،

جاءته مغلفة بشعور مطمئن، وحزن مكتوم ورؤية عالمية لكل شيء،

الملائكة من حوله تتكلم وكلامها أحلام، وهمسها لا يسمع إلا داخل القلوب تمامًا مثل الشياطين، انبعثت فيه أناشيد الحلم النبوي المقدس وأحلام الرجال القادمة والخلق الجديد للأرض، رأى هرمًا يقلب رأسًا على عقب، تندفن عينه الواحدة في التراب، قلبه الدقيق ينبض بعنف ويتعرق من كل أنحاء جسده ويداه تقبضان على صدر أمه بقوة، دخل الرضيع إلى نفس كل إنسان، تفتح عقله على الأهوال والآمال والفقر والدعة ولعنة المال، رأى من الجديد إلى القديم في اتجاه واحد يرجع للخلف بالتاريخ حتى لامس مخلوقات ما قبل التاريخ،

تماثل له الأنبياء واحدًا بعد الآخر، بجمال قديسين وأحزان أسرى الحرب، تحدثوا معه بكلمات بسيطة فهمها كلها، كلهم كلموه إلا آخرهم الذي وقف ينظر إليه مبستمًا وهو يتأمله بسكون بعينين يملؤهما الدمع، وتسارعت أنفاسه، خامَرَهُ تعبٌ وشعور بانعدم القدرة، أغلق عينيه

مستكينًا وشعور بالنعاس يطغى على كل مشاعره، وذابت حرارة النهار بملمس جسد أمه البارد.

هكذا كان حين أفلح المنقذون في أن يخلقوا الفرجة الأولى في الركام، حين ظهر أول ما ظهر كتف أمه وعليه وشم الكعبة القديم الذي نقشه أبوها لها بعد عودته من الحج، توالت بعدها الحجارة في التباعد ليظهر جسدها وملابسها لا تكاد تسترها، حينها عبرت إليه أشعة الشمس ففتح عينيه وبكى مذعورًا من الزحام والصراخ، وأخذ يبحث بعينيه عما يمكن أن يتعرفه، كان أول ما وصله صوت أبيه الصائح، نظر ناحيته، رآه يقترب وهو يخلع قميصه فتعرف عليه، اقترب عبد الله من جسد امرأته وهو يدفع الناس مُبعِدًا، أغمض عينيه بقوة وهو يميز نقش الكعبة، تذكر نقش السجادة بالزاوية، هنا أيضًا كانت الكعبة برداء جديد ليس أسود، رداء له لون جلد البشر وعليه نقش بالأزرق الداكن والأحمر، ظهرها مكشوف لا يستره إلا الدم، وعند رقبتها يتدلى سلسالها القديم وفي آخره حلية فضية نقش عليها اسم الله، السلسال الذي سيرتديه إسماعيل من بعد، انحنى إلى جوارها، غطاها بحرص واحتضنها متراجعًا إلى الخلف، انسلخت بصعوبة عن جسد الرضيع وظهر إسماعيل، شاهده الكثيرون وأقسموا أنها كانت معجزة نبوية، إسماعيل الذي انفك عن جسد أمه كان يهتز وكأنه طائر، من تحته ينبعث ماء من عين لم يعلم أحد بوجودها، يحمله حملًا دون أن يغرقه، أفلتت تأوهات وتسبيحات وأنات بكاء، أرقد عبد الله زوجته على الأرض بحذر، والتفت وقلبه ينبض في غير تصديق ينظر

إلى الرضيع الـذي رفـع رأسـه إليـه بابتسـامة مندهشـة، تلقـف طفلـه، احتضنـه بقـوة، حينهـا فقـط انفجـر دمعـه واسـتطاع الجميع أن يسـمع نحيبـه، حينهـا فقـط عـادت إليـه كل مشـاعره دفعـة واحـدة وشـعر بأنـه قـد فقـد روحـه في شـذرات قطعـت مـن غـير رحمـة إلا مـن هـذا الصغـير، بيـد مرتعشـة أخـرج طبـق الحلـوى مـن بـين طيـات ثيابـه، اقتطـع جـزءا يسـيرًا منهـا بيـده، سـمع صـوت زوجتـه يهمـس في عقلـه برقـة «ليـس في هـذا السـن يـا عبـد الله، لا أريـده أن يعتادهـا»، تجاهلهـا وقطعـة الحلـوى تهتـز بارتعـاش يـده، تقـترب مـن الرضيـع الـذي فتـح فمـه بانتظـار، لامسـت لسـانه مغموسـة بالغبـار والـدم والعسـل، طغـت الحلاوة عـلى كل شيء آخـر، ابتسـم الطفـل بمـرح وهـز يديـه في الهـواء وفتـح فمـه طالبًـا المزيـد، وحـين تنـاول قطعـة أخـرى ضحـك.

وكانت تلك المعجزة الخاصة به،

وضحـك مـن حولـه وعيونهـم دامعـة، قلوبهـم في تلـك اللحظـة بيـد الله تمامًـا، تقلـب جميعهـا كالعـادة، لكنهـا كلهـا تقلـب باتجـاه إسـماعيل وضحكتـه.

لما أخرجه، تدفق الناس من حول عبد الله الذي عجز عن إيقافهم مثلما تدفق الماء الذي استمر حتى بعد أن أخرج الصغير، خطف الرضيع من بين يديه، تلقفته أيدٍ متتابعة حتى أخذته امرأة ترتدي عباءة سوداء بسيطة منقوشة بخيوط ذهبية حال لونها مع القدم، وذهبت مبتعدة، رفع عبد الله رأسه ومد رقبته بين الرجال يتبعها، رآها وهي تستند بظهرها على ما تبقى من سور المسجد، تغطي صدرها بحجابها، تتلفت بحرص، تقرب الرضيع إليها، تقبله وهي تحتضنه ثم تلقمه ثديها.

اطمأن وعاد بنظره إلى جثة زوجته وغير بعيد عنها الولدين، كان محطمًا بالداخل، يملأه حزن بلا حدود، لكنه بصورة ما مطمئن، كمريض تأكدت وفاته بنسبة مائة بالمائة وكفت محاولات العبث بالكيماوي معه، أو كصوفي عتيد قادم من كتابات محفوظ، تراجع خطوات نحوها، انحنى ولف ذراعيه حول جثمانها، ميز أحد معارفه بين الرجال فهز رأسه من دون كلام مشيرًا إلى الأطفال.

حمل الموتى من كل أنحاء الهضبة، في مسيرات تلاقت معظمها قريبًا من أطرافها الغربية الموازية للجبل، للقبور التي حفرت على عجل في أرض ساحة ملعب كرة قدم بعد أن وضع الجند أقدامهم في الهضبة الصغرى التي كانت تحوي مقابر أهل مريمة.

وحين عاد مع غروب الشمس كانت المرأة بانتظاره حاملة إسماعيل وإلى جوارها زوجها الذي بادره قائلًا وهو

يقـترب منـه «دعـه ينـم مـع زوجتـي ورضيعتـي، وأنـت تعـال معــي لتغتســل وتتنــاول طعامــك وتبــات معــي بالمضيفــة»، بصعوبـة ابتسـم عبـد الله، فشـعر بـذرات تـراب المقابـر تتناثـر مـن شـفتيه وهـو يهـز رأسـه رافضًـا، ربـت عـلى كتـف الرجـل ومـد ذراعيـه يتلقـف الطفـل النائـم، أفلتـت المـرأة الطفـل بصعوبة فشـده أقـوى، ضمـه إليـه وأغمـض عينيـه وهـو يستشـعر دفء جسـده عـلى صـدره وكأنـه يكملـه، الصغـير كان رحيـمًا بـه فـترك رأسـه يسـتقر عـلى كتفـه ولامـس خـده وجهـه، التفـت عبـد الله مبتعـدًا فنـادت المـرأة بصـوت متهـدج ترجـوه «أيـن سـينام؟ مـن سـيعتني بـه؟».

لكــن عبــد الله في تلــك الليلــة فعــل مــا اعتقــده الكثــيرون جنونًـا تامًّـا، حمـل السـجادة مـن سـاحة المسـجد المدمـرة، سـجادة زرقـاء ونظيفـة إلا مـن تـراب التهـدم، عليهـا نقـوش لمسـاجدنا القديمـة وأولهـا مسـجد النبـي بالمدينـة، فردهـا عبـد الله قريبًـا مـن نبـع المـاء المسـتمر بالتدفـق، وضـع عليهـا الرضيـع وغطـاه برفـق بالصـوف الـذي لفتـه المرأتـه حولـه، ثـم بـدأ يعمـل، يحمـل الطـوب المحطـم وكتـل الإسـمنت وبقايـا غـرف المعيشـة وغرفـة نومـه ورفـوف مطبخـه، ميزهـا جميعًـا محطمـة وهـو يكومهـا، ميـز حتـى الألعـاب الصغـيرة وحبـال القفـز التـي كان أولاده يلهـون بهـا، كتبهـم والمجـلات القديمـة وبقايـا الحقائـب، تـرك مـا يمكـن اسـتعماله ونقـل باقـي الأشـياء إلى حـارة القريـات المهجـورة التـي مشـى بهـا صباحًـا وهـو يحمـل طبـق الحلـوى، انقـضى الليـل بطولـه وهـو يعمـل.

كان قـراره الـذي سـيظل حديـث الهضبـة لفـترة طويلـة هـو

البقاء عند الدار، مستظلًا بالمئذنة البيضاء المكسورة، لم تستطع مرضعة إسماعيل أن تعود مباشرة إلى دارها، زارت دار أختها وزوجها يزفر متعبًا وغاضبًا من تأخره، حكت لأختها ما فعله عبد الله، حكت لها عن الصغير، ارتعش صوتها وهي تشرح كيف عادت إليها روحها حين قبلته، بكت وهي تفكر فيه وتحن إليه، لم تستطع أن تبعد عن عقلها صورته في العراء مع أبيه، أختها حكت قصته لجارتها، جارتها حكت لامرأة محمود عامل المصارف الشاب الذي أصبح بلا عمل بعد الحرب، زوجته الطيبة انطلقت في الصباح أول ما استيقظت إلى حيث الساحة؛ حيث ينام عبد الله وابنه، بعد ليلة أرق لم تستطع أن تتوقف فيها عن التفكير في الرضيع، عاينت عين الماء بنفسها، رأت الرضيع وهو يتقلب بلطف في نومته، كان عبد الله ما يزال غارقًا في عمله بين الحمل والنقل وعقله شارد كالمسحور وهيئته رثة كمتسول شوارع مسن، اقتربت منه وجسدها يرتعش، لامست خده البارد وشعره الناعم، انكبت نحوه وقبلته وهي تحمله وقلبها ينفجر بالحنان، وحين بدأت إرضاعه أغلقت عينيها فنزل منهما دمع حار ظل يزرف حتى عادت إلى منزلها، هناك كانت تصرخ باكية حتى أن أطفالها توقفوا لثوانٍ عن اللعب ورفعوا رؤوسهم مستطلعين اتجاه غرفة نوم أبويهم، «سيموت هذا الملاك إن تركه أبوه المخبول بذلك المكان»، تراجع محمود خطوات للخلف وهو ينظر لها صامتًا، بينما رضيعتها تمص الحليب دون اكتراث، كان يحبها كثيرًا ويعرف طبيعتها الأصيلة الصادقة، لكنه يخاف مثل هذه اللحظات

حين تتفجر بالغضب وتنفعل مستثارة، تعلم أن يبتعد عنها في هذه الأوقات ويتركها لحالها حتى تهدأ وحدها، نظرت إليه وبعينين حمراوين قالت معاتبة: «ألا يستطيع الرجال أن يقعنوا عبد الله أن يترك الطفل لأحد النساء تعتني به؟».

«رفض كل العروض»، أجابها، «قد جنه موت امرأته» قالت وهي تهز رأسها بانفعال وأشاحت بوجهها عن زوجها وهي تنظر إلى طفلتها معطية ظهرها له، واستطاع أن يسمع صوت الولدين بصالة الدار يتشاجران حول لعبة خشبية «قد كسرت ذراع الباتمان!»، صرخ الصغير فأجابه أخوه بسرعة: « وأنت جعلت جسده كله يرتعش كلما لمسه أحد وكأن دبابة فعصته في الحائط»، ابتسم لكلامهما، رمشت عيناه، رق لامرأته وأشفق عليها، وخلافًا لما اعتاده في حالاتها تلك، اقترب منها، بتردد لمس كتفها، اضطرب جسدها من بكاء، واندهش وهو يراها ترفع رأسها نحوه ودموعها تتساقط على خديها وتهمس في رجاء «ما أجمله يا محمود! يجب أن يعيش».

هكذا كانت أحوال النساء، تتناقلن القصة بينهن بأرجاء مريمة، بالحكي الصادق ودموع الاشتياق وتدفق الحليب، مرت بين نساء كثيرة صدقنها، وأخريات لم يهتممن بالأمر وكأن روحهن قد غلِّفت بستار من معدن غبي، مثل زوجة مجدي مدرس اللغة العربية الذي وقف يحكي القصة بانفعال، رغم أنه لم يره بعد، وزوجته تحضر طعام الأطفال بالمطبخ، أوقفته بإشارة من يدها وهي تنظر له باستخفاف وتقول مقاطعة كلامه: «أكره أساطير الفقراء التي تعشق أن

تصدقهـا»، فسـكت وهـو ينظـر لهـا بغيـظ مكتـوم.

لكـن الفقـراء الذيـن اغتنـوا بهـذه الحكايـة كثـيرون، مـا أكثـر أن تجـد امـرأة مـع الطفـل محتميـة بأسـوار المسـجد ترضعـه أو تحـاول إطعامـه أو تتركـه إلى جـوار ابـن أو ابنـة لهـا يلهـوان معًـا، في أحيـان كثـيرة تتجـاور امرأتـان أتيـا في نفـس الوقـت للعنايـة بـه، ترضعـه إحداهـن بينـما تجلـس الأخـرى تحكـي الحكايـات مستأنسـة بصحبتهـا، أحيانًـا يتحـول المـكان لمـا يشـبه مجلـس نسـوة بثـلاث، أو أربـع أو خمـس نسـوة، أرضـع إسـماعيل اثنتـا عـشرة امـرأة مـن نسـاء مريمـة، في زمـن توقفـت فيـه نسـاء كثـيرة عـن الإنجـاب بإرادتهـن، وحـضَّرن الطعـام مـن أجـل أبيـه، في أطبـاق وضعـت دائـمًا تحـت المئذنـة المكسـورة، وعـرف فقـراء ومعـوزون كثـيرون المـكان فأصبحـوا يزورنـه مـن أجـل الطعـام مسـتترين بظلمـة الليـل ورفـق عبـد الله بهـم، يحبـون الرجـل وابنـه اللذيـن يكونـان نائمـين بالغالـب ويجلسـون وهـم يلوكـون الطعـام بـما يشـبه الخجـل.

إلى جـوار أبيـه ينـام الصغـير، يمـص شـفتيه وهـو يرضـع مـن خيـال عـلى صـورة أمـه، تمتـد يـده الصغـيرة حتـى تلامـس كـف أبيـه، يضغـط عليهـا بقـوة، يتحـرك الأب في نومتـه في غـير راحـة وهـو يغـوص في حلمـه العجيـب.

عنـد أطـراف الهضبـة يسـمع صـوت المحـرك القديـم لسـيارة عتيقـة الطـراز،

يبحـث عنهـا بعينيـه في أحـد أشـد المناطـق تهدمًـا، في الهضبـة الصغـيرة نفسـها، حيـث القبـور القديمـة ومنـازل الفقـراء وقصور الذيـن اعتزلـوا مريمـة مـن أغنيائهـا، لا يذهـب إليهـا الآن أحـد ولا ينجـو منهـا إلا محظـوظ؛ لأنهـا امتـلأت بالجنـود بعـد أن دكـت الطائـرات بيـوت المقاتلـين فيهـا.

مـا الـذي يجعـل سـيارة تمـشي بذلـك المـكان؟! بصعوبـة يتقافـز عـلى حطـام الـدور وهـو يبحـث عنهـا، تـضرب شـمس الظهـيرة عينيـه فضيقهـما بانزعـاج وهـو يلمحهـا للمـرة الأولى، سـيارة بيضـاء، صغـيرة ورياضيـة مثـل سـيارات السـباق الألمانيـة القديمـة، يغطيهـا سـقف جلـدي أسـود اللـون، تهتـز وهـي تتحـرك ويرفـرف فوقهـا علـم أبيـض نقشـت عليهـا رمـوز عربيـة أسـطورية قادمـة مـن عمـق حكايـات ألـف ليلـة وليلـة ونقـوش الأنبـاط والعمالقـة وأولاد إسـماعيل، العـرب الجـدد، تتداخـل الرمـوز في بعضهـا صانعـة أشـكالًا غريبـة وكأنهـا مخلـوق جديـد، كانـت السـيارة تبتعـد، يطاردهـا مـن بعيـد جنـود النظـام التـي تظهـر أعلامهـم المشـؤومة، يراهـا مـن مكانـه هـذا وهـو يقفـز نـزولًا والأحجـار الصغـيرة تتنـاثر تحـت قدميـه، للحظـة بـدا أنـه

غير قادر على حفظ اتزانه، سينزلق وستمزقه الحجارة، لكنه يكمل مسحورًا بالصوت المبتعد، يشم رائحة الوقود المحترق مخلوطة برائحة فانيليا سكرية، ويسمع للمرة الأولى صوت تلاوة خفيضة لم يميز كلماتها، يفصله سور ظهر فجأة عن السيارة، وتتعالى أصوات الجنود خلفه وهو يجري بجوار السور، ما يزال يسمع صوت المحرك بالجانب الآخر، تتسارع خطواته وتشتد، يرتعش والآيات تستمر في الترديد، آيات قصيرة، لها نغم متوعد، ينقطع حذاؤه على الأرض الخشنة، كيف سيحصل على واحد جديد؟ يكاد السور أن ينتهي، يمد رقبته قبل أن يقطعه كله، يرى السيارة من جديد، ها هي تتمايل في مشيتها مثل طفلة، داخلها آلاف الوجوه التي يعرف أكثرها، يدق قلبه بقوة ويميز وجه رحيمة فيهم، ما زال الدم يغطي وجنتها والجزء الأعلى من قميصه الذي غطاها به، تلمع كعبتها الموشومة تحته وتضيء بنقوشها العربية الغامضة، هي نفس نقوش العلم على السيارة، تنظر له، تتعرفه وتضحك وهي تمد ذراعها مشيرة إلى السائق، تتثاقل أنفاسه وهو يلتفت إلى حيث تشير، تمتلئ عيناه دمعًا وهو يرى إسماعيل، واقفًا برجليه القصيرتان على مقعد السائق ويداه بالكاد تلامسان مقود القيادة.

«أين تذهبون؟!» يصرخ وهو يمد ذراعه باتجاه الغطاء الجلدي، ينبعج تحت يديه بصوت تمزق قاس، ينفض تمامًا والأيدي تسحبه للداخل، تغيم السماء وهو يسقط فيها، يجدها أوسع مما اعتقد، ترفع السيارة كشافات أضوائها، وتنطلق في السماء نحو وجهتها النهائية، تنقطع أنفاسه وهو

ينظـر الأرض تبتعـد، تفلـت منـه أنـةُ دهشـة، وتضاريسـها تتغـير تحتهـم بسرعـة عظيمـة ويظهـر جبـل عمـلاق مـن صخـر فوقـه تسـتقر الكعبـة المعظمـة ومـن حولهـا الطـير يـدور بـلا توقـف، وترتفـع السـيارة أكثـر ومـن خلفهـا دخـان كثيـف وضحكـة إسـماعيل تغطـي عـلى كل شيء، فـيرى موجـة مـن البـشر حولهـا تنقلـب عـلى نفسـها، آلاف الطائفـين يتوقفـون عـن مسـعاهم، مثـل قطيـع حيوانـات تائـه، يلتفـون عـلى أنفسـهم وببـطء وقـوة غـير معقولـة ينقلـب الطـواف عكـس الاتجاهـه الأصـلي زاحفًـا إلى بـؤرة زحـام عظيمـة تتكـون حـول نقطـة غـير مرئيـة بصحـن الحـرم، حـول سـيارتهم اسـتطاع أن يميـز آلاف السـيارات تتابـع بطريقهـا في سـيل واحـد بنفـس الاتجـاه الجليـل وكأنـه القيـام، فتـح عينيـه غارقًـا في عرقـه، يتلفـت حولـه في الظلمـة جزعًـا وهـو يبحـث عـن إسـماعيل، رآه أسـفل المئذنـة البيضـاء يخطـو بصعوبـة، يـكاد يتعثـر وذراعـاه ممدوتـان أمامـه عـلى مقـود سـيارة وهمـي، فهمـس لـه «تعـال».

نفـس الهمسـة التـي نطـق بهـا مجـدي لابنتـه النائمـة عـلى سريرهـا محتضنـة أرنبهـا القطنـي، تململـت الطفلـة، فلمـس كتفهـا مـرة أخـرى وهـو يهمـس «تعـال»، فتحـت عينيهـا بصعوبـة فابتسـم لهـا وهـو يقـول بصـوت منخفـض «هيا بنـا؟»، «نعـم!» قالـت بلهفـة وهـي تقفـز مـن سريرهـا وتجـري حافيـة سـابقة إيـاه إلى بـاب غرفتهـا، حيـث وقـف أبنـاء عمتهـا المتوفـاة مـن شـهور، محمـد ويـارا، بخطـوات متقافـزة سـارت إليهـم وهـي تدعـك عينيهـا بسـعادة، أمسـكت يـارا بيدهـا اليمنـى ومحمـد بالأخـرى وهـم يسـيرون معًـا إلى غرفـة مكتـب مجـدي الخاصـة، الوحيـدة

التـي لا تدخلهـا زوجتـه للتنظيـف، في بدايـة زواجهـما كانـت تنظفهـا مـع باقـي المنـزل، تدخلهـا مسـتطلعة مـن وقـت لآخـر، تفتـش في حاجياتـه، أوراق دروسـه كتبـه ومذكراتـه، ثـم بَهـت فضولهـا فأصبحـت تنظفهـا مـرة كل عـدة أسـابيع أو أشـهر قبـل أن تنقطـع عنهـا بالكليـة.

تابعهـم مجـدي وهـو ينظـر مشـيتهم السـعيدة، تمنـى لـو كانـت صغيرتـه الأخـرى معهـم الآن لكنهـا نائمـة بـين ذراعـي أمهـا في غرفتهـما، كانـت تلـك الجلسـات الليلـة هـي آخـر مـا اسـتطاع أن يسـتحدثه ليبقـي عـلى صلتـه بهـذه الأطفـال، ليتمكـن مـن حكـي الحكايـات وإلقـاء النكـت وروايـة التاريـخ والغنـاء الأبلـه، لا يمكنـه أن يصنـع أيًّـا مـن ذلـك وزوجتـه معهـم، تمنعـه مـن الحكايـات حتـى لا يفسـد عقولهـم، ومـن دروس التاريـخ لأنهـا مليئـة بالـشر، ومـن الدِّيـن بألـف حجـة، تخشـى كل شيء، وتحـاول أن ينقـضي الصبـاح وهـم أمامهـا كأحجـار متيبسـة، في الحقيقـة تفعـل ذلـك مـع طفلتيهـا فقـط، أمـا أبنـاء أختـه فـلا تريـد إلَّا ألَّا تراهـم.

دخـل الأطفـال الغرفـة الصغـيرة وعـلى البسـاط الدائـري الناعـم جلسـوا بترقـب، فتـح مجـدي أكثـر الأنـوار خفوتًـا، مشـى إلى مكتبـه الخشـبي الـذي ورثـه عـن أبيـه،

«أغمضـوا أعينكـم» همـس مبتسـمًا فانصـاع الأطفـال لـه مـن فورهـم، أخـرج اللوحـات التـي سـهر عليهـا بالليلـة الماضيـة، ثـلاث لوحـات، مشـى حتـى وقـف أمامهـم وسـأل مشـجعًا «أيـن توقفنـا ليلـة البارحـة؟»

صـاح محمـد: «لم تحـك لنـا البارحـة!»، أفلتـت منـه ضحكـة

وقـال: «أيـن توقفنـا بالليلـة التـي قبلهـا إذن؟»

قالـت صفيـة بصـوت مرتعـش: «توقفنـا عنـد رحلـة النبـي وأصحابـه بالصحـراء»، التفـت إليهـا، تأملهـا لثـوان، وجههـا الأبيـض الجميـل وشـعرها الـذي يغطـي جبهتهـا ويطـول عـن كتفيهـا، ضعفهـا البائـن في كلامهـا لسـطوة أمهـا الكاسـحة عـلى كل أفعالهـا، همـس لنفسـه فيـما يشـبه الدعـاء الخفـي «سـتكونين بخـير يـا طفلتـي، لـن أتـركك»، أخـذ نفسًـا عميقًـا وهـو يرفـع اللوحـة الأولى وقـال بصـوت عميـق مختلـف عـن صوتـه، صـوت قـادم مـن عـوالم بعيـدة، لِسـنٍّ حكيـم رأى وعـرف كل شيء، صـوت الحاكـي الـذي يعشـقه أطفالـه «افتحـوا أعينكـم»،

فُتحـت الأعـين، أفلتـت شـهقة طفوليـة واللوحـة ترتسـم في عقولهـم، غزالـة صحراويـة تقـف ناظـرة بعينـين كبيرتـين باتجـاه خيمـة بعيـدة مـن قـماش بسـيط لـه ألـوان طوليـة متجـاورة يجلـس تحتـه رجـال حـول النبـي الـذي اختفـى رأسـه بينهـم،

«أخبرتكـم أن النبـي خـرج مـع أصحابـه في رحلـة بالصحـراء، لم خرجـوا؟ لا أعلـم، ربـما كانـوا يبحثـون عـن صحـابي ضائـع، أو عـن عائلـة تحتـاج عونًـا قريبًـا مـن المدينـة، أو عـن ناجـين مـن معركـة قريبـة، ربـما خرجـوا لقتـال رجـال ظالمـين أو تلبيـة لدعـوة مظلـوم اسـتنجد بهـم، مـا أعلمـه هـو أن رحلتهـم هـذه طالـت، وأن الوقـت كان شـتاء وأجسـادهم ترتجـف مـن قسـوة الـبرد وقلة الطعـام، بحثـوا في كل الأماكـن عـما يطعمونـه ولم يجـدوا شـيئًا.

ثـم ظهـرت هـذه الغزالـة الجميلـة، كانـت بطريقهـا إلى بيتهـا في شـق الجبـل، علمتهـا فطرتهـا أن تبتعـد حـين تـرى الرجـال؛ لذلك حـين رأتهـم أرادت أن تسـابق الريـح هاربـة، لكنهـا لمحـت بينهـم

ما جعلها تتباطأ متأملة، رأت رجلًا جميلًا وهادئًا وسطهم، أرادت أن تقترب منه مستطلعة، لا تعلم لماذا لكنها انجذبت نحوه، شعرت داخلها بنداء خفي قادم من أحلام بعيدة لا تذكر منها شيئًا، لم تستطع الركض، ولم تستفق إلا والرجال حولها بسيوفهم ورماحهم وسهامهم الدقيقة، نظرت حولها بذعر، تحركت أقدامها في كل اتجاه لكنها لم تستطع أن تفلت، شدوها إلى حيث الخيمة، اضطربت بوجل وهي تنظر باتجاه الجبل خائفة، اشمأزت من رائحة النار، وصيحات الرجال».

سُحبت اللوحة الأولى وظهرت الثانية، كانت كلها وجه الغزالة، عيناها دامعتان وشفتاها تتحركان، أذناها مطويتان للخلف خوفًا وجسدها يرتجف ومن خلفها الجبل تعلوه سحب ملبدة وشعاع شمس يمر بينها مخترقًا.

«في وسط مخاوفها تلك رفعت رأسها نحو الرجل اللطيف، تسمرت عيناها عليه وهو يقترب منها بهدوء مطمئن، وقف أمامها متفحصًا وأخذت هي خطوت باتجاهه، مد يده فلامسته بخدها وهي تنظر له قبل أن تغمض عينيها باستسلام وهي تفكر بأطفالها محزونة.

سكت الرجال وهم ينظرون للنبي، همس أحدهم بقلق «هل نذبح؟ نحن جائعون»، وهز النبي رأسه رافضًا برفق وهو يربت على خدها، قال لهم إنها أخبرته بأمر أطفالها، تريد أن ترضعهم مرة أخيرة قبل أن تموت، دعوها تنطلق إليهم وانتظروها، فقد وعدت ولا يكذب الحيوان.

وانفلتت الغزالة من بين الرجال وهي لا تكاد تصدق ما حدث، التفتت للخلف وهي تركض، ظلت صورة النبي في

رأسـها وكأنـه أحـد صغارهـا، أو أمهـا القديمـة».

واختفـت اللوحـة الثانيـة ثـم ظهـرت الثالثـة لغزالـة بـين شـق جبـلي بـه سـهل أخـضر مشـعب، وحولهـا غزالتـان صغيرتـان ترضعـان منهـا «دمعـت الغزالـة وهـي تنظـر لأطفالهـا مـرة أخيرة، تركتهـم يشربـون حليبهـا حتـى ارتـوا، جـرت أمامهـم فجـروا خلفهـا، نظـرت إلى سـيقانهم الصغـيرة، مـا تـزال ضعيفـة لكـن بإمكانهـم النجـاة، لـن يموتـوا مـن ألم غيـابي، لامسـت أنوفهـم بأنفهـا، اشـتمت رائحتهـم طويـلًا، ووجـه الرجـل ورائحتـه لا تـزال عالقـة بعقلهـا، ثـم انتزعـت نفسـها منهـم انتزاعًـا وانطلقـت إليـه، دمعـت طـوال الطريـق وتلفتـت خلفهـا مـرات عديـدة حتـى تتأكـد أنهـما لا تتبعانهـا، ظهـرت أمامهـا الخيمـة مـن جديـد، كان النبـي واقفًـا هـذه المـرة عندهـا كأنـه ينتظرهـا، اقتربـت منـه، بـدا وكأن الحكمـة القديمـة التـي نسـيها كل حيـوان بـأن للإنسـان عليـه سـلطان قـد انبعثـت في عقلهـا مـن جديـد، رغـم كربهـا استأنسـت بابتسـامته العذبـة، اقتربـت حتـى اشـتمت رائحتـه الطيبـة مـن جديـد، انحنـى نحوهـا حتـى قـارب رأسـه وجههـا، نظـر إليهـا طويـلًا، قبـل أن يبتسـم فتسـمع صـوت أنفاسـه رقيقًـا، ربـت عـلى ظهرهـا برحمـة حتـى كادت أن تلمـح دمعـة في عينيـه وهمـس أن انطلقـي إلى أطفالـك ولا تعـودي.

وخفـض مجـدي لوحتـه الأخـيرة، رفـع رأسـه إلى الأطفـال، محمـد كان ينظـر نحـوه بخشـوع، يـارا كانـت تحتضـن صفيـة التـي كانـت دموعهـا تتسـاقط بتعاطـف، ابتسـم لهـم جميعًـا، رأى بعـين خيالـه ابنتـه الصغـيرة تجلـس إلى جوارهـم، ومشـى نحوهـم حتـى جلـس وسـطهم فالتأمـوا مـن حولـه.

في تلـك الليلـة، بعـد أن أخلدهـم للنـوم بأقـل ضجيـج ممكـن، واطمـأن أن زوجتـه لم تشـعر بـشيء، ذهـب إلى غرفتـه مـن جديـد، أغلـق بابهـا عليـه، مشـى إلى مكتبتـه الصغـيرة، أخـرج أحـد كتـب السـيرة الضخمـة فظهـر مـن خلفـه هاتـف جـوال صغـير وغـير تجـاري، ربـما هـو الهاتـف الأخـير الـذي يعمـل بهـذه القريـة، تناولـه بحـرص وأدخـل كلمـة الـسر الخاصـة بـه، انفتـح الهاتـف بتكـة خافتـه وإضـاءة خـضراء باهتـة، كانت رسـالة أخـيرة تنتظـر، فتحهـا وضغـط وقـرأ الأسـئلة بحـرص، كانـت عـن الغـارة الأخـيرة وخسـائرها، أجابهـا واحـدة بعـد الأخـرى بكلـمات مقتضبـة، حـرص عـلى الترقيـم الـذي درب عليـه، لم تكـن مرتـه الأولى ولـن تكـون الأخـيرة، وسـيفعل كل شيء مـن أجـل حمايـة أبنائـه وتوفـير مـلاذ لهـم في هـذه الحـرب العبثيـة ومـا بعدهـا، لكنـه توقـف كثـيرًا أمـام السـؤال الأخـير «أي شيء غـير معتـاد؟»، ذهـب عقلـه مبـاشرة إلى حكايـة عبـد الله وابنـه، ليـس مـا هـو أغـرب منهـا بحـال، لكنـه وجـد نفسـه يكتـب بسرعـة «لا شيء»، ثـم يرسـل رسـالته.

هضبة مريمة خائفة، الحركة فيها شحيحة، البيع والشراء، تهتز النوافذ بهدير الطائرات المحاصرة وتنبض القلوب خوفًا من سماع صوت انفجار جديد، والأخبار القادمة من الهضبة الصغرى مخيفة، جنود النظام ومدرعاته تتغول فيها باتجاه الغرب، مقتربة من حافتها المواجهة لمريمة.

يتجاهل عبد الله كل كذلك وهو يمشي كل صباح إلى قطته، يقطع حارة القريات بطولها، حتى يصل الزاوية، يفكر في إحضار إسماعيل معه في أحد تلك الزيارات، ربما حين تتركه القطة يرى مواليدها الجدد.

مع صوت خطواته خرجت هرته لاستقباله خارج الزاوية كصاحبة دار، قابلته بسعادة هادئة، ممزوجة بأصوات مواء ودود ناعمة، اقتربت من دون تردد من حذائه تتحسسه بوجهها، انحنى على ركبته فتمسحت براحته، وللمرة الأولى لعقت أصابعه، لسانها خشن، غير رطب وكأنه فرشاة تنظيف، سحب عبد الله يده وهو يبتسم بدهشة فاقتربت من الكيس الذي يحمله تشمه مستطلعة، فتحه فظهر فيه الأرز المطبوخ بمرق الخضر وزيت الزيتون وكان يحضر لها بقايا الطعام الذي يوضع بالساحة كل يوم، وضعه بحرص أمامها فاقتربت منه ودفعت رأسها فيه تأكل على مهل بينما أخرج زجاجة ماء قديمة صب منها في علبة بلاستيكة قريبًا منها، ومن داخل الزاوية تعالى صوت مواء ضعيف ومستمر، توقف مستطلعًا وهو يحاول أن ينظر للداخل، التفت إلى قطته فوجدها قد توقفت عن الأكل ووقفت متأهبة، رفعت رأسها

إليـه وكأنهـا تبحـث في نوايـاه، لـن تتركـه يقـترب حتـى يشـتد عـود هـذه المواليـد، لكنـه كان متلهفًـا فاقـترب للمدخـل خطـوة فتحركـت القطـة سريعًـا ووقفـت تسـد طريقـه وهـي تتمسـح بحذائـه بـما يشـبه الرجـاء، وتراجـع عبـد الله للخلـف خطـوات وهـو يطمئنهـا بصوتـه الـذي تألفـه، وعينـاه مـا تـزالان عـلى داخـل الزاويـة المظلـم.

ولم يعـد مباشرة إلى سـاحته، قادتـه قدمـاه إلى الجانـب الشرقـي مـن الهضبـة باتجـاه حدودهـا، إلى المنطقـة التـي لم يعـد فيهـا بـشر وقـد تهـدم كل ركـن فيهـا أو احـترق، إلى أطـراف الأحـراش التـي تمتلـئ بالقتلـة والهاربـين ومـن بعدهـا الهضبـة الصغـرى المحتلـة بجنـود النظـام، وجـد نفسـه يمـشي إلى أرض حلمـه الحديـث، يقـترب منهـا بقـدر مـا اسـتطاع، يبحـث بـين أشـلاء البيـوت عـن وجـه زوجتـه، عـن علامـة غامضـة أو معجـزة صغـيرة مـن أي نـوع، يبحـث عـن تأكيـد للرؤيـا أو تأويـل لهـا.

وقـف بـين الأطـلال، مـا أشـد شـبهها بأطـلال حلمـه، كأنهـا هـي، انتظـر أن يسـمع صـوت محـرك السـيارة فلـم تلتقـط أذنـاه سـوى صـوت زقزقـة العصافـير المتقطعـة، ارتقـى أحـد البنايـات المشـوهة، أقـرب البنايـات للحافـة، رأى أسـفله الدغـل المتشـابك، لا يمكنـك أن تميـز فيـه شـيئًا سـوى غصـون الأشـجار المتشـابكة وظلالهـا، وعـلى المـدى البعيـد ميـز أعـلام جنـود النظـام والألويـة المنضمـة لهـا، كانـت ترفـرف عاليًـا بتجـبر مطمئـن، غـلى صـدره لمرآهـا، مـاذا سـيحدث لـو عـبر الدغـل وانطلـق إليهـا ومثـل وحـش أسـطوري هاجـم الجنـود المتحصنـة هنـاك؟

«سـتحترقون» همـس مـن بـين أسـنانه بغـل، واندهـش لأنـه لم

يقلها من باب الكراهية أو التوعد، بل وكأنها نبوءة أقرها الله ونطقها عبد الله، تسارعت أنفاسه وامتلأت عيناه بدمع وجلس على الركام دافنًا يديه فيه،

وعلى الجهة الأخرى، في الهضبة الصغرى، حيث تحصنت الفرق القتالية أسفل الأعلام كان حسن يدخن سيجاره وهو يقف عند سيارة بيضاء معطلة، شهران مرا عليه منذ دخلوا هذه الهضبة الصخرية وما تزال أختها مريمة مستعصية لا يمكن دخولها والبقاء فيها؛ لأن مقاتليها ورمٌ خبيثٌ ما أن تحاربه بدواء حتى يتحور ويبدأ في النهش من جديد، مريمة قرية لا علاج لها إلا البتر، والبتر مستمر منذ سنوات ومع ذلك لا تموت، حاولوا بترها بالقنابل والرصاص والبارود والغاز السام، لكن الإنسان مثله مثل الحشرات، يخلق المخابئ، يحالف حسن الحظ، يقتات على البقايا ويطور المناعة ويستمر بالحياة وكأنه غير قابل للإفناء، هكذا فكر حسن وآمر فرقته يتحرك في صفوف رجاله باتجاه السيارة البيضاء، يلقي عليها نظرة ساخرة وهو يعبرها باتجاه الدار التي أتى منها صوت العويل الذي أوقف تقدم فرقتهم، منذ وقف إلى جوارها استطاع أن يميز بكاء الأطفال، لكنه ومن معه انتظروا قدوم الآمر المتسلط، وها هو الآن يقف عند باب الدار مستطلعًا، بجسده الطويل جدًّا، النحيل إلا عند البطن، بلون بشرته الداكن الكئيب، وابتسامته الملوثة التي لا تفارق وجهه أبدًا، نظر إلى جنوده وهو يحرك يديه في الهواء كممثل على مسرح ويقول مازحًا: «أما يزال بهذه الهضبة بشر غيرنا؟!»، «فضائيون» صاح أحد الجنود من

بعيد فضحك كثيرون، أشار لهم الآمر بتكلف أن قد حان وقت الصمت واقترب من الباب أكثر وأخرج سلاحه، لسعت حسن دفقة باردة، رفع يده بتعجب فرأى عليها ندفة برد، نظر للسماء بدهشة، كانت الندف تتساقط كرسومات شتاء باريس، انتزعه صوت تحطم الباب من خيالاته، للحظة شعر كأنه دفقة من نور قد خرجت من الدار قبل أن يرى الظل الطويل للآمر يعبر للداخل ومن خلفه رجاله فينطلق معهم، حين عبر الباب كانت هناك رائحة طبخ رقيقة، وأصوات صراخ متصلة بحناجر أطفال، ورغم الظلمة ميز الأثاث وكان مرتبًا، والأسطح وكانت نظيفة، مشى بصالة الدار الواسعة البسيطة، بدا زملاؤه كأشباح تتحرك داخل خيمة من ذرات الغبار التي تنعكس عليها الأشعة الداخلة من زجاج شباك مزخرف بألوان الماء عند زاوية الغرفة، بحث عن مصدر الصوت، تخطى الرجال باحثًا، مطمئنًا بوجود الأطفال؛ لأن الرجال لا تقاتل وهي محاصرة مع أطفالها، وتفتحت الكشافات بإضاءة كاشفة ماحية الظلمة، دارت خطوطها الفاضحة مبتعدة عن السلم الخشبي والأثاث النظيف وألعاب الأطفال، ستؤخذ كل هذه الأشياء بعد قليل، ثم استقرت بخشوع مرتعشة على امرأة تجلس على الأرضية الخشبية وحولها أطفالها، ولد وبنت وبين ذراعيها رضيع ساكن، اقترب منها الرجال ببطء حذر، أضاءت الأنوار وجهها، كانت جميلة متوردة لكنها تبكي وهي تنظر لهم برجاء وتقول مغالبة دمعها: «ابني محموم»، الآمر يهز رأسه بتعاطف مصطنع ويلمح حسن نظرته الساخرة وهو

يقترب غامدًا سلاحه بجرابه، يقف الرجال حول المرأة، ربما يكون سنها قد تجاوز الثلاثين بقليل، أكبر من حسن بسنوات معدودة أو ربما بنفس عمره، ما تزال فاتنة، أبعد نظره عنها بصعوبة لكنه رأى الأعين المتطلعة، هؤلاء رجال أقاموا بخيامهم العطنة مرابطين لشهور، ربما تكون هذه هي المرأة الأولى التي يرونها منذ غادروا مدنهم.

«ناوليني الرضيع»، قال الآمر وهو يمد ذراعيه إليها، احتضنته المرأة أكثر وتعالى نحيبها وبكاء طفليها المفزوعين، «هاتيه!» قالها بلهجة آمرة وهو يضع يديه على جسده، أفلتته المرأة من بين يديها ودموعها تنهمر في حيرة وجزع، «بالله عليك» همست برجاء، توقفت وعيناها لا تغادرانه بينما الآمر يلمس جبهته بشفاه ثم يصفر بدهشة وهو يقول: «تصلح لغلي الماء!»، وينقبض قلب حسن وهو يسمع انفلات الضحكات الساخرة، يتوتر في وقفته وهو يشعر بما يشبه استياء رافض ينمو داخله، يقترب من الآمر، تتلاقى عيناه بعيني المرأة، يضطرب قلبه وهو يقرأ تشبثها به كأخت تبحث عن نجدة توأمها، يبتلع ماء حلقه ويهمس للآمر: «أعطني إياه يا سيدي لأغسله بالماء بالخارج»، «لا، لا» يقولها الآمر بتعالٍ وهو يضعه برفق على الأرض، تقترب الأم منه فيضع يده بصدرها يوقفها، يستعر الجحيم في جوف حسن وهو يرى انبعاجة النهد، وللمرة الأولى تبتعد عيناه عن الرضيع وتتشبث بجسد المرأة، يعرف ما سيحدث بالتقريب، يهابه ولا يطمئن له لكن نفسه تصرخ من أجله، يتكلم الآمر وهو يقترب من المرأة ونظره مرتكز على جسدها: «سيموت

خـلال سـاعات، لا حاجـة للعنـاء»، ويشـير إلى جنـوده وهـو يقـول: «أخرجـوا الأطفـال»، وتـصرخ الطفلـة بفـزع ويتخشـب أخاهـا في مكانـه بينـما تدفعـه الأيـادي للخـارج، تبكـي الأم وهـي تـصرخ في الجنـود أن يتركوهمـا، تـصرخ أن خذونـا إلى العاصمـة الآن، أودعـوا صغـيري المستشـفى ولا تـؤذوا أولادي، تحـاول التملـص مـن أيـدي الجنـود التـي تمنعهـا الحركـة، تبحـث عيناهـا بأمـل واهٍ عـن حسـن، يقـترب الآمـر منهـا، يحتضنهـا بعنـف وهـو يلهـث قائـلًا: «لا تخـافي، لا تخـافي، كل شيء سـيكون بخـير»، تدفـع المـرأة نفسـها مـن بـين يديـه صارخـة بغضـب، فتجـد نفسـها بـين أيـدي الجنـود الآخريـن، يتلمسـون ظهرهـا، منبـع رقبتهـا، تشـعر بالأصابـع عـلى مؤخرتهـا وتـصرخ حتـى يتسـلخ حلقهـا وهـي تدفـع الـكل مـن حولهـا، تدفـع بذراعهـا صـدر الآمـر الـذي يشـدها أكثر وهـو يدفـع وجهـه في صدرهـا، ويرفـع عباءتهـا السـوداء بفحـش صـادم فيبـدو جسـدها كسـطل لبـن مشـدود، تشـتعل الرغبـة في الرجـال المسـعورة، ويقـترب حسـن مفتونًـا، ينظـر إليهـا وأجـزاء جسـدها تتضـح واحـدًا بعـد الآخـر، يشـد غطـاء صدرهـا الـذي يهتـز وترتجـف معـه رغبـة حسـن كأيـام المراهقـة البعيـدة، تتابـع الأحضـان والقبـلات واللمسـات، ويتعـالى الـصراخ والبـكاء ويظـل الرضيـع عـلى الأرض بـلا صـوت، هـل لامسـته أقـدام الرجـال أثنـاء غيبوبتهـم؟ هل داسـوا عليـه؟ سـيفكر كثـيرًا في ذلـك مـن بعـد، لكنـه يقـترب الآن أكثـر، وينسـى كل شيء إلا رغبتـه الآن، الآن، يجـب أن أتلمـس ذلـك، وفي لحظـة مبهـرة داخـل عقلـه تتوقـف كل الأصـوات دفعـة واحـدة، تغيـب كل الذكريـات وتنمحـي الأحـلام، تـذوب عهـود

زواجـه ذوبانًـا وتتـواري مفسـحة المـكان للهمجيـة الأولى، تمتـد ذراعـه حتـى تلامـس أصابعـه صدرهـا، يضغطـه مـرة واحـدة، يجـف حلقـه ويـرى ويشـعر، يرفـع عينيـه إلى وجههـا الصبـوح فتضربـه عيناهـا المعاتبـة المتفجـرة بالغضـب والخـذلان ومثـل زلـزال تتناهـى إلى أذنـه كلماتهـا: «فليلعـن الله أولادك»، تصطـدم الدعـوة بقلبـه مباشرة، تتضـاءل كل نشـوة في لحظـة، يتوقـف متجمـدًا ويتراجـع وصـورة ابنتـه ترتسـم بـين عينيـه، تتسـارع أنفاسـه وهـو ينظـر إلى يـده الملوثـة بقطـرات الحليـب، ويسـمع ضحـكات زملائـه الماجنـة، إلى الخلـف يخطـو مـرة بعـد مـرة حتـى يجـد نفسـه بالخـارج، يرتعـش جسـده بلسـعة بـرد مفاجئـة فيلـف ذراعيـه حـول نفسـه، يسـعل وهـو يـرى أجسـاد الطفلـين ملقـاة عـلى الأرض بـلا حـراك، يتسـاقط عليهـما بـرد لا يلبـث أن يسـتقر مبلـلًا ثيابهـما، لا يعلـم إن كانـوا قـد قتلـوا أم فقـدوا وعيهـم مـن شـدة الـضرب والخـوف، أشـاح بوجهـه بعيـدًا، شـعر بالضغطـة مـا تـزال عـلى يـده، ملوثـة إياهـا وكأنهـا لمسـة ثعبـان سـتظل للأبـد، دمعـت عينـاه وهـو يـرى الأعـلام ترفـرف، أعـلام الفِـرق كلهـا والأحـزاب وجبهـات القتـال، ممتلئـة بالحـروف والرمـوز، إحدهـا كان بلـون أصفـر متداخـل مـع خطـوط حمـراء بيضـاء عنـد أطرافهـا وقـد رسـمت عليهـا بخـط كـوفي الآيـة «قـد سـمع الله»، ارتعـش وهـو يئـن بـألم.

لمحـه زميلـه عـادل وكان يرتـاح مسـندًا ظهـره إلى أحـد السـيارات وهـو يـشرب الشـاي في كـوب معـدني، نظـر إليـه إذ مـر بـه وسـأله: «أبخـير أنـت؟»، كان حسـن كل شيء إلا ذلـك، يشـعر أنـه عـلى وشـك التقيـوء مـن اضطرابـه وخوفـه، هـز رأسـه

أن «لا»، فقال عادل ببساطة: «لذلك لا أدخل أبدًا بيوتًا ما يزال أصحابها بها مع الآمر».

وفي الساعات الأخيرة لتلك الليلة، استيقظ رفاق مبيته على خطرفاته، يتفوه بكلام غير مفهوم، عجيب وغير متماسك وأحرفه متداخله، ارتفعت حرارته في حمى لم تستجب لأي من علاجات الطبيب المرافق، دخل في نوبات سعال متتابعة حتى تجمع الزبد المصفر عند ركن فمه وآلمه أسفل بطنه، كان أشبه ما يكون بإنسان ينازع في سكرات موته الأخيرة، ولم ينتظر الآمر طويلًا، أمر بإخراجه إلى العاصمة في سيارة خاصة نهبت الطرقات الطينية بين صفوف الأشجار المتجمدة بينما يغرق حسن في عالم يذكر منه أمواج بحر مظلم، صوتها يتردد مهدئًا لأعصابه أحيانًا ومثيرًا لجنونه في أحيان أخرى، وفي البعيد مركب وحيد غارقة في الظلام لم يستطع أن يميز مَن فيها.

أُدخل المشفى، دام علاجه أسبوعًا كاملًا، طلب فيه من طاقم التمريض ألا يتم إبلاغ أي من أهله، وببطء تحسنت حاله، هو نفسه قاتل من أجل ذلك؛ لأنه كان قد سأم من غليان مخه بالحرارة ومن تخاريف الأمواج التي تحاصره كلما أغلق عينيه ومن حلقه الجاف الحارق، وفي يوم خروجه كانت ما تزال أمامه ثلاث أيام كتبها له الطبيب بكرم قبل أن يسلم نفسه من جديد لوحدته بالجبهة، استأجر سيارة أجرة إلى بيته، طلب من السائق التوقف أمام أحد محال الألعاب والانتظار، محل قديم، جدده صاحبه مرة قبل موته بفترة بسيطة، وجدده ورثته مرات، كان أبوه يشتري له

ألعابه منه، دخله مبتسمًا وهو يسمع الأغاني الطفولية ويرى ظلال الأطفال تتحرك بالداخل، تلقائيًّا مشى إلى حيث الدُّمى المستقرة داخل صناديقها، كان مطلبه محددًا وبسيطًا، تحب ابنته زهوة الدُّمى التي تحتاج للعناية، تحب أن تلعب دور الأم، مع تفصيلة صغيرة ومهمة، ترتاح الطفلة لدمى الرضع إن كانوا أولادًا، تعتني بهم بلا كلل، تطلق عليهم أسماء لطيفة، لديها منهم زيد ونبيل، لنرَ ماذا ستطلق على هذا، وقف أمام دمية جديدة لم ير مثلها قبل سفره، لها وجه مليح مشرب بالحمرة، وشعر كثيف فاحم أسود وأنف دقيق جميل، ترتدي ثوبًا لبني اللون والى جوارها بالصندوق لم تكن هناك الأدوات المعتادة، لا صابون استحمام أو فرشاة شعر أو زجاجة حليب صغيرة أو طقم ملابس، فقط حوض استحمام ظريف بلون خشبي، نظر لها لثوانٍ متفحصًا، مد يده وأخذ يقلبها، بدت العلبة قديمة بعض الشيء، واقترب منه أحد الباعة المنتشرين بالمكان، وقف إلى جواره وهو يسأله: «أتحتاج مساعدة لتقرر؟».

التفت إليه حسن وسأله: «هل لديكم واحدة جديدة من هذه الدمية؟ علبتها تبدو قديمة».

تناولها البائع من يده وقال وهو يتفحصها مفكرًا: «كانت الأخيرة، وجدتها صدفة بالمخزن، لم نعلم أنها موجودة حتى، على كل حال إن لم تكن تعجبك بإمكانك أن تلقي نظرة على الدُّمى الأحدث المتراصة هناك»، ونظر حسن إلى حيث يشير، صفوف الدُّمى المتجاورة، بأشكالها الاعتيادية وأدوات العناية الخاصة بها التي تملك زهوة الكثير منها، أعاد نظره مرة

أخـرى إلى لعبتـه ورفـع رأسـه إلى البائـع وقـال: «بـل سـآخذها»، وعنـد الخزانـة مـرر صاحـب المحـل نفسـه الدميـة عـلى الكاشـف ليبـين سـعرها، ثـم ضيَّـق عينيـه في غـير فهـم عندمـا ظهـر السـعر أمامـه ومررهـا مـن جديـد، توقـف بدهشـة ورفـع يديـه ينـادي عـلى بائـع حسـن وصـاح: «هـل سـعر هـذه الدميـة صحيـح؟!»، هـز البائـع رأسـه في غـير اكـتراث وأجابـه: «نعـم، يبـدوا أنهـا نسـيت فـترة طويلـة جـدًّا بالمخـزن»، رفـع الرجـل حاجبيـه وقـال وهـو ينظـر لحسـن: «أنـت محظـوظ، لعبـة بسـعر مصاصـة أطفـال»، كانـت أرخـص مـا اشـترى لابنتـه يومًـا رغـم جمالهـا الغامـض، غلفهـا بـورق هدايـا رسـمت عليـه حيوانـات خياليـة تتقافـز وسـط أمـواج البحـر بمـرح، وفي سـيارة الأجـرة أغلـق عينيـه، مـا تـزال آثـار الحمـى باقيـة لكنهـا سـتذهب قريبًـا، فقـط تلـك الحرقـة حـين تغلـق عينيـك والـدوار الخفيـف وكأنـك نائـم في السـحاب،

لكن كل ذلك اختفى حين دخل بيته،

اختفـى حـين جـرت إليـه زوجتـه الصغـيرة وهـي تصيـح بفـرح، رمـت نفسـها بحضنـه ويداهـا مـا تـزالان مبتلتـان بـماء الطبـخ، تلقفهـا بسـعادة وهـو يغلـق عينيـه فـرأى نظـرة المـرأة المحـاصرة بدارهـا ترمقـه بصمـت، جـز عـلى أسـنانه وهـو يدفـع الذكـرى بعيـدًا، فليلعـن الله تلـك اللحظـة، عـلى مـدار الشـهور التـي قضاهـا مقاتـلًا اسـتطاع دفـن أفـكار ومشـاهد قتـل وصراخ عظيـم، لكـن هـذه الواحـدة بـدت عصيـة أكثـر مما سـواها، الآن تنفتـح عينـاه عـلى اتسـاعهما وهـو يلمـح ابنتـه تـصرخ باسـمه باسـمة وهـي تركـض نحـوه قادمـة مـن غرفتهـا، وضغـط عـلى كيـس لعبتهـا بحماسـة.

لئـن كانـت أيـام المعـارك قـد خلقـت داخلـه وحشًـا مـن حـزن وغضـب وضعـف إيـمان، فـإن ابنتـه زهـوة قـد اسـتطاعت ودون أن تبـذل جهـدًا أن تغسـله تمامًـا، وفي سـاعات قليلـة.

جوارهـا عـلى سريرهـا الـذي دهنـت أخشـابه باللـون الزهـري الـذي تحبـه جلـس، تحيـط بـه رسـوم الطيـور والأزهـار التـي رسـمها صديـق خطـاط لـه، تمسـك بصندوقهـا، وتنظـر إليـه بابتسـامة عريضـة ممزوجـة بخجـل صـادق وتهمـس: «أفتحـه؟»، «بالطبـع!» أجابهـا ضاحـكًا.

«مـا الـذي يوجـد داخلـه يـا أبي؟» سـألت بـبراءة، قـال مشـيرًا بإصبعـه في الهـواء ليحضهـا عـلى الحركـة «افتحيـه!»، بهـدوء ثابـت أخـذت زهـوة تبحـث عـن أطـراف الـورق التـي يمكـن أن يُفتـح عندهـا، توقفـت لثـوانٍ وهـي تحـرك أصابعهـا عـلى الحيوانـات المرسـومة عليـه، ابتسـم أبوهـا وهـو ينظـر إليهـا بفـم مفتـوح قليـلًا، في الحقيقـة أنـه كان يفقـد إحساسـه بـكل مـا حولـه سـواها، مسـتمتعًا بصـوت موسـيقى خافـت بالخلفيـة مـن مصـدر لا يعرفـه، احتضنهـا أقـرب إليـه وقـال بمـرح: «لا تسـأليني عـن أنـواع هـذه الحيوانـات، فأنـا لا أعرفهـا»، ابتسـمت وهـي تهمـس بحـزن غـير مفهـوم «أعـرف»، وتحركـت يداهـا برشـاقة تفـض الـورق بحـرص، كان أول مـا ظهـر مـن الدميـة يدهـا اليمنـى، ولاحـظ حسـن بدهشـة أن هنـاك نقـش مميـز عـلى ظهـر كفهـا، دق قلبـه بتوتـر، خـاف أن يكـون صليبًـا، وانبعثـت في عقلـه القصـص عـن حيـل المبشريـن، صمـت بانفعـال غاضـب لكنـه تركهـا تفـض الـورق حتـى انكشـفت الدميـة أمامهـا كاملـة، بافتنـان

همست «واو!»، نظر إلى وجهها، كانت عيناها تلمعان بإثارة شاملة، وغابت ابتسامتها من على فمها المفتوح بانفعال.

«رضيع ومركب»، همست، «أي مركب؟!» سأل حسن وهو ينظر إليها بدهشة، ففتحت العلبة وأخرجت حوض الاستحمام ورفعته أمامه وهي تقول بإعجاب «هذا»، ابتلع ماء حلقه وهو ينظر إليه، كان أقرب إلى أن يكون مركبًا فعلًا أكثر من أي شيء آخر، حتى لونه البني الداكن كان يدل على ذلك، التفت من جديد إلى الدمية، كانت زهوة قد وضعت المركب إلى جوارها وأمسكت بها، رمشت عيناها بحب وهي تنظر إليها، قربتها منها وهي تلمس شعرها، «هل يمكنني أن أرى؟»، «نعم يا أبي»، قالتها وهي تناولها إياه، تفحصها بعناية ومن طرف خفي نظر إلى ظاهر كفه، إلى العلامة، باستغراب فهم أنها ليست صليبًا، إنما رسمة طفولية لما يشبه سيفًا دقيقًا، أية دمية ينقش على كفها رسم سيف؟!

خطفتها من يده واحتضنتها طويلًا، اتسعت ابتسامته وسألها: «ماذا ستسمينه؟»، أجابته همسًا ومن دون أن تفتح عينيها: «إبراهيم»، واقترب منها حسن، قبّل جبينها، لمس بيده كتفها برحمة، وحين رفعها عنها عاوده شعوره بتلوثها حتى أنه مسح مكان اللمسة على كتف زهرة بيده الأخرى وكأنه ينظفها، واستعاذ بالله من شيطانه.

سقف غرفة زهوة تضيئه ألوان فوسفورية باهتة قادمة من النجوم والكواكب اللامعة التي ربطها حسن فيه بخيوط رقيقة، ناما معًا وهما ينظران إليها، أو نامت هي بينما تظاهر هو بالنوم وهو يسمع حركة زوجته بغرفتهما، تحضر له حقيبة سفره، الملابس والطعام وبعض الأدوية، علب من مسكنات الصداع والمطهرات وخافضات الحرارة، شاحن هاتفه وأوراقه، علب سجائره المستوردة وثلاثة أقداح ممتلئة وعلب كبريت احتياطية.

انتظم تنفس زهرة إلى جواره، أحس بصدرها يعلو ويهبط بلطف على ذراعه، أحنى رقبته ينظر إليها، منعه شعرها من رؤية وجهها، أبعده برفق وهو يحاول تنظيمه، عدل ثوبها الواسع، ورمشت عيناه وهو ينظر إلى كتفها، اعتدل في جلسته متوترًا، أمسك هاتفه وأضاء نوره ليرى، قربها منه أكثر، عرى جزءًا أكبر من عند الكتف وهو ينظر إلى البقعة الداكنة، بلون قرمزي داكن وردي عند أطرافه، لمسها بيد فلم يتغير منها شيء، انقبض، وجد نفسه يكشف عن بطنها النحيل وظهرها، كانا نظيفان، هي بقعة واحدة إذن، لامس جبهتها بيده، كانت باردة، ندية بعرق خفيف، قبلها وهو يغطيها، احتضنها طويلًا، فتحت زوجته باب الغرفة، رغم الظلام عرف أنها كانت تبكي مثل كل مرة عند وداعه، قام إليها، طوق رقبتها بذراعه، كانت رائحتها جميلة، رائحة خوخ مخلوطة بكريم لطيف، قبلها فكانت رائحة جلدها أجمل من رائحة عطر استحمامها، أراحت رأسها على كتفه،

قال لها برقة: «خذي حذرك وزهوة تلعب، يبدو أنها تضرب جسدها في الأشياء»، ابتسمت دون أن تجيب وهي تهز رأسها، وهمست: «متى ينتهي كل ذلك يا حسن؟»

«تعشمي أن يكون قريبًا»

«ما الذي سيكون قريبًا؟»

«نهايتهم»، نظرت له متأملة، اعوجت شفتاها بحزن، اقتربت منه أكثر وقالت بحيرة: «نتعشم أن تكون نهايتهم قريبة، ويتعشمون أن تكون نهايتنا أقرب، وأسأل نفسي طوال الوقت، إلى جوار من يقف الله؟ أو إن كان يريد لهذه المسألة أن تنتهي».

«يا أم زهوة!! ماذا تقولين؟!»

«أقول ما أشعر به حقيقة يا حسن ولا أستطيع أن أقوله لأحد ولا حتى لك حين أكلمك على هاتفك، لا أشعر بخير حين أراك تغادر دارنا من أجل أن تقتل رجالًا لا تاريخ دم لنا معهم، أدعو لك طوال الوقت بالنجاة وأخاف أن أدعو بالنصر كي لا يغضب الله مني».

وسريعًا مسحت دمعة هربت من عينيها، وهي تكمل بخفوت: «قديمًا، كنت أنظر إلى قائدنا وأسمع كلماته فأصدقه، الآن حين أنظر إليه أشعر أنه شيطان».

صاحبته كلماتها تلك في رحلته مغادرًا العاصمة بطريقة إلى وحدته الجديدة، تقدمت وحدته الأولى أعمق في محيط الهضبة الصغيرة حتى اقتربت من مشارفها المطلة على الدغل وسلسلة الجبال، واحتلت وحدة أخرى مكانها القديم تحت

إشراف ضابط كنيته: «العميد» واسمه لا يعرفه أحد، لكنه من أشهر قادة هذه الحرب.

أغمض حسن عينيه وهو يفكر، مسح دمعًا صامتًا وهو يتذكر ابنته وحديث زوجته، مضت ثلاثة أعوام عليه في هذه الملحمة، ولدت ابنته وسط أحداث هذه الحرب، يذكر كم كان لطيفًا ودافئًا جلوسه معها قبل أن يلتحق بالجيش، مرافقته لها في كل أحوالها، انتظار الكلمات الأولى على لسانها، التحول من مجرد مولودة لا تدرك شيئًا مما حولها ولا تميز، إلى رضيعة تفتح عينيها باستثارة حين تراه أمامها وتضرب بذراعيها وقدميها في الهواء من أجله وتلتصق به محتمية حين يطلب آخر أن يحملها أو يقترب مقبلًا.

غابت كل تلك الأشياء، انتهت متابعته له وهي تكبر، يراها مرة كل أربعة أشهر أو أكثر، تعامله بالبداية بخجل كأنه غريب، ثم تقترب منه أكثر، ثم لا تكاد أن تنفصل عنه، ثم ينقطع كل ذلك من جديد.

وأولاد قائدنا بخير، ينعمون بصحبته، ينعمون بنعمته، يبدون بالصور كأبناء أمراء أوروبا، وأجمل.

لكنه ليس شيطانًا، لا يمكن أن يكون، المقاتلون الذين بدأوا كل ذلك هم الشياطين، الغرب والعرب الذين استثمروا في كل ذلك شياطين، الإرهاب شيطان، البلد نفسه شيطان، والزعيم ومن معه على خير، لا يمكن أن يكون كل ذلك القتل من أجل لا شيء..

عض شفتيه بمرارة، وبعد دقائق كان يغيب في نومة المسافر اللذيذة.

وبعـد دقائـق أخـرى كانـت بقعـة جديـدة تتكـون إلى جـوار الأولى عـلى كتـف زهـوة، وأخـرى تتكـون أعـلى صدرهـا، ثـم تبعتهـا أربـع بقـع أخـرى عـلى البطـن وأعـلى فخذهـا، نـدف صغـيرة لا تلبـث أن تكـبر مسـتديرة ويصبـح لونهـا أكثـر قتامـة، وفي الصبـاح وأمهـا تحممهـا كتمـت المـرأة صرختهـا وهـي تنظـر إلى ظهرهـا الـذي كان عليـه أكثـر مـن سـت بقـع متفرقـة، أغلقـت الصنبـور بسرعـة، لفتهـا بالشراشـف بيديـن ترتعشـان، نظـرت إليهـا وهـي تفعـل وسـألتها بصـوت راجـف: «أنـت بخـير يـا زهـوة؟».

«نعـم، فقـط أريـد أن أسـتريح عـلى سريـري»، وارتجفـت الأم أكثـر، همسـت لنفسـها أنـه ربـما يكـون الجديـري المائـي، هـذا وقتـه مـن كل عـام، انتظـرت إلى جوارهـا وهـي تحـاول أن تغالـب قلقهـا، ببـطء بـدأت حـرارة زهـوة بالارتفـاع، توقفـت عـن الـكلام وأسـندت رأسـها عـلى فخـذ أمهـا، وأغلقـت عينيهـا بتعـب، ولم تسـتطع الأم أن تبقـى بـلا فعـل إلى جوارهـا، فانطلقـت بهـا إلى المشـفى، هنـاك اسـتقبلها طبيـب شـاب، مـن دون رشـوة أو وسـاطة اهتـم بالطفلـة وكأنـه يعرفهـا مـن قديـم، قـاس حرارتهـا وضغـط دمهـا، تفحـص جسـدها بانتبـاه شـديد، بـدى وجهـه اللطيـف متجهـمًا وهـو يقلبهـا عـلى السريـر ضاغطًـا بإصبعـه عـلى مواضـع الاحمـرار، سـألته أمهـا مـن دون صـبر «جديـري؟»، لم ينظـر إليهـا أو يجبهـا، فقـط تـرك الطفلـة وهـو يهمـس لـلأم «غطهـا وعـري ذراعهـا»، وذهـب إلى دولاب الأدويـة، أخـرج منـه حقنـة عـاد بهـا، كادت الأم تتسـاءل معترضـة وهـي تـرى الحقنـة تخـترق جلـد الطفلـة التـي تأوهـت بـألم لحظـي في غـير

وعـي لكنهـا خرسـت تمامًـا وهـي تـرى الـدم يخـرج مـن شريانهـا في الحقنـة، لم يكـن دمًـا عاديًّـا، كان باهتًـا، مبيضًـا وكأنـه دم مختلـط بصديـد، ينسـاب ببـطء شـديد داخـل الحقنـة، رفعـت رأسـها للطبيـب وهـي تقـول ببـكاء مذعـور «مـا هـذا؟!!»، ولأول مـرة لمحـت قطـرات العـرق المحتشـدة عـلى جبينـه وميـزت ارتعاشـة يـده الممسـكة بالحقنـة.

عندمـا أتـاه الاتصـال لم يرتعـد، بطريقـة أو أخـرى كان يتوقعه، فقـط بـدت قتامتـه لفـترة كأمـر غـير قابـل أن يحـدث وحـاول أن ينسـاه منشـغلًا بـكل الأشـياء مـن حولـه.

لم يرتعـد لكنـه انفعـل غـير قـادر عـلى التنفـس، احمـر وجهـه وكأنـه عـلى وشـك أن ينفجـر، وضـاق صـدره بالشـؤم الأسـود وبـدا وكأن روحـه داخـل جسـده تـصرخ محاولـة الخـروج منـه للأبـد.

وضـع أقدامـه عـلى الأرض نـزولًا مـن السريـر الضيـق، انحنـى جذعـه، فـرد أمامـه يـده..

تلـك التـي كان يجـب أن يقطعهـا حـين فعـل مـا فعـل، قبـل أن يعـود لـداره، قبـل أن يلمـس زهـوة منجسًـا إياهـا.

جز أسنانه وهو يغالب بكاء قاهرًا لا يخرج منه،

«آآآه يـا زهـوة!»، همـس ملتاعًـا وهـو يحيـط رأسـه بيديـه ضاغطًـا، تباطـأت أنفاسـه وتعـرق جبينـه، نظـر حولـه وكأنـه يـرى ذلـك المنـزل الريفـي الـذي يبـات فيـه للمـرة الأولى، اشـتم رائحـة الـضرط العطنـة، زمـلاؤه النيـام بظلالهـم قبيحـة، صـوت الشـخير المقـزز مختلطًـا بنعيـق البـوم ونبـاح الـكلاب المتقطـع.

أغمـض عينيـه، امتـدت ذراعـه إلى وسـادته، بحثـت أصابعـه تحـت الوسـادة عـن علبـة سـجائره، التقطهـا مرتعشًـا، اهتـزت سـيجارته بـين شـفتيه وهـو يشـعلها، استنشـق بعمـق، يجـب أن يفكـر، يجـب أن يجـد الحـل الآن.

عـب دخانهـا، وكأن فمـه مخـدر بالكامـل، شـعر بأنـه يعـب لا

شيء، سحبها من فمه، نظر إليها متفحصًا، رأى دخانها يخرج منها بلون أحمر قانٍ في الظلمة وتحول جلده إلى جلد أوزة حينما رآه يتجلط في الهواء ببطء ممتلئًا ببياض مشؤوم.

ألقاها من يده وتوقف، لا يمكن أن يحدث ذلك، لا يمكن أن يسمح الله به؛ لأنه غير معقول! ما ذنبها هي؟ وما ذنبه هو؟! كانت رغبة شيطانية استحوذت على عقله وحواسه وانصرفت، ألم يفعل زملاؤه أكثر؟ ألم يفعلوا أشياء أسوأ طوال السنين الماضية؟ فلماذا يحاسب هو على هذا الشيء الصغير؟! منذ متى يقف الله إلى جوار لحظات الضعف ويترك دموع ندم التائبين؟

لكنه بلا دموع، مع أن روحه بلغت حلقومه، تئن من أجل أن تموت لأن الألم لا يحتمل، يعرف ما سيحدث بالتقريب، يعرف هذا المرض، يعرف كيف تخبو أجزاء الجسم الصغير واحدة بعد أخرى، وكيف يدخل العلاج المميت إلى العروق، نقطة نقطة بينما يتساقط الشعر ويطفو الغثيان المستمر وينطفئ بريق الأعين وتتساقط الأظافر، يعرف الأطباء العجزة، ستتحسن، ستسوء، هي أفضل، انتكست، ستعيش، ستموت، لا يهم كل ذلك، فقط دعنا نحرق الجسد لعام أو اثنين بعلاجاتنا محيلين حياتها وحياة كل من أحبها وحياة كل من سيراها إلى حلقة لا نهائية من الوجع حتى تموت راضية.

التفت إلى يساره، ها هو سلاحه، سيستعمله مرة أخيرة، ربما يكون حينها تكفير ذنبه قد قُبل وتعود الطفلة إلى ما كانت عليه، أغمض عينيه وهو يتلمس معدنه البارد، ضغطهما بقوة فنز منهما دمع حسرة ساخن، الآن يؤمن،

نعم الآن، للمرة الأولى يكون إيمانه بالله حقيقة كاملة، بدون وراثة، بدون شكوك، بدون خطب أو أدلة علمية، بدون قراءة بين سطور الكتب ووقفات في صلوات التهجد، إيمانه الآن إيمان من رأى وعرف، كانت دعوة واستجيبت وانتهى الأمر. الله موجود.

أمسك سلاحه بيمناه، لم يستطع أن يقيمه، اهتز بيده بارتعاشتها حتى كاد يسقط، وتذكر أمرًا بعيدًا بدهشة!

الحديث القديم، لا يدري ما جاء به؟ لم تذكره؟! حديث المهدي، ذلك الذي طالما آثار في عقله الشكوك، ليس الحديث كله، فقط أحد مقاطعه الأخيرة، ذلك المقطع الذي لم يفهمه يومًا،

«يصلحه الله في ليلة»

دائمًا ما كان يسأل كيف يصلح حال إنسان في ليلة واحدة؟ كيف ينقلب من حال إلى آخر في ساعات؟ أليست العادات أوتارًا تتجاور يومًا بعد يوم حتى تغدو حبالًا غليظًا لا يمكن قطعها؟

الآن يفهم أن الأمر لا يحتاج إلى ليلة،

فقط لحظة،

لحظة أطول من كل عمره،

مثل هذه اللحظة،

ألم تُهدم كل الأحلام العظيمة، والذكريات الضاغطة وقصص العشق القديمة ولحظات المجون المخدرة وكل الأشياء من حوله الآن وهو يقرب مسدسه من رأسه؟

حتـى النـار التـي طالما خـوَّف بهـا لا تصبـح شـيئًا إن كان عذابـه سـيجعل المظلومـة تعـود سـالمة.

فليفعلها مرة واحدة،

وليسـامحه الله، مـا يفعـل بعذابـه؟ ليكـن دواؤهـا الشـافي عذابـه الـذي أحـرق روحـه بسـبب لمسـة لم يجـب أن تقـع. أخفـض رأسـه، تحـرك إصبعـه إلى الزنـاد، لامسـه، اسـتطاع سـماع حركـة الزنـبرك الداخـلي وهـو يضغـط، السـلك اللولبـي يتقارب، توقـف تنفسـه، ورن هاتفـه...

مرة،

ثم مرة،

ثم أخرى،

تململ رجـل في حاشـيته، وتقلـب آخـر، وازدادت ارتعاشـة يـد حسـن،

همـس لـه قلبـه «هـي زهـوة»، زفـر بتوتـر غـير محتمـل، التفـت إلى سريـره الصغـير، رأى اسـم زوجتـه يـتردد فيـه، وارتعـش حينـما سـمع صـوت رجـل رحيـم «أجـب»، تلفـت حولـه بحثًـا عـن صاحبـه، نظـر إلى أَسِرَّة الرجـال حولـه وكلهـم نيـام، خفـض سـلاحه وانطلـق إلى سريـره، التقـط الهاتـف وهمـس بلهفـة «زهـوة؟».

جاءه صوتها رقيقًا ودافئًا،

«مـاذا تفعـل يـا أبي؟»، ارتعـش صوتـه وهـو يقـول: «مـاذا تفعلـين أنـت أيتهـا الصغـيرة؟».

«أتحدث مع إبراهيم عنك».

جلس غير قادر،

«لكنه لا يعرفني، قد خطفتيه من يدي عندما كنت أتعرف عليه، ألا تذكرين؟».

ضحكت بخفة فارتعش قلبه معها، «بات يعرفك من كلامي عنك يا أبي»،

ترقرقت دموعه، أغلق عينيه متألمًا، دامت لحظة صمت طويلة، بدا صوتها حكيمًا وكأنها تعرف كل شيء وهي تسأله من جديد: «ماذا تفعل يا أبي؟»،

دون أن يفهم، دون أن يشك لحظة، دون أن يفكر، وجد نفسها يجيب: «أبحث عن دوائك يا زهوة»،

«تعرفه؟» سألته بجذل بريء،

«نعم» أجاب صادقًا، وأذابت قلبه ابتسامتها التي سمع أنفاسها من الطرف الآخر، ترك سلاحه من يده وهو يهمس لها «ستكونين بخير يا زهوة»، قالها وهو يعلم أنها ليلته، وأنه انصلح، وأنه مهديها ولو لبضع ساعات يعيد فيها الأمور إلى سابق عهدها.

وبلا سلاح، ولا سجائر ولا حقيبة ظهر تحرك خارجًا، للحظة شعر أن كل القيود المفروضة في دنياه قد انسحقت عند قدمي ابنته التي سيفعل أي شيء من أجلها.

بالخارج الظلمة حالكة، قمر بعيد يغيب خلف سحب عملاقة، استبدلت رائحة الخضار المسلوق التي تعبق كل أركان الدار حتى أخشاب سريره بريح بادرة نظيفة، نظر حوله محاولًا أن يميز أي شيء، لم ير إلا خيمة العميد على أعلى زاوية تنتظر منعزلة، حتى الأعلام لم يستطع أن يميزها رغم أن صوت رفرفتها وصله كاملًا، نظر حوله بحثًا عن نقطة بداية، إذا كانت الهضبة هلالًا فهذه بدايته ولا بد أن يتوجه غربًا باتجاه الهضبة الأخرى حيث سارت فرقة الآمر، لا بد أن المرأة معهم، ولا يمكن أن يكونوا قد دخلوا مريمة وحدهم وهي تعج بالمقاتلين.

خطوات بالظلمة، كابحًا هديرًا داخله يريده أن يجري وينتهي سريعًا من أمر المرأة، كان قد وصل منذ ساعات استلم فيها سلاحه واستقر بمكان مبيته وحين غرق في نومه جاءه الخبر، ما يزال عقله مشوشًا، ولا تزال الهلاوس تتداخل مع معطيات المكان من حوله، مشى بجوار الدور، رأى رسومًا بدائية على حوائطها، فراشة باهتة على أحد الجدران الحجرية، عبرها إلى دار أخرى رسم عليها صورة بالونة بألوان غريبة تشكل ما يشبه وجه امرأة، صفراء وزهرية وبأعلاها ربطة شعر داكنة، عبرها إلى ما يليها فرأى على الجدار طفلًا يقف على صخرة أشبه بالكرة، هكذا كانت بداية خطواته، عشوائية تداخلها الخيالات بلا قدرة على التقرير، فقط اتبع هلاوس لن يتأكد أبدًا بعد هذه الليلة إن كانت موجودة حقًّا على حوائط الدور أم أن عقله

اخترعها بمخدر سحري لم يعلم عنه شيئًا بعدها، وحين مر بجوار خيمة العميد سمع صوت الموسيقى الغربية، واستطاع أن يميز ما يشبه ظلًّا بداخلها حجبه عنه قماشها الثقيل،

العميد نفسه استطاع أن يميز صوت الخطوات بالخارج، فلامس زجاج هاتفه المتصل بمكبرات الصوت مخفضًا صوت الموسيقى،

ارتعشت

الهواء الدافئ يزداد بردًا

وأنا وحدي

وفي كل خطأ حفرت فجوة

تنخر بجلدي وعظامي

أحنى العميد رأسه مسترقًا السمع بانتباه، ضغط بيده على الصورة بين يديه وخلع يده الأخرى عن زجاجة شرابه، هي خطوات أحد رجاله ولا شك، ميزها من هدوئها المطمئن ومن صوت دعس الحذاء العسكري على الأحجار الصغيرة، وضع يده على مكتبه هامًّا بالقيام ولكنه توقف، أعاد الزجاجة مقربًا إياها من جديد، شرب منها يسيرًا وهو يفتح يديه على الصورة،

كانت صورتان، صورة قديمة لطفلة لم يتجاوز عمرها العامين يضج وجهها بابتسامتها الهادئة وخداها المحمران، وصورة أخرى لشابة جميلة في مثل عمره هو أو أقل بقليل، لها شعر بني داكن كثيف وأنف دقيق وخدان محمران مثل الطفلة وكأنها أختها،

أخـبره حدسـه وهـو لا يخطـئ أنـه لا داعـي للقلـق، مجـرد جنـدي يتسـكع مهمومًـا لحـادث طـارئ أو ذكـرى قديمـة أو اشـتياق للأهـل،

مد يده لهاتفه ورفع الصوت أكثر،

الطيور سوداء

تتبعني

وتحفر قبري

تقترب وتبتلعني

فيأتي الألم في موجات

لأني أحصد الآن

ما أعطيته يومًا

قادتـه خطواتـه إلى عمـق الهضبـة، مناطـق رماديـة لم يرهـا مـن قبـل، لم يسـتطع أن يميـز الـدور التـي اسـتقرت بهـا فرقتـه مـن قبـل، ضـاع بـين دور متباعـدة وحقـول محروقـة لا ينبـت فيهـا شيء وتشـع منهـا رائحـة العطـن المشـتعل،

توقـف مكانـه شـاعرًا بضياعـه، نظـر للسـماء لا يـزال القمـر محتجبًـا، لمـح بومـة تطـير في الأعـلى، حـين مـرت فوقـه رفـع رأسـه بزاويـة مسـتقيمة، فتحـت جناحيهـا عـن آخرهمـا لتبـدو كسـجادة بيضـاء قبـل أن تطلـق صـوت نهـام وتغلقهـما مرفرفـة،

ارتعـش، سرى داخلـه خـوفٌ مبهـمٌ، لكنـه لم يرجـع خطـوة، فقـط أراد البـكاء مـن ضعفـه،

وسـمع صـوت الطلقـة، طلقـة واحـدة، دوت عنيفـة وغاصبـة تلتهـا أصـوات رفرفـة طيـور عاليـة، ثـم طلقـات متقطعـة،

ثـم سـكت كل شيء حتـى اسـتطاع أن يميـز صـوت هاتفـه

المندهش، قبل أن ينشق الصمت بدوي رصاص سلاح آلي، تبتعته أسلحة أخرى،

تحرك بسرعة باتجاه الضجيج، كان بعيدًا لكنه استطاع أن يميز طريقه نحوه، لا بد أن فرقة العميد قد سمعت الصوت نفسه وستتحرك قريبًا، وانشطر الظلام بإضاءة ساطعة، لمعت في السماء كقمر لحظي قبل أن تنكفئ على نفسها موجهة نحو الأرض، الكشافات! لا بد أنها محاولة هروب أو انشقاق، لتكن ما تكن، ما يهمه الآن أنه قد عرف طريق وحدته وها هو يسلكه.

وانطلق ركضًا،

طويلًا بما يكفي لتتقطع أنفاسه،

طويلًا بما يكفي لتهدأ الأصوات وتنطفئ الأنوار ويعود الهدوء،

لكنه تابع مسيره حتى وصل، فكان أول ما استقبله أصوات الرجال المتوترة وصيحاتهم المتقطعة،

استطاع أن يرى رجال الحراسة متأهبين،

كان الكشاف لا يزال يدور، يدفعه على قاعدة دائرة أحد زملائه فاحتمى بكومة قش مرتفعة ورائحة بول خانقة تحاصره، كان يعرف وجهته جيدًا،

هذه هي نقطة تمركز الوحدة، الدور المحتلة والخيام المتجاورة والمركبات تدل على ذلك، على عكس العميد كان آمر الفرقة يختار لنفسه أفضل الدور وأكثرها راحة، دار بعينيه في المكان، توقف عند دار تتوسط المنطقة، مرتفعة عما سواها، لها حوائط مزخرفة، أمامها أشجار مقطوعة وبقايا مجالس

إسـمنتيه، وأمامهـا رجـلان للحراسـة، تقـف عندهـا المركبـة الروسـية التـي قادهـا بنفسـه مـرات عديـدة والآمـر إلى جـواره، لا بد أن هذه هي الدار،

أملـه كبـير أن تكـون المـرأة لا تـزال بهـا، سـيجعلها الآمـر محظيتـه حتـى يملهـا.

بصمت جلس يراقبها،

مـرت سـاعة كاملـة وهـو يفعـل، كانـت الأمـور تنـزع إلى الهـدوء،

عـادت دوريتـان، نـزل الجنـود مـن السـيارات ودخلـوا إلى الـدار ليوافـوا الآمـر بالأخبـار، ثـم خرجـوا إلى مسـاكنهم.

الحـرس اتخـذ وضعيـات مريحـة، دخنـوا السـجائر وبـدؤوا بالثرثـرة.

وانتظر الساعة السحرية، ساعة ما قبل الفجر،

لا بد أن الإنسان قد خلق فيها أو شيء من هذا القبيل،

السـاعة التـي يخبـوا فيهـا كل شيء، يتعـالى الشـخير ويسـقط التحفـز،

رأى كيـف وضـع أحـد الحارسـين سـلاحه عـلى الأرض مريحًـا ذراعـه وزميلـه ينظـر إليـه في لا مبـالاة بعينـين متعبتـين.

اهتز هاتفه داخل جيب قميصه منذرًا بنفاذ بطاريته..

وانطلق دون تفكير،

تردده أو خوفه قاتلاه الآن، ليكن قطًّا لا أكثر وسيصل،

جـرى منحنيًـا، فـوق الطريـق الترابيـة الممهـدة ودار مـن حـول الـدار الكبـيرة، مـا أعجـب زخرفـة حوائطهـا؟ تماثيـل مـن جـاص أبيـض لهـا طابـع رومـاني قديـم، ومجالـس إسـمنتية متفرقـة عـلى

مسافات متقاربة.

بحث عن نافذة، حاول أن يكتم لهاثه وهو ينظر إلى واحدة عملاقة من خشب بلوط أعلى رأسه.

كانت ثقيلة وكأنها باب مدينة أثرية، لكن ضوء يتفلت من الفراغ الدقيق بين جانبيها، مد ذراعه ودفع الخشب فلم يتزحزح، نظر حوله، التقط جذعًا جافًا، حشره بين جانبي النافذة من الأسفل ثم رفعه للأعلى بحذر حتى اصطدم بالمزلاج المعدني، بيد ترتعش انفعالًا دفعه للأعلى أكثر، شعر بالمزلاج وهو يتحرك بصوت احتكاك ضعيف حتى سمع صوت انكسار الجذع، ألقاه بحذر وهو يتلفت بحثًا عن آخر، أمسك به وحشره واستمر في الدفع ومن بعيد، ربما من مريمة نفسها، حملت الرياح صوت أذان الفجر فداخله شجن واستبشر، انفتح المزلاج وتحرك الخشب بصوت احتكاك ثقيل بينما يسمع أصوات أقدام تقترب، دفع بيديه الاثنتين الإفريز الخشبي، ارتفع جسده عن الأرض، وضع قدمه الأولى وتفتح أمامه البهو رغم الظلمة، ما أشد بذخ هذا المكان! كأنه قصر! رفع قدمه الثانية ودخل.

ببطء حذر سار بين قطع الأثاث المذهب، ترقبه ملائكة علوية رسمت على السقف الملون، رائحة عطر خافت تعبق المكان، ميز بقايا وجبة من لحم وخضر، وقطع ملابس دخلية ملقاة بإهمال ومنشفة عطنة، «الآمر هنا» همس لنفسه وهو يتوجه نحو السلم الداخلي للدار، تعرق رغم برودة الجو حتى لسع عرقه أسفل عينيه، طقطق الخشب تحت قدميه وهو يصعد للأعلى، وظهرت أمامه صالة أخرى، أصغر من أختها بالأسفل، تتوسطها شاشة تلفاز حديث عملاقة معلقة

على حائط مزخرف من جوانبه المحيطة بها وأمامها أريكة ضخمة يستقر فوقها جسد طويل متدثر من أعلاه لأسفله بالأغطية الثقيلة.

أفلتت منه دقة قلب تبعتها دقات مبعثرة وغير منتظمة، عض شفتيه وهو يقترب، زفر بصعوبة، آلمه صدره وهو يقف على رأس الجسد، مد ذراعه حتى لامس الأغطية المبطنة بالفرو، قبضت أصابعه عليها، ثم انبعث الزفير من فمه ذعرًا وذراعان قويتان تحيطان بخصره ويدفعانه للأمام ليسقط على الأريكة ويضرب طرفها الصلب بوجهه، حاول أن يقوم فعالجته ضربة معدنية على قمة رأسه، صرخ بألم وانحنى على نفسه وهو يشعر أنه يوشك على التقيؤ، وبكل عزمه دار حول نفسه فاقتحمت أنفه رائحة عرق الآمر ورأى نظرة الغضب المسعور في عينيه وهو يضغط أسنانه مهاجمًا إياه، فانقض عليه مصطدمًا وهو يلف ذراعيه حول جسده الكئيب ويدفعه للخلف والآمر لا ينفك يضرب بقبضتيه ظهره، وسمع أنته وهو يصطدم بالحائط، فلم يمهله حسن وهو يضرب بقبضته ما بين فخذيه فيصرخ الآمر وينحني على نفسه أمامه.

دفع بكلتا يديه ظهره مسقطًا إياه على أرضية من خشب الأرو اللامع، اقترب منه حتى وقف أعلى رأسه ومن دون مقدمات سأل «أين المرأة؟»، في دهشة متألمة نظر إليه الآمر واستطاع حسن أن يميز شبح ابتسامة على وجهه قبل أن يسمع صوت ارتطام زلزل رأسه بألم فجائي مثل صاعقة كهربائية، ثم أظلم كل شيء.

استعاد وعيه على صوت لهاث متعب، بدهشة وجد نفسه يشعر بقطرات عرق تتساقط على بطنه، فتح عينيه على اتساعهما دفعة واحدة، فطالعه رسم ملاك عار ورشيق منقوش على سقف رمادي محاطًا بصور أطفال أوروبية الملامح، هب من رقدته بذعر، سمع ضحكة وجسده يرتطم عائدًا إلى الطاولة الطويلة التي ربط إليها، من معصمية وعند الكعبين، «لا!»، همس بغضب وهو يشتم الرائحة الدهنية المالحة التي يعرف صاحبها جيدًا، رائحة الخلايا الميتة التي لم يغسلها الماء، وظهر الآمر، مستعيدًا رباطة جأشه وعاداته القديمة، ها هي الابتسامة العفنة ترتسم على وجهه الذي ميز فيه حسن كدمات متورمة على الخدين وأسفل شفته لم تستطع أن تغطيها أشواك لحيته النابتة، «ها أنت تعود يا صديقي القديم»، قالها الآمر وهو يلامس خد حسن بأصابعه عابثًا، كان وجهه يضج بالعرق واكتشف حسن ببطء متوتر بالانفعال أنه عار تمامًا من أي ثياب حتى عورته، انتفضت كل أعضاء جسده تحاول الفكاك من قيده، نظر إليه الآمر لحظة والطاولة الخشبية ترتجف معه، ثم اقترب دون سابق إنذار رافعًا ذراعه على امتدادها مسقطًا إياها لترتطم قبضته بجبهة حسن الذي ارتج مخه داخل عظام جمجمته وهو يسمع صوت الآمر اللاهث يعيد بكلمات تفصل بين كل منها لكماته «ها أنت»، يتبعها صوت الصفعة، «تعود!»، وهو يحطم فك حسن بقبضته العظمية، وبلا حياء يقفز فوق جسده العاري، يجلس فوق صدره بكل ثقله وهو ينكمش بذعر، تنكتم

أنفاسه ويكاد أن يبكي من عجزه وضعفه، تحدق فيه عينا الآمر مهددة، يستجمع شتات نفسه بصعوبة وهو يحاول أن يرفع إليه بصره، تخرج كلماته متعلثمة ومرتعشة «أنا وأنت جنود، استرني بالله عليك!»،

عض الآمر شفتيه وهو يهز رأسه رافضًا، مد يديه إلى حلمتي الرجل، معتصرًا إياهما بين أصابعه بجنون حتى شعر حسن بجلده يتشقق بالدم، صرخ وانفلتت الكلمة من بين شفتيه «لماذا؟!».

أفلت الآمر جلده وأمسك بوجهه من الخدين ضاغطًا وهو ينظر له ساخرًا: «عملت معي طويلًا يا حسن لتعرف جزاء الخيانة عندي»،

هز حسن رأسه وهو يرتجف من خوفه، كان عريه قد أفقده كل روح التحدي التي ملأته قبل أن يأتي، ووأد ثقته بنفسه، «أقسم بالله أني لم أخن»، اقترب الآمر برأسه من وجهه حتى استطاع حسن أن يشم رائحة أسنانه مفعمة بالدخان العطن، ورأى صفرتها المريضة حتى إنه ميز بقايا الطعام فيها وهو يقول «أرني سلاحك يا حسن»،

«تركته بوحدتي الجديدة، وحدة العميد بأطراف الهضبة»،

بهت وجه الآمر لحظة وتوترت نظرته، أفلت وجه حسن وخف وزنه من على صدره،

«انضممت إلى وحدة العميد؟».

«نعم، ليلة البارحة».

تراجع الآمر، نزل من على الطاولة الخشبية، أخرج علبة

سـجائره وسـحب واحـدة بسرعـة، نفـث دخانهـا الأول وهـو يعيـد نظـره إلى حسـن،

«ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

أجابـه برجـاء: «غطنـي أولًا، أرجـوك»، صرخ الآمـر وجسـده النحيـل يهتـز: «مـا الـذي جـاء بـك؟!!»،

كاذبًا أجابه بسرعة: «أردت أن أزور رفاقي بالوحدة».

«من دون سلاح؟»،

«نعم»، قالها بصوت مرتعش،

«ولم تسـللت إلى غرفتـي؟»، صمـت حسـن وهـو يبحـث عـن إجابـة، لم يفكـر لحظـة أن يصارحـه بالحقيقـة، لكـن لـن يفهـم هـذا الخنزيـر شـيئًا منهـا، اتسـعت ابتسـامة الآمـر مـن جديد وهـو ينظر إليـه باسـترخاء، «أنـت مـن هربهـا يـا حسـن وأعطاهـا السـلاح»، ونبـض قلـب حسـن بعنـف، مـن دون أن يعـي ارتسـمت ابتسـامة طاهـرة عـلى شـفتيه، غمـره ارتيـاح غـير معقـول، حتـى أن الآمـر حـدق فيـه متفحصًـا قبـل أن يكمـل: «رأيـت كيـف نظـرت إليهـا يـوم دخلنـا دارهـا، كيـف امتـدت يـداك إليهـا كطفـل مسـحور، قلـت لنفسـي مـا بـه؟ أنـت مـن أفلتهـا الليلـة»، وسـكت حسـن، كانـت أنبـاء عظيمـة، الآن يجـب عليـه أن يخـرج مـن هـذا القيـد ويكمـل بحثـه، نمـت داخلـه روح الليلـة مـن جديـد ووجـد نفسـه يجيـب متحديًـا وهـو يريـح رقبتـه ويرخـي رأسـه عـلى الطاولـة، «أريـد أن تبلـغ العميـد بوجـودي هنـا، لا يجـب أن يكون حديثـي معـك أيهـا الآمـر، كـما أنـه يعلـم أيـن سـلاحي»، أجابـه الآمـر قائـلًا بـبرود: «أنـت بوحـدتي»، عاجلـه حسـن مقاطعًـا:

«هو أعلى منك رتبة»، وخيم صمت حتى أن حسن أغمض عينيه محاولًا كبت انفعاله، نفث الآمر دخان سيجارته وهو يمسح العرق عن جبينه بظهر يده، انفلت رماد سيجارته فسقط على وجهه ولسع عينيه، مسحهما بغضب، لم يتكلم معه بعدها، فقط سأله قبل أن يخرج من الغرفة: «هل يعلم العميد بوجودك هنا؟»، وحين رأى اختلاجة شفتي حسن وصمته ابتسم من جديد وهو يسحب باب الغرفة خلفه.

مـر عليـه نهـار ذلـك اليـوم بأكملـه مـن دون أن يدخـل عليـه أحد...

رأى ملائكــة الســقف يتلونــون بأضــواء الــشروق، بظــلال الغيــام، وبحــرارة الظهــيرة الدافئــة،

وحـين بـدأ النـور بالانحسـار، واحمـرت الألـوان بـما تبقـى مـن ضـوء شـمس تغيـب، انفتـح الباب.

تسلل إليه نسيم بارد مختلط ببقايا الضوء الأخيرة،

والتفت ينظر،

طقطقـت رقبتـه بخشـونة وهـو يفعـل، آلمـه كل جسـده الـذي لم يـذق طعامًـا أو شرابًـا أو يتحـرك منـذ فجـر ذلـك اليـوم،

رأى الظــل أولًا مرتســمًا عــلى الأرض إلى جــوار طاولتــه، ممتلئًـا، وقصـيرًا، التفـت أكثـر ينظـر صاحبـه وهمـس باسـمه بأمـل «عــادل!»، تقـدم منـه زميلـه القديـم، رأى كيـف باعـد عينيـه عــن عريــه وهــو يحمــل صحــن الطعــام بــين يديــه، وضعــه عــلى الأرضيـة جـواره قبـل أن يعـود بمـلآة خفيفـة فردهـا سريعًـا عـلى جسـد حسـن الـذي دمعـت عينيـه وهـو يشـعر بهـا تسـتر عورتـه بينــما يمــشي عــادل بخطواتــه الثقيلــة جاذبًــا كرســيًّا إلى جــوار صاحبــه.

«افتح فمك يا حسن»،

«عجــل بالمــاء أرجــوك»، تــرك عــادل الصحــن، وبسرعــة أخــرج زمزيتــه وقربهــا مــن فــم حســن الــذي أخــذ يعــب المــاء طويــلًا غــير مكــترث بــما يســقط منــه عــلى جلــده، ولمــا ارتــوى

تـرك جسـده يسـقط عـلى الطاولـة وزفـر في راحـة.

لامسـت قطعـة لحـم دافئـة فمـه، تنـاول رائحتهـا قبـل أن يفتـح فمـه لهـا ويبـدأ بالمضـغ، حـاول أن يعـدل وضعـه لينظـر إلى زميلـه، آلمـه قيـده وشـد عليـه، لم يعبـأ بـه، فقـط نظـر إليـه..

كان عـادل يضغـط كـرة أرز بـين أصابعـه، راقبـه حسـن، ازداد وزنـه عـن آخـر مـرة رآه فيهـا، مـا يـزال الصلـع يزحـف عـلى قمـة رأسـه كـما تركـه، شـفتاه مزمومتـان للأسـفل بمـرارة ووجهـه يفضـح حزنـه.

«عـادل» همـس لـه حسـن فأغمـض عينيـه ولم يرفـع رأسـه إليـه لكن رأى ارتعاشـة شـفتيه.

كان الود بينهما شديدًا،

خدمـا معًـا لعامـين، ظروفهـما متطابقـة تقريبًـا، هـو أب لطفـل في مثـل عمـر زهـوة وينتظـر الآن طفلـة أخـرى في خـلال شـهرين، حلـو المعـشر وكثـير الحديـث، لطيـف معظـم الأحيـان ولا يمكـن إثـارة غضبـه، وطويـل الصمـت حـين يكـون في وسـط مجموعـة كبـيرة.

كان أبوه تاجر إبل معروف بأحد قرى الجنوب الدافئ،

وكان عـادل كثـيرًا مـا يخـرج بهـا إلى الخـلاء بحثًـا عـن العشـب حـين يغيـب أحـد عـمال أبيـه، في أوديـة الجبـل وعنـد الواحـات الصغـيرة المنسـية، علـم نفسـه عـن نباتـات تلـك البقـاع، بحـث وقـرأ عنهـا حتـى عـرف خصـال كل واحـدة فيهـا، واغتنـى حـين بـدأ يبيـع بعضهـا بأثـمان باهظـة للـزوار الغربيـين وميسـوري الحال مـن أهـل المـدن بينـما كان يحصـل عليهـا بسـخاء مـن الأرض ومن

دون مقابل؛ ولذلك لم يطلع أحدًا على أماكن إنباتها.

قديمًا سأله حسن عن سر هدوئه حتى حين يشتد القتال فأخبره أنه إنما تعلمه من الجِمال،

«تعيش أطول من غيرها لأنها هادئة، لا يموت جمل بقدم مكسورة مثل الحصان ولا يرتطمون بالسيارات والشاحنات مثل الكلاب والقطط. لا يهلع الجمل طوال حياته حتى تأتي اللحظة التي تلامس فيها سكين الذابح رقبته فعليًّا»، وتابع ضاحكًا: «ستراني وأنا أولول مثل النسوة فقط حين يلصق أحد المقاتلين سلاحه في صدغي».

«يا عادل... يجب أن تسمعني»،

«اعف نفسك واعفني من ألم لا داعي له»، قال له عادل وهو يدس الأرز في فمه، بصقه حسن بانفعال رغم جوعه وقال: «أتصدق أني أعطيتها سلاحي؟»،

«رأيت الرجال وهي تقتل به، كدت أن أقتل أنا نفسي»، قال له وهو ينظر إليه بعينين غاضبتين، هز حسن رأسه وقال بسرعة: «كل الأسلحة تتشابه، لماذا لا يكون سلاح الآمر نفسه؟».

«لماذا أنت هنا الآن إذن؟ أنت من تسلل إلى هذه الدار».

وتوقف حسن لحظات، رفع عينيه إلى عيني زميله، فكر طويلًا، أخبره؟ ألن يكون الأفضل أن أترك كل شيء سرًّا بيني وبين الله؟ مترددًا همس: «أخبرني أولًا أين هي؟»، نظر إليه زميله بعين لائمة ولم ينطق فأكمل حسن بوجل: «ثم أخبرك قصتي»، تغيرت النظرة في عيني عادل وهي تتحول

إلى اشمئزاز خالص، ترك الصحن وتوقف مبتعدًا عن حسن وهو يقول بانفعال: «أنت من هربها»، ومن دون انتظار التفت مغادرًا متجاهلًا نداءات صديقه المترجية، فقط ولمرة أخيرة التفت إليه قبل أن يغادر الدار وقال: «امرأتك هذه هربت بعد أن قتلت رجلين من وحدتنا وأصابت ثلاثة آخرين، ولم يعثر عليها أحد».

وفي الساعات التالية وحده ظل حسن يحاول أن يخلخل قيده، سقطت الملآة عن جسده وهو يحاول لكن أمله في الهرب والوصول إلى المرأة كان أعظم من أن يهتم لحظة بشيء آخر.

بالخارج كان عادل يسمع صوت طقطقة أرجل الطاولة وزفرات ألم حسن، سمعه مرات وهو يهمس باسم الله مستنجدًا.

وعندما حل ليل ذلك اليوم، عرف عادل من زميل حراسته مثلما عرف معظم المعسكر أن الآمر قاتله بالصباح...

ودخل إليه مرة أخيرة،

لمح أول ما رأى منه عينيه الدامعتين،

«أرجوك» همس له حسن فور أن رآه، «اسمع قصتي... سأحكيها لك كما كانت».

وجلس صديقه، بعد أن غطاه ثانية،

بصمت سمع، وبهدوء كعادته التمعت عيناه بالدمع،

كان يعرف زهوة، مثلما أعرفها...

مثلما تعرفها أنت...

من أجلها دمع، لم يقل كلمة طوال حديث حسن،
فقط قال بعد أن انتهى،
«من أجل ذلك، لا أدخل الدور وأصحابها بها مع الآمر»،
نفس ما قاله ذلك اليوم..

وتوقف وهو يكمل: «لا أستطيع أن أخرجك من هنا، الحراسة شديدة بالخارج، سنموت معًا»،

واقترب من صديقه رابتًا على كتفه، «سأذهب للعميد الآن وأخبره بكل شيء، لن يترك أحد رجاله يقتل على يد الآمر، وسيحقق في قصة المرأة من بدايتها»، قالها وحين رأى نظرة الرجاء الصامتة في عيني صاحبه قال له: «سأفعلها يا حسن، تعلم أني لا أكذبك»، وأشار إلى غطائه وقال: «لو سألك الآمر عمن وضع الغطاء على جسدك بعد أن آتي بالعميد يمكنك أن تخبره أن أمه هي من فعلت»، أفلتت ضحكة من حسن وسأل بجذل: «ولو سألني قبل أن تعود؟»،

«إن أتاك قبل أن أرجع أغمض عينيك وقل له أن الملائكة من فعلت»،

قالها وهو يغلق باب الدار منصرفًا، وقيد حسن قد خُفف عنه وهدية صديقه الجديدة ترقد تحت ظهره بأمان، نظر للسقف بامتنان وللحظة شعر وكأن الملاك المرسوم قد غمز بعينيه وابتسم.

تـرك الآمـر قلمـه بهـدوء عـلى المكتـب الخشـبي وهـو ينظـر للـورق أمامـه،

كان تقريـره الـذي سيرسـله للقيـادة بالعاصمـة قـد أصبـح جاهـزًا ولم يبـق سـوى تنفيـذ الجـزء الأخـير منـه، مختـصرًا إلى أقـصى حـد حتـى لا تظهـر بـه أخطـاء، أسـماء الشـهود فيـه معدومـة ولا يحـوي مـن أسـماء الجنـود سـوى القتيلـين وحسـن الـذي سـاعد الأسـيرة بالهـرب بإعطائهـا سـلاحه الخـاص وحقيبـة التحـركات وحـذاءً عسـكريًّا سرقـه مـن أحـد زملائـه، كتـب بالتقريـر أن التحقيقـات اسـتمرت مـع الأسـيرة عـلى مـدار أسـبوع كامـل؛ لأنهـم اكتشـفوا أنهـا عنـصر خطـر وكانـوا عـلى وشـك إرسـالها للقيـادة لطبيعـة قضيتهـا الأمنيـة الخاصـة، لم يذكـر شـيئًا عـن أولادهـا، لـن يراجـع هـذا التقريـر مـن بعـده أحـد، ومـع ذلك توتـر؛ لأنهـا المـرة الأولى التـي يشـترك فيهـا جنـدي نظامـي في الأمـر، تعرقـت أصابعـه عـلى الـورق فتركـه وهـو يتنهـد، كان هنـاك سـطران أخـيران بالأسـفل همـا نتـاج كل مـا حـدث، هـروب الأسـيرة وجـاري البحـث عنهـا ومقتـل ثلاثـة جنـود نظاميـة منهـم الجنـدي الـذي دبـر أمـر الهـروب في تبـادل لإطـلاق النـار.

ابتسـم، والحقيقـة أن ابتسـامته كانـت حزينـة وخائفـة، هكـذا كانـت منـذ أن جعلـت، تخفـي ألمًا قديـمًا ومخـاوف طفوليـة تتصـارع داخلـه كوحـوش قهريـة لا يمكـن الفـكاك منهـا، لم يكـن رحيـما وكذلـك كان شيء حولـه منـذ طفولتـه، منـذ مـات أبـوه عـلى بـاب مشـفى لم يجـد الواسـطة أو المـال ليدخلهـا، فرقـد برأسـه عـلى يـده

ونظـر للحائـط وظـل يدفـع الهـواء المختلـط باللعـاب الأبيـض محـاولًا التنفـس حتـى اختنـق وصمـت للأبـد، يعـرف أن العـالم كلـه وحـشي مثلـه وأكثـر، وأنـه في لحظـة وهنـه الخاصـة، حـين يهـوي للأسـفل ويـصرخ طالبًـا العـون سـيأتيه صـوت قائـل في لامبـالاة: «سـأخذلك وأدعـك تغـرق في وحلـك أكثـر»، ثلاشـت ابتسـامته وهـو يتوقـف ماسـحًا العـرق عـن وجهـه بيـده، قـرب أصابعـه مـن أنفـه واشـتم الرائحـة الدهنيـة، يعـرف أنـه لا يحبـه أحـد ولم يعـد يهتـم، لكنـه أحيانًـا يخـاف مـن هـذه الخلقـة وهـذه الرائحـة الكريهـة التـي تفـوح منـه والبغـض الـذي يـراه في أعـين مـن ينظـر إليـه إلا شرادم شـاذة هـي لعنـة مـن الله العـالم منظـم الجينـات في صفوفهـا الطويلـة التـي خرجـت ملوثـة إيـاه بهـذا الشـكل، يتسـاءل إن كان يبغضـه كـما يبغضونـه وإن كان لديـه فرصـة للنجـاة بمعجـزة؟ لامـس بطنـه البـارزة أسـفل معطفـه الزيتـي، هـي الـشيء الوحيـد غـير النحيـل فيه، مشـى إلى سـلاحه، حملـه ولأول مـرة شـعر أنـه غـير متأكـد مـن قـراره، وضعتـه هـذه الأسـيرة للمـرة الأولى تحـت مقصلـة النظـام وكان دائـمًا مـن يقـف خلفهـا، والحـق أنـه أرادهـا أن تكـون خليلتـه للأبـد، ورغـم كل شراسـتها ودفاعهـا المسـتميت لم يرتـح إلى امـرأة كـما ارتـاح لهـا، وكان قـد بـدأ يشـعر بأعـراض غريبـة عنـه إلى جوارهـا، الأرق ليـلًا، وتـلاشي الرغبـة في الطعـام ومراقبتهـا عـن بعـد، ربـما في عـالم آخـر، لـو كان لـه وجـه آخـر، وعمـل آخـر، في بلـد آخـر لا يزخـر بالحـروب لكانـت هـذه المـرأة زوجتـه هـو وكان أطفالهـا أولاده الذيـن يرونـه مقدسًـا في أعينهـم.

فرصتــه في النجـاة كبـيرة، تبــدو أكيــدة، تحـدث كل تلـك

الأشياء عشرات المرات كل يوم ويغمض النظام عنها عينيه مكتفيًا بالولاء كأم لا تعاقب أولادها، كما أنه لا وقت للبحث أو التدقيق، لن يرسلوا من يستجوب الجنود وكل ما سيبقى من هذه الأحداث هي ذكرى قبيحة يحكيها الجنود لزوجاتهم عند عودتهم، ستلعنه النساء لكذبه وسيحتقره كل من يسمع به، لكنهم فعلوا ذلك قديمًا ويفعلونه الآن، لا يهم؛ لأن الشيء الوحيد المهم هو حياته التي لن تنتهي على رصيف إسمنتي ناظرًا إلى حائط تفوح منه رائحة البول مثل أبيه، سيقاتل لكي تكون حياته غنية لا عوز فيها ولا مذلة؛ لذلك يجمع الأغراض من البيوت، ويستعمل سيارات الجيش العسكرية في إرسالها إلى التجار؛ لذلك يطلق الفساد في وحدته مغطيًا به فساده الخاص، سيدعس بقدمه كل إحساس قد يعيق حركته من أجل خلاصه، وحسن مجرد عقبة أخرى سيخطو فوقها اليوم كما خطى على غيرها من قبل، مقاتلًا من أجل بقاء أيامه. منذ طفولته كان كقط صغير ألقته أمه وسط مزرعة حيوانات مخيفة، فنام على ظهره هاسًّا وخامشًا وعاضًّا من أجل حياته، أدخل سلاحه في جرابه، وضع تقريره في حافظة الورق وتحرك إلى حيث حسن.

حسن الذي لم يكن يعلم من قبل شعور هؤلاء الذين وقف على زنازنهم حارسًا أو وجَّه سلاحه إلى قمم رؤوسهم وداس زناده، «لا بد أنهم كانوا مثلي»، هكذا فكر، لا بد أن عقلهم ذهب إلى الأشياء الحبيبة الأكثر دفئًا رغم غلاف الخوف الذي يحيط بهم مهددًا إياهم بالموت، لا بد أنهم ارتبكوا في تلك اللحظة متحركين بين الثقة والشك، الاعتماد

وفقـدان الأمـل، أيحفـظ الله الأبنـاء أم تسـتمر المأسـاة؟ انفتـح بـاب غرفتـه الواسـعة ولم تكـن سـاعة قـد مـرت عـلى مغـادرة عـادل، لـن يفعلهـا في هـذا الوقـت، لـن يصـل.

أخـذ نفسًـا عميقًـا وهـو يسـمع وقـع الأقـدام الرتيـب، اضطربـت نبضـات قلبـه ودمعـت عينـاه وهـو يحكـم إغلاقهـما، ليـس عـادل، عـض عـلى شـفتيه وهـو يسـمع السـلاح يسـحب مـن جـراب كالسـيوف العربيـة القديمـة، أيقـترب الآمـر أم يقتـل مبـاشرة؟ يعـرف أن هـذا الرجـل بـلا مشـاعر، رآه وهـو يقتـل مـرات عديـدة بطلقـة في مؤخـرة رؤوس رجـال ونسـاء تبتهـل شـفاهم بالدعـاء لله المنجـي. هـذا مـا سـيفعله الآن...

وانساب صوت كامنجا بعيد إلى أذنيه،

بنوتات موسيقية متصاعدة،

وكأنها نوتات تحفيز لا انتظار موتـه،

دفقـات منغمـة قصـيرة يتصاعـد صوتهـا وتمتـد مدتهـا مـع كل دقـة مـن قلبـه،

وفي دهشة سمع صوت موج،

انتبهت أذناه وهو يرهف السمع،

هذا صوت زهوة!

تتكلم بهدوء مع صغير آخر،

بين أمواج بحر،

هناك ما يبدو...

ما يبدو مثل حكاية تحكى...

ابتسم بدهشة وهو يحاول أن ينصت لما يقال، لكن الصوت كان بعيدًا،

واتقد قلبه بالأمل فهمس «اقتربوا ...»، لكنه سمع صوت تعشيق السلاح..

«من غطاك؟»،

تعرق انفعالًا، حانت لحظته، ضغط كفيه وجز أسنانه وبصوت منفعل قال: «أمك»، وبأنفاس متتابعة صاح: «جاءت إليَّ ورغم قبحها متعتها حتى جعلتها سعيدة! قالت لي إني أفضل من أبيك بكثير وغطتني ردًّا للجميل»،

تباطأت الخطوات، لكنه شعر أن لحظته قد اقتربت فصرخ مرة ثانية: «لا أمل لك! الليلة يقطع ذكرك الذي جلب لك هذه المصيبة! ستكون نهايتك فيها»،

«لا» قال الآمر بصوت مبحوح وهو يقترب حتى ظهر وجهه من فوقه،

«سينتهي الأمر معك يا حسن»، قالها وهو يرفع سلاحه ويكمل: «لا تظن أني سعيد بقتلك»، وابتسم ابتسامة باهتة وهو يكمل: «الحقيقة أني لا أشعر بسعادة أو حزن»، وانتفض حسن في مرقده دافعًا جسده كله إلى الجهة الأخرى، فارتفعت الطاولة من جانبها وانقلبت معه مرتطمة بالأرض بقوة جاعلة ساترًا بينه وبين الآمر يسهل اختراقه بالرصاص، قفز الآمر فوقها نحوه لكن صرخة دهشة أفلتت منه وهو يرى ذراعي حسن أسفله حرتان من القيد الذي خففه عادل قبل أن يذهب، شد حسن قدمي الآمر وسحبه، فسقط الأخير

على ظهره مرتطمًا بالطاولة التي انزاحت تحت ثقله بصوت احتكاك عنيف مازج أنينه وحسن يقفز فوقه مادًّا ذراعيه إلى سلاحه، باعد يده بسرعة بالسلاح ودفع نصف جسده الأسفل للأعلى ليطرح حسن عنه لكنه تلقى لكمة بقبضته بين فخذيه فصرخ متألمًا، وحسن يختطف السلاح منه، ودفعه جنون الرعب أن يستجمع قوته متحاملًا فضرب بيديه صدر حسن دافعًا إياه من فوقه ليسقط الأخير عنه للأرضية الخشبية مستندًا إليها بيده التي تحمل السلاح، ودفع الآمر بكل ثقله على تلك الذراع، انثنت تحته وشعر حسن بدفقة ألم كهربائي عظيمة تشتعل في أعصابه من أطراف أصابعه حتى أعلى كتفه وانفلت المسدس من يده المشلولة بالألم، وأمسك الآمر برأسه بكلتا يديه ضاربًا به الأرض فصرخ حسن بصوت لم يستطع رغم ارتفاعه أن يمنع كليهما من سماع صوت الصياح المختلط بالسباب القادم من خارج الدار.

وركع الآمر أمامه موجهًا سلاحه إلى حسن، تتساقط قطرات عرقه الدهنية على وجهه لاطمة إياه برائحتها كأخبث ما خلق الله، فتح عينيه بدهشة وهو يرى السلاح يفتح فمه باتجاه رأسه وتباطأت الثوان، فغرق في تفاصيل طويلة مرت مثل حياة كاملة استطاع في نهايتها أن يسمع فيها صوت ابنته مرة أخرى في حوارها الخافت، هو الموت إذن ما دامت الروح شُفت.

دمعت عيناه مع دفقة ضوء غير متوقعة، وضيق الآمر عينيه وصوت الأقدام الراكضة يتكاثر حولهم وصوت العميد يصيح آمرًا: «توقفَا الآن»، لكن نظرة الجنون في عيني

الآمر كانت طاغية، لم يخفض سلاحه ولم يبد أنه سمع شيئًا من الأصل، بالواقع كان غارقًا في ذعره القديم وقد تجسد أمامه كاملًا في صورة حسن، الموت الرخيص والنهاية البالية، مشفى أبيه كان هو الآن، كان حسن، هو الوحش الذي يجب أن يقتله وبعدها تنفك العقدة البغيضة، ببطء وصعوبة ستنفك مثل جلطة في الدماغ لكنها ستزول، أما لو تركه فهو يسير بدرب أبيه، أطلق الرصاص وحسن يدفع وجهه للخلف بذعر، طنت أذنيه بصفير غير آدمي والتهب جانب وجهه بنار حارقة وانفلتت يداه الممسكة بقميص الآمر و استطاع أن يسمع صوت الرصاصة وهي تخترق الخشب من تحته، قريبة حتى أنه استطاع أن يشم رائحة احتراقه، ودفع الآمر يد حسن للخلف، دفع ذراعه نحوه وقبض على رقبته مثبتًا رأسه للخلف بقوة ووجه سلاحه فورًا بين عيني حسن، وسافرت رصاصة أخرى، مستقرة بيسر داخل جمجمة الآمر الذي نفذت كل تعبيراته دفعة واحدة وجسده الطويل يسقط كدمية ملقاة إلى جوار حسن الذي أغمض عينيه شاعرًا أنه يبكي دمًا منهما،

استقرت الرصاصة بالضبط في منتصف الرأس من الخلف، ومع شعره الأسود المجعد لم تستطع الدماء أن تمنحه دراما القتل المستحقة، بدت الرأس فقط وكأنها قد مسدت بمادة زيتية لزجة مناسبة تمامًا لشخصه كي ينسدل شعره.

والتفت حسن برأسه منهكًا، نظر العميد عن قرب للمرة الأولى، مثل «جان» سينما قديمة جدًّا، حليق الوجه، له شعر ناعم قصره لم يزحف له صلع، ووجنتان تبدوان دافئتان

لاحمرارهما بالدم يتوسطهما أنف دقيق، بعينين هادئتان اقترب حتى وقف عند رأس الآمر متفحصًا.

لم يجفل، لم ترتعش يداه، وفي يده كانت الأوراق الأخيرة التي كتبها الآمر، التفت إلى حسن الذي نظر إليه بامتنان عاجز وهو يسعل، بدت نظرته وكأنها تخترق صدر الرجل وهو يقول له: «ما تزال حيًّا رغم أنك مت على هذا الورق البارحة»، دفع حسن يده في الأرض يحاول الوقوف، لمح قطرات دمه تتساقط على الأرضية الخشبية من خده، مد إليه العميد يده وسحبه، ألقى الورق فوق الجثة بلا احترام ونظر إلى مساعد النحيل وهو يقول: «ترسل الأوراق فوق الجثة في صندوق إلى العاصمة اليوم»، ونظر إلى حسن مرة أخيرة قبل أن يربت على كتفه ويقول وهو يدير ظهره له منصرفا: «مر على طبيب الوحدة ليخيط لك ندبتك الجديدة هذه ثم تعال إلى خيمتي»،

«بالطرف الشرقي؟»

طقطق العميد بلسانه وهو يهز رأسه نافيًا: «أصبحت هذه الفرقة تحت إمرتي الآن، وستنصب خيمتي هنا قبل أن ينهي الطبيب عمله».

قالها وهو يغادر الباب وفي الضوء الخافت لمحه حسن وهو يهز سلاحه على وركه وكأنه يعزف لحنًا وهميًّا.

لم يكـن لـدى الطبيـب سـوى الخيـط والإبـرة الجراحيـة، أمـا المخـدر الموضعـي والمطهـرات فكانـت قـد نفـدت بانتظـار وصـول غيرهـا مـن العاصمـة، وجـز حسـن عـلى أسنانه كاتمًـا صراخًـا يعتمـل في عقلـه وقـد انفلتـت دموعـه والطبيـب يتحـرك بالخيـط.

«هذا جرح طويل، سيترك ندبة ظاهرة».

كان الجـرح يمـر عرضيًّـا بجانـب وجهـه، مـن وجنتـه اليمنـي حتـى أسـفل أذنـه، وحـين رأى حسـن صورتـه بالمـرآة قبـل أن يغطـي الطبيـب الجـرح دار رأسـه وشـعر أنـه عـلى وشـك التقيـوء.

«تسـتطع أن تغطـي معظمـه لـو أطلقـت لحيتـك بضـع أيـام فـلا تبتئـس»، قـال طبيبـه وهـو يحكـم إلصـاق اللزقـة المعقمـة.

وكـما أخـبره العميـد، عندمـا غـادر حسـن خيمـة الطبيـب، كانـت خيمتـه قـد انتصبـت بـارزة فـوق ربـوة عاليـة كعادتـه في اختيـار أماكـن تخيمـه، يرفـرف فوقهـا علـم وحيـد. توجـب عـلى حسـن أن يمـشي خطـوات نحـو الربـوة يصعـد بعدهـا للأعـلى، داعسًـا أحجـارًا صغـيرة زلقـة، ولأنـه لم ينـم فقـد أخـذ ينهـج وهـو يتعـرق بغـزارة رغـم الريـح البـاردة التـي تلفـه، عينـاه تقيسـان مـا تبقـى للوصـول وإلى جـواره يصعـد جنـد مـن فرقـة العميـد حاملـين متاعـه، حقيبـة الظهـر الطويلـة مـن الجلـد الطبيعـي، صناديقـه الصغـيرة التـي جمـع فيهـا تذاكـره الخاصـة مـن سـنوات القتـال، والمكتـب الأرضي الصغـير، مجـرد لـوح خشـبي مـن الأرو يرتفـع عـن الأرض بمقـدار ذراع أو أقـل، مثـل مكاتـب التشـوبوداي اليابانيـة القديمـة.

تقطعت أنفاسه فاقدًا كل قدرة وهو يعتلي القمة، زفر بخارًا أبيض ذكَّره بأيام طفولته، انحنى على نفسه يستجمع أنفاسه، رفع رأسه ونظر إلى الامتداد أمامه، الهضبة الأخرى تلتمع بكل بيوتها البيضاء البعيدة.

مترامية الأطراف كانت، كأنها بلدة حقيقية، تتداخل فيها الأشجار العملاقة مع الدور المتجاورة، استطاع أن يميز الحارات القريبة، رأى الجسر المحطم ومجرى السيل الفارغ، ورغم الدمار البائن في صفوف الدور والحارات المسدودة بالركام، امتزجت صورتها بشجن رومانسي صادق، مسح دمعة سالت من عينيه بفعل التراب الذي حملته الريح كما اعتقد، والتفت مبتعدًا وهو يتوجه للخيمة الكبيرة.

كانت الخيمة الكبيرة من قماش أخضر خشن، مخططة بالعرض بالبني الداكن، مثل خيام الأعراب وليست من خيام الجيش، توقف أمامها ينظر ثقوبًا متناثرة فيها، مد إصبعه يلامس أحدها، حيث كان القماش متهتكًا، «ثقوب طلقات»، همس لنفسه وهو يسترجع حكايات الجنود عن العميد الذي لا يموت، دفع القماش ودخل، كانت الخيمة تفوح برائحة عطرية هادئة، فكر في أن مصدرها أصائص أشجار مسك الليل الموزعة عند أركانها، أنصت إلى الموسيقى الغربية تسري بإيقاع سريع متداخل وبكلمات لم يمتلك القدرة أن يفهمها بإنجليزيته البسيطة، عند طرف الخيمة البعيد رأى العميد، ظهره له، يرتدي بنطاله العسكري الضيق وفوقه قميص ثقيل بلون الرمل الفاتح وقد شمر أكمامه، إلى جواره صندوق مفتوح يفرغه من محتوياته واحدة بعد أخرى، بيده

بـرواز كبـير لم يسـتطع بالبدايـة أن يميـز صورتـه، رفعـه العميـد واقـترب مـن الحائـط القـماشي ودفعـه فاشـتبك دبوسـه بقـماش الخيمـة إلى جـوار بـرواز بسـيط آخـر، وفكـر حسـن أن الثقـوب ربـما تعـود إلى تلـك الصـور وليـس لطلقـات طائشـة، تقـدم خطـوة أخـرى للداخـل، داسـت قدمـه عـلى الحـصى الصغـير محدثـة صوتًـا منبهًـا فالتفـت إليـه العميـد ومـن دون كلـمات أشـار إليـه أن يقـترب.

اقـترب حسـن حتـى وقـف إلى جـواره، حانـت منـه التفاتـة فضوليـة للصـور عـلى الحائـط، ابتلـع مـاء حلقـه بصعوبـة وهـو ينظـر إلى إحداهمـا بدهشـة، كانـت صـورة غـير متوقعـة وخاطفـة لرجـل كان العـالم قـد نسـيه أو معظمـه عـلى الأقـل، لكنـه هنـا الآن، أسـامة بـن لادن نفسـه، دق قلبـه بانفعـال وهـو ينظـر إليهـا؛ لأنهـا خلافًـا لـكل مـا رآه مـن قبـل كانـت مختلفـة، لم تكـن صـورة الرجـل المعمـم بالأبيـض وهـو ينظـر للكامـيرا متوعـدًا كـما اعتـادوا أن يظهـروه، كانـت صـورة لـه بثـوب نظيـف بسـيط، جالسًـا في وضـع الاحتبـاء الـذي لا يجيـده إلا العـرب، وعبـاءة بنيـة خفيفـة تغطـي الجـزء السـفلي منـه، وقـد بانـت نحافـة جسـده مـن تحتهـا، سـاعة يـد سـوداء رخيصـة، فكـر لحظـة أنهـا ربـما تكـون الكاسـيو القديمـة التـي اكتسـحت بلـدان الخليـج بالتسـعينيات، ثـم الـشيء المدهـش في كل ذلـك، الطفـل الصغـير الجميـل الجالـس عـلى فخـذه بلبـاس أفغـاني أنيـق يسـمع بإنصـات حزيـن همـس أبيـه لـه، أبـوه الـذي كان أسـامة نفسـه وقـد اقـترب بوجهـه منـه وكأنـه ينصحـه مترفقًـا أو يواسـيه، ورغـم طـول أنفـه ورغـم لحيتـه الكبـيرة بـدا الرجـل وسـيمًا ومخلصًـا إلى أقـصى حـد

وهـو يفعـل ذلـك وبـدا الطفـل كأنـه أحـد أبنـاء الصحابـة بالمدينـة المنـورة، جميـلًا بأقـصى مـا يمكـن لعـربي أن يكونـه وكأنـه رسـم زيـن العابديـن طفـلًا بلوحـات الشـيعة، ثبتـت عينَـا حسـن طويلًا عنـد الأكـف، كان كـف أسـامة الكبـير النحيـل يجـاور كـف ابنـه الصغـير جـدًّا، بديَـا غـير قابلـين للتصنيـف الشريـر بـأي شـكل، ومسـح حسـن جبينـه بتوتـر لم يفهـم سـببه وهـو يشـعر بعـرق بـارد يتكاثـف أعـلى صـدره ويسـير هابطًـا حتـى أسـفل بطنـه، رفـع عينيـه إلى العميـد فـرآه ينظـر للصـورة بصمـت متأمـلًا قبـل أن يلتفـت إلى حسـن ويقـول بهـدوء: «ربـما تكـون هـذه الصـورة أهـم أسـباب كـوني غـير قابـل للهزيمـة يـا حسـن»، ثـم قـال وهـو ينظـر إلى القـماش الطبـي الأبيـض الـذي يغطـي جانـب وجهـه: «هـل أحسـن الطبيـب عملـه معـك؟»، هـز حسـن رأسـه مؤمِّنًـا، وسـأل: «كيـف تجلـب هـذه الصـورة النـصر؟!»، صمـت العميـد حتـى ظـن أنـه لـن يجيبـه، لكنـه التفـت إلى الصـورة وقـال: «ينظـر الجنـود إلى أعدائهـم كأنهـم وحـوش، مجموعـة مـن القتلـة الذيـن يعيشـون بـلا هـدف ولا إرادة ولا رغبـة في الحيـاة، يضعـون أقبـح صورهـم في عقولهـم حـين يتحدثـون عنهـم، يتخيلونهـم نازعـين عنهـم إنسـانيتهم، أمـا أنـا فأنظـر إليهـم بهـذه الصـورة، رجـالًا صادقـين بأحيـان كثـيرة؛ لأن الكاذبـين يفـرون قبـل أن أصـل، لهـم عائـلات وقلـوب وأحـلام، لهـم إيـمان يتبعونـه»، والتفـت إلى حسـن وقـال: «أتبـع إيمانهـم هـذا حـين أقاتلهـم، هـذا هـو سـحري، أدخـل إلى قلوبهـم فأجـد نفسي وكأنني هـم، أقـرأ خططهـم، كيـف سـيتحركون ومـاذا سـيفعلون، وفي سـاحة المعركـة، حـين أكـون وجهًـا لوجـه معهـم، أنـا الثعبـان الـذي

يقرأ حركة الإنسي، وثبته أو فراره، إطلاقه الرصاص أو قرب استسلامه، يحركهم الإيمان مثل الدمى وهم لا يشعرون، أفهم وقفة الرجل الذي يظن أن الله سيصنع معجزة من أجله الآن وهو يقاتل فيندفع بشجاعة بينما أدفع طلقتي برأسه خاتمًا رؤياه»، قالها وهو يبتعد خطوة إلى الصورة التي تليها، رجل نحيف، حليق الرأس، له أنف دقيق وقد غطت جسده الوشوم، من الصدر حتى البطن، ومن الكتف حتى الكف التي بدت وكأن نارًا ثعبانية تندفع منها نحو الجسد كله، في أذنه قرط أسود، وبعينيه نظرة تصميم مريضة ويداه تمسكان بقوة بمكبر الصوت، انتظر أن يتكلم العميد عنها لكنه تجاوزها وهو يمشي إلى ركن قد رصت عنده غلاية ماء موصولة ببطارية كبيرة، وأوعية احتوت شايًا وقهوة وسكرًا، «قهوة؟»، سأله العميد دون أن يلتفت، فأسرع حسن نحوه وهو يقول كالمعتذر: «عنك يا سيدي!»، «لا»، قال العميد وهو يبعد يد حسن بحزم ثم يضع مقدار البن في الغلاية ويشعل النار، ثم يعتدل متوقفًا وهو ينظر لحسن في عينيه مباشرة ويقول دون أن يفلتهما وكأنه يستكشف صدقه من كذبه: «القصة التي ذكرها لي عادل حقيقية؟».

اضطرب حسن، شعر بخفقان قلبه، وصدمته كآبة قادمة من صور ابنته التي قفزت بعقله من جديد، اعوجت شفتاه بمرارة، ولم تغادر عينيه عينا العميد وهو يهز رأسه بنعم،

«تؤمن بأن الله صنع ذلك؟».

«من غيره؟».

«وأنك قادر على إصلاحه يا حسن؟»، هز حسن رأسه

مـرة أخـرى، وفاجـأه انعـدام ثقـة لم يفهـم مـن أيـن أتـى، ربـما يكـون تأثـير نظـرة العميـد تلـك، دفـن تـردده مـن جديـد.

تأملـه العميـد وللحظـة رأى حسـن مـا يشـبه لمعـة بعينيـه، ربـت عـلى ذراعـه متفهـمًا وقـال: «أحـب الحالمـين، ولكنـي أحـزن عليهـم حـين تصدمهـم سـاعة الحقيقـة»، صفـرت الغلايـة، ابتعـد عنـه وهـو يتناولهـا صابًّـا مـا فيهـا بكوبـين مـن نحـاس، ناولـه كوبـه السـاخن وهـو يقـول لـه: «سـتكون قريبًـا منـي، سـأضمك لخاصـة رجـالي، ابحـث عـن امرأتـك هـذه وأنـت تقاتـل، إن وجدتهـا فهـي لـك، اصنـع بهـا مـا تشـاء، هـي ميتـة بالنسـبة لي»، وتنهـد وهـو يزيـح قـماش خيمتـه مؤذنًـا لحسـن بالانـصراف قائـلًا مـرة أخـيرة «لـو كانـت ستشـفى لم يكـن ليكتـب عليهـا هـذا الشـقاء مـن البدايـة، فـلا تعتمـد عليـه في ذلـك»، قالهـا وهـو يشـير للسـماء، قبـل أن ترجـع أصابعـه تتلمـس الصـور بجيبـه العلـوي وكأنـه يتأكـد مـن وجودهـا.

«أنا العميد،

هو اسمي بهذه الحرب، لا يهمكم أن تعرفوا أكثر منه،

لأنـه حـين تنتهـي المعركـة الأخـيرة لـن تـروني مـرة أخـرى ولـن أبحـث عنكـم، فقـط سـتذكرون أني الرجـل الـذي حاربتـم بصفـه، فلـم تخسروا معركـة واحـدة.

أنـا الرجـل غـير القابـل للهزيمـة، لا ترسـلني القيـادة إلا إلى جبهـة أعجزتهـا، أو أرض لا تفهـم مـا يجـب أن يصنـع بهـا، بـلا خطـة ولا تغطيـة جويـة ولا إمـدادات، أسـافر إليهـا برجـالي، أحـارب، أتحالـف، أهـادن وأصالـح عـلى الـدم، لكنـي دائـمًا أنتـصر، ينتصـب العلـم عـلى أعـلى نقطـة وأجلـب الأرض والغنائـم، أنـا صانـع الهـدن وخالـق المجـازر، ولـكلٍ مـا يريـد، لا أبـدأ بالـدم لكنـي حـين أبـدأ بسـفكه لا أتوقـف حتـى تنـز آخـر قطراتـه، والله هنـا، خلـف ظهـري، أشـعر بيديـه تدفعانـي وأنـا حامـل سـلاحي للقتـل، أسـمع ملائكتـه تخبرني أني منصـور بأمـره.

كلكـم تمنـى أن يقاتـل إلى جـواري، يعـرف الجميـع أن الرجـال لا يموتـون معـي إلا لمامًـا، لا يذرفـون دمـوع الألم عنـد الخسـارة، لا يظلمـون ولا يُضحـى بهـم.

السـهو والخـوف، الضعـف والعجـز، أمـراض فيكـم سـأعالجها، أمـا الخيانـة فعلاجهـا عنـدي الذبـح فقـط، وقـد أراد الله أن تـروا ذلـك في آمـر فرقتكـم، فاتعظـوا بـه لأني لـن أجبـن أن أقتلكـم جميعًـا فـردًا فـردًا إن وجـدت بكـم مـا وجـدت بـه.

أمـا إن أعتنـوني بأنفسـكم، وسـلاحكم، وسـاعات نومكـم

ويقظتكـم، فاعلمـوا أنكـم باقـون، وأنكـم الوارثـون، سـتعودون إلى أهليكـم بحياتكـم وبـما غنمتمـوه وقسـمته بينكـم بالعـدل، سـتكبرون وسـطهم أغنيـاء كرجـال الحـرب الإنجليـز العائدين مع معـارك الهنـد القديمـة، تسـترجعون لحظـات القتـال إلى جـواري بحنـين أكثـر مـن حنـين اسـترجاع لحظـات ولادة أبنائكـم.

واعلمـوا أن رسـلي بالطريـق الآن إلى أهـل مريمـة، عارضـين عليهـم الصلـح مقابـل حياتهـم، فاحفظـوا ذمتهـم ولا تكرهوهـم عـلى القتـال بأذاكـم لهـم وأروهـم منكـم رحمـة ورفقـًا، فـإن أرادوا السـلم، حفظـوا حياتهـم وأولادهـم وكانـت لنـا أموالهـم ومسـاكنهم، وأبقينـا عـلى سـلاحنا وحيـاة رجالنـا إلى مـا هـو أعظـم، أمـا ان أبـوا إلا القتـال»، قالهـا العميـد وهـو يهـز رأسـه بثقـة، «إن أبـوا إلا القتـال، فسـألتهم هـذه القطعـة مـن الأرض بهـم كـما فعلـت مـع مَـن قبلهـم، سـألتهمهم حتـى العظـام».

نعـم، ألتهمهـم، هكـذا يفعـل حـين يتوجـب القتـال، يتحـول مـن إنسـان تـامٍّ إلى حيـوان وحـشي، يبطـش ويقتـل ويحـرق ويسـفك الـدم دون اعتبـار لأي شيء.

وعـلى خـلاف رجـال كثيريـن في هـذه الحـرب لم يؤنبـه ضمـيره يومًـا عـلى قتـل أو ذبـح أو إشـعال نـار، لم يتـألم لطفـل قتـل خطأ أو امـرأة ذبحـت دون تأكيـد عـلى عداوتهـا، مظاهـر الدمـاء وصراخ الرضـع لم تـزره ليـلًا مقلقلـة نومتـه،كان عنـده كابوسـه الخـاص، أكـبر مـن كل ذلـك وأشـد إيلامًـا.

قبـل نومـه دار سريعًـا يطمئـن عـلى الجنـود السـاهرة للحراسـة والمقيمـة بالـدور والخيـام، صعـد التبـة قافـزًا فـوق الأحجـار، مـر بخيمـة رجالـه المقربـين الذيـن انضـم إليهـم حسـن في طريقـه

إلى خيمته هو، كانت الشبورة الباردة تتصاعد حولها وبدا كل شيء مغلفًا بقماش شفاف رقيق، دخلها، اتجه إلى حقيبة ظهره الجلدية، منقوش عليها حرف الألف الإنجليزي، كبيرًا ومزخرفًا بورود سماوية زرقاء لا تتواءم مع تآكل جلد الحقيبة عند أطرافها والغبار المختلط بالطين الذي يكسو أجزاءً منها، فتحها وأخرج منامة سوداء نظيفة، هم بارتدائها لكنه سمع خطوات يعرفها،

تجمدت يديه بما يمسكه، تجمد كل جسده لحظات طويلة وهو يسمعها تقترب ببطء، اعتدل وبإشفاق التفت إلى مصدرها، اضطربت عيناه مثل عيني قط خائف وهو ينظر إليها،

تمامًا كالمرة الأخيرة التي رآها فيها،

القميص الوردي الفضفاض، يخفي جسدها الذي صار ضئيلًا، وجهها الذي ما زال جميلًا رغم كل شيء، يغطيه شعر خفيف وقصير بهت لونه كأنه احترق فأصبح قشًّا وقد كان من قبل سحرًا أسود ندر أن يوجد نظيره بين النساء، بشرتها هجين بين الأصفر ولون التراب الكئيب، تملؤها بثور صنعها السم الذي واظبت عليه كعلاج جلسات طويلة، لكنها هي... آسيا، بروعتها التي لا يضاهيها فيها إلا أحلام نادرة، برقتها وصوتها الناعم الرحيم، بابتسامة المحبة العالمة بكل شيء، وترفقها بجزعه وتوتره ونوبات غضبه كأم لا تسأم وبكل حبها له وحبه لها،

حاول أن يقيم ظهره الذي انحنى، كأيامه الأخيرة معها حين تحول لمسنٍّ مريض بقلبه، أيام ضعفه وانحساره، أخذ

نفسًا عميقًا، اقتربت أكثر، أتاه عطرها الذي ظلت تستعمله حتى ليلتها الأخيرة، سكري خافت ممزوج برائحة تشبه رائحة النعناع البري، أغمض عينيه فشعر بارتجافة أصابعه، تسارعت أنفاسه وضعفت رجلاه عن حمله، على الأرض جلس، اقتربت، شعر بها إلى جواره، تركت جسدها الذي لم يعد يتجاوز وزنه الثلاثين كيلو جرامًا على الأرض قريبًا منه، مدت يدها الدقيقة حتى لمست يده، نز دمع عزيز من عينيه وهو يسمعها تهمس «أوحشتك؟»، خفض رأسه واعتصر قلبه ألم مثلج وهمس: «أنا ميت من دونك»، انساب فيه دفء يحتاجه وإن لم يصل إلى قلبه من لمسة يدها وتابع: «كل ما أردته في هذه الحياة هو أن أكون معك»، امتدت أصابعها إلى وجهه، لامست خده مديرة إياه إليها، اضطرب فؤاده وهو يرى شحوبها، المرض الذي انساب إلى كل جزء فيها، جوفها وخارجها وكبدها وأوردة قلبها، انساب إلى شعرها وأظافرها حتى أهداب عينيها الطويلة، انثنت شفتاه بألم، بكى وهو ينظر إليها، ثبتت عينيها عليه وعلى شفتيها ابتسامة متفهمة لا تغيب عنها، همس بصوت مرتجف، ببطء وكأنه يخاف أن يقولها، بضعف وعجز: «لماذا فعل الله ذلك؟»، كان قد فقد صلته به تمامًا منذ ماتت، لم يعد يأبه بوجوده، لكنه أراد أن يفهم، أراد أن يعرف، أما هي فاتسعت ابتسامتها برفق وهي تضع يدها الثانية على خده الآخر، قربته من وجهها، قبلته بين عينيه بشفاه باردة، ظلت قبلتها تلك فوق جلده لأيام يشعر بها تتجدد حتى وهو يطلق الرصاص من بندقيته الآلية، تكلمت بصوت ناعم وصادق: «يا حبيبي، أمازلت

تفكر فيه؟ ألم أطلب منك أن تنساه تمامًا ولا تفكر إلا بنفسك»، ارتعش واضطربت عيناه وهو ينظر إليها، هزت رأسها له مشجعة إياه واقتربت منه مقبلة عينيه، اليسرى ثم اليمنى، وهمست»لا تفكر فيه أبدًا، انس كل ما قيل عنه، فقط فكر في أنه يجب أن تنجو بحياتك في هذه الحرب»، وقربته منها أكثر حتى تلامس خداهما، «كي تحيا، يجب ألا تؤمن بشيء».، أفلتت منه أنة مختلطة بالبكاء والمخاط، مسحت بيدها عن أنفه كأم تنظف رضيعها وهي تكمل مبتسمة: «استمر فيما تفعله؛ لأني أكون سعيدة وأنا أراك تفعله، استعمل الله كما تفعل من أجل الرجال، واستعمل الأنبياء، واستعمل الطفل والمسن واستعمل أساطير من سبقونا؛ فكل الأشياء عبثية، وكل العبث متاح استعماله بالصدق أو الكذب»، ارتجف جسده بصقيع ساحق، ترك نفسه يسقط بين ذراعيها، تلمس رأسه وهو يقارب صدرها الذي نحل، مسدت شعره وهي تسمعه يقول: «أين أنت؟»، أغمضت عينيها وهي تجيبه: «في عذاب جديد، لا يمكنك أن تفهمه بعد، أكبر من عقولنا، بين بلايين الأشياء التي لا أفهمها، فقط أعلم أنهم أموات آخرون؛ لأنه بعد الموت، ينظر الأموات إلى بعض كأشياء، لا يرون ولا يشعرون ولا يوجدون إلا كأشياء، يعذبون بعضهم بعضًا بالحسرة واليأس والتيه الأبدي، حتى الذكريات تغدو قبحًا خالصًا»،

«حتى أنا؟»،

«إلا أنت»،

وانحنت برقبتها، سمع الطقطقة المتتابعة، اقتربت من أذنه

وهمست: «لا تمت، أكمل قتالك ولتنتصر، انتصر في كل شيء، عش طويلًا ما استطعت، وفي كل معركة ارتد قناع الأسد؛ ليخشاك عدوك أضعاف ما تخشاه أنت، اقتل بلا رحمة ولا إمهال، اقتل وعش»،

«أريد أن أكون معك»،

«حين تموت تنقطع صلتنا للأبد، ستكون أنت وأنا أشياء لا يمكنها أن تشعر ببعض»،

«هذا هو الموت وهذه هي الحياة؟»،

«نعم، هذا هو الموت وهذه هي الحياة»،

لا إله،

همس بها لنفسه وهي تغادره،

مشى إلى صندوقه الذي يحتفظ فيه بالنوادر التي جمعها بمعاركه، فتحه وهو يتفحص محتوياته، بعثرت فيه خواتم فضية وألعاب صغيرة على أشكال الأبطال الخارقة المختلفة وسبح صدفية وأقمشة مطرزة، مد يده إلى قناع مصنوع من اللادن، وجده في دار دخلها بعد أن أنهى أولى معاركه ولم يستطع أن يتركه حينها، دفعه إلى وجهه، أدخل رأسه فيه فغطاه شعر طويل ناعم له لون ذهبي داكن، وتملكه وجه أسد بأنف دقيق كأنفه، وجلد سميك خشن، بطلعة مشؤومة وكأنه صورة الموت نفسه، لولا بقايا دمع مكتوم لاحت في عيني العميد حتى من خلف القناع.

مثل حيوان نادر الجمال ينتبه على صوت خطر يقترب، رفعت يارا رأسها عن الهرم الصغير الذي تبنيه مع أخيها وتحفزت جلستها، كان الصوت قادمًا من غرفة خالها مجدي، صوت صراخ زوجته المرتفع تتخلله همهمات متقطعة من خالها نفسه وهو يحاول أن يهدئها،

تسمعهم كثيرًا يتشاجرون، كل يوم تقريبًا، دائمًا ما يتلقى خالها الصراخ المتواصل الذي يمتد فترات طويلة ولا يجيب، لكنها تعرف منظره حين يغادر الغرفة بعد أن تصمت أخيرًا، اللحظة الأولى التي يترك فيها الغرفة ولا يلحظها غيرها، النظرة الضائعة المكتئبة وانحناءة جسده وبطء خطواته، ثم يلمحه الآخرون ويلمحهم فيبتسم كاشفًا عن أسنانه ويقول دعابة ما، أو يحرك جسده راقصًا بحماقة لينسى الجميع كل شيء ويبدأ اللعب، تختلس حينها النظرات إليه وهو يجاريهم في لعبهم، وتهمس لنفسها أنها تحبه، تحبه كثيرًا؛ لأنه يذكرها بأمها، ولا يحنوا عليها أحد مثله، منذ غاب أبواها.

وتخشى زوجته،

تحاول تجنبها، تقول الزوجة لخالها أن هذه الصغيرة تتجاهلها وتبتعد عنها، لكن الحقيقة هي أن يارا لم تقدر على تجاهلها ولو لحظة مع أنها كانت تتمنى ذلك في أحيان كثيرة، فقط هي تهابها، تخاف أن تراها، تعلم أن هناك سببًا لا يمكن التنبؤ به للصراخ دائمًا، سجادة بللها الماء، طبق لم يوضع بمكانه، دفعة غير مقصودة للرضيعة أو اختلاف بسيط مع أخيها، عندها يشتعل الغضب بالمرأة، ينطق لسانها كسلاح

سريع لدرجة غير معقولة ولمدة طويلة بكلمات ونعوت تكرهها كلها، تكره أن تكون غبية، أو لئيمة، أو عديمة الفائدة أو وسخة أو حتى خنزيرة، لم تسمع تلك الكلمات إلا هنا ولم تستشعر كم هي مؤلمة إلا معها.

بأوقات كثيرة، كان الشجار يحدث بينما يستعدون للنوم، كان أخوها يرتعش حين يسمع الصراخ في الظلمة، فكانت تحتضنه أو تغطي أذنيه، تقرب فمها من أذنه الدقيقة وتغني له الأغاني التي ما تزال تذكرها من أيام التلفاز، تستبدل بعض الكلمات التي نسيتها بكلمات جديدة، تضع اسمه في الأبيات؛ لأنها تعلم أن ذلك يسعده كما كان يسعدها حين كان أبوها يفعله لها في الأيام السعيدة، أبوها الذي كان يترجم الأغاني الأجنبية إلى كلمات عربية يضع بها أسماء أولاده،

تاج ورقي، وقلب مصنوع من زجاج

ثوب ممزق، ومملكة من رماد

تمشي وحدها، لا تنظر للخلف

هي قصة ملكة تهدمت قلعتها بالبحر

ستنجو، لكنها لن تعود كما كانت

نعم، تذكر الكلمات واللحن الرشيق وصوت أبيها الرنان، تنظر إلى محمد، مشغول مع بنات خاله بالبناء، يصنع هرمه الخاص بينما ترسم صفية الزهور بالتراب والرضيعة تضع يدها فيه لاهية،

حين أحضر خاله التراب للمرة الأولى للعب من أحد البيوت التي تهدمت صرخت فيه زوجته بأنه سيجلب

المرض للبنات، اجتمع الأطفال بركن الدار ناظرين إليهما بخوف لكنهم كانوا يتحرقون تشوقًا من أجل أن يمسوا ذلك التراب، فقط عندما نظرت زوجة خالهم إليهم محذرة من خطره، وصرخت أنه يمتلئ بالحشرات التي ستصيبهم بالحمى، والدم القديم والثعابين الصغيرة، تحجروا بأماكنهم وهم ينظرون بخوف مترهب، حتى أن صفية نظرت لأبيها مؤنبة، وعندما غابت المرأة لم يقتربوا منه، فقط يارا مشت نحو خالها، لمست يده برفق فسمعت ما يشبه تنهيدة قصيرة، مدت يدها وأخذت كيس التراب، فتحته ببطء وتحسسته، لم يكونوا يغادرون الدار على الإطلاق ليلعبوا مع أطفال الجيران، رأتهم كثيرًا يلهون فيه وتمنت لو جربت ذلك يومًا ما؛ لذلك ابتسمت حين وجدته باردًا وشعرت بما يشبه دغدغة مرحة على أصابع يدها، دست يدها كلها فيه فضحك خالها واقترب الباقون ناظرين بفضول، انحنى على الأرض جوارها وقال: «عندي فكرة لنقتل كل الحشرات والثعابين والثعالب التي تختبئ فيه»، نظرت إليه بإمعان وسألت: «ماذا ستفعل؟»، «ما رأيك أن نضعه في الفرن الساخن كما يفعل الأطباء بمعدات الجراحة لتكون نظيفة؟»، صرخ محمد بافتنان: «أنت عبقري!»، وقد فعل خالها ذلك، وجلب سجادة قديمة فرشها على الأرض كلما لعبوا به، ينظفها بعدها ويخرجها حين ينتهون، وبصبر يحممهم من أثر التراب بعد انتهاء اللعب، كما قالت له زوجته محاولة إثنائه عن فكرته.

كان يفعل كل هذه الأشياء وما يشبهها بصبر،

قلبهـا الآن يضطـرب وهـي تسـمع اسـمها يتكـرر مـرات أثنـاء الـصراخ، واسـم أخيهـا كذلـك.

قامـت مـن مكانهـا وهـي تستشـعر رعشـة في يدهـا التـي تحمل الدميـة المهترئـة التـي أخرجتهـا بنفسـها مـن تحـت أنقـاض بيتهـا والرجـال تسـحبها للخـارج، اقتربـت للمـرة الأولى منـذ جـاءت إلى هــذه الــدار مــن غرفــة الخــال تســترق السـمع، عنـد البـاب الخشـبي الأبيـض المزخـرف التـي تشـققت حوافـه العلويـة مـع الجـدار الــذي ظهـر فيـه شرخ عـرضي دقيـق.

وبالداخل غابت البراءة وتمثل التشاحن القذر.

اسـمع معـي المـرأة، يغـلي صدرهـا بالغضـب، وينطـق لسـانها بـأي خِـراء يلقيـه عقلهـا المتقيـح إليـه، تتنقـل كسـفينة أسـطورية تبحـر في بحـر مـن القـذارة والكآبـة وتتنقـل بسرعـة سـحرية مـن مـكان إلى آخـر، تتكلـم عـن ضيـق الحيـاة وشـظف العيـش، عـن المـال الشـحيح، عـن الجـوع والحاجـة والفقـر المدقـع، عـن الملابـس الجديـدة التـي لم تعـد جديـدة والقهـر حـين تعجـز عـن شراء أي شيء لطفلـة تريـد كل الأشـياء، تـصرخ في وجـه الرجـل؛ لأنـه أهمـل الفرصـة حين ركـب أصدقـاؤه البحـر ودعـوه أن يفعل مثلهـم فجبـن، والآن يعيش هـؤلاء في نعيـم شـمال أوروبـا ويظـل هـو في مريمـة، تلعنـه لأنـه جبـان، ضعيـف، عاجـز وقبيـح، تلعنـه لأنـه يسـمع ولا يجيـب كأنهـا لا تتكلـم، لأنـه سـبب شـقائها ولأنه مـن أخـرج اللعنـات مـن فمهـا، يسـمع ويصـبر، يعلـم رسـمة شـجاراتها التـي لا تتغـير، أولًا هنـاك السـبب الحقيقـي للشـجار الــذي يملؤهـا بالغـل، هـذا السـبب هـو المركـز الأسـاسي مثـل نقطـة بمنتصـف دائـرة، ثـم هنـاك الحلقـات المتداخلـة التـي تظـل

تـدور الصرخـات بهـا، ألـف مشـكلة وذكـرى قديمـة وحديثـة، تظـل تتقافـز بينهـما عائـدة مـرة أخـرى إلى تلـك النقطـة بعـد أن تدمـر كل قـدرة عـلى النقـاش عنـده وتتركـه متهدمًـا وموافقًـا عـلى كل شيء تريـده، تريـد أن تعـرف مركـز شـجار اليـوم؟ اسـمعها معـي وهـي تـصرخ فيـه أن يـارا ومحمـد يجـب أن يغـادروا هـذه الـدار، وأن أختـه لم تكـن لتفعـل مثلـما يفعـل مـع بناتـه لـو كانـت هـي مـن نجـت وهـو مـن مـات، كانـت لتلقـي بهـم في أي ملجـأ أو عنـد أحـد العائـلات المقتـدرة، ثـم ينخفـض صوتهـا في صـورة وضيعـة لامـرأة شرسـة تحـاول أن تبـدو رقيقـة وصادقـة، وكأنهـا تحـاول أن توقـظ ضمـيره بوحيهـا، لكنـه يعلـم أنهـا كتلـة مـن الادعـاء، تهمـس لـه فيخـرج صوتهـا مـن الأنـف قبيحًـا: «ألا تحزن مـن أجـل بناتـك؟ ألا يهـزك جوعهـم حـين يضطـرون إلى اقتسـام الطعـام مـع غيرهـم؟ والفـراش الوحيـد الضيـق الـذي يتراصـون عليـه عرضيًّـا وأقدامهـم مرسـلة في الهـواء عنـد حافتـه الخشـبية؟ تؤلمهـم ظهورهـم مـن الحشـية القديمـة والمـكان الضيـق، بناتـك يـا مجـدي، بناتـك، بناتـك أيهـا الكتلـة عديمـة الإحسـاس، سيتشـوهون بسـببك أنـت، سـتكون أنـت السـبب بعجزهـم؛ لأنـك عاجـز بالأصـل، وسـيلعنونك طـوال حياتهـم القصـيرة».

وجههـا الأبيـض متـورد بالانفعـال، ثقبَـا أنفهـا منتفخـان بالغضـب، وجسـدها الضئيـل متحفـز في وقفـة حيـوان مسـعور، وهـو لـن يـرد ولـن يجـادل؛ لأنهـا سـتجن أكثـر، وستسـتدعي الأطفـال وتـصرخ فيهـم وتشركهـم في تلـك القصـة كـما تفعـل حـين تعجـز أمامـه، سـيتركها حتـى تسـكت وحدهـا، ولـن يـترك أولاد أختـه، والله لـن يفعـل، سـيظلون هنـا ولـن يكلفـه هـذا

إلا مشاجرات ونوبات غضب أكثر وهي تضحية بسيطة من أجلهم؛ لأن هذه امرأة مريضة بقلبها، وروحها متعفنة، يعلم الله ذلك، ماذا يقدر مثله أن يفعل مع مثلها؟ لولا بناته اللاتي لا يريد لهن أن يجنوا إن تركهن لها، لكان قد ألقى بها في حضن أهلها صارخًا فيهم: «خذوها! ليلعن الله بضاعتكم الفاسدة تلك»، «عليك أن تعطي الطفلين إلى عائلة الشامي التي تعتني بالأيتام، سيفصلونهم وذلك أفضل لهم، ألم يقل الرسول بأن نفصل الذكر عن الأنثى عند سن العاشرة؟ الفتاة قد تعدت السابعة الآن! ألا تخاف على صفية منه؟!»، نظر إليها بغِلٍّ، قال لنفسه بأنه لو كان الرسول حيًّا ورآها لقال فيها أحاديث يتحاكى بها الناس إلى يومنا هذا محذرين، شعر بعصارته الهاضمة ترتفع من أعلى معدته حتى حلقه حارقة، أغلق عينيه وتنهد، كيف تظن هذه القحبة أنه قد يطيعها في ذلك؟

لكن يارا تسمع كلامها، تبحث عن صوت خالها رافضًا فلا تجده، ترتعش في حيرة وهي تسمع الحديث عن فصلها عن محمد، تنظر إليه وتتحفز في وقفتها كأرنب حذر، قدماها اللتان تظهر مؤخرتهما من فردتي حذائها الأسود البالي تتعرقان على الأرضية الزلقة، يرفع إليها أخوها عينيه ويتبسم وهو يكمل بناءه، تمسح دمعة من عينيها، ستفتقد خالها كثيرًا، ستفتقد الليالي الحارة التي يبات فيها إلى جوارها على أرضية الغرفة الباردة الملونة بالنقوش، في الظلام ينظران إلى تلك النقوش وهي تتحرك بحياتها الخاصة ويحكي لها خالها قصصًا تراها في تلك السينما الأرضية، لكنها لن تترك

أخاها مهما حدث، لن ينفصلا حتى الموت، قالت لها أمها ذلك من قبل مرات عديدة، وقال خالها ذلك أيضًا، ألا يذكر؟!! نعم، قالتها أمها آخر مرة بينما تدوي الانفجارات بالخارج وأصوات النار التي تأكل البيوت تجعلها ترتعش، تذكُر ما قالت لها حينها لما صرخت خائفة، هذه النيران بالخارج هي نفسها نار المدفئة والفرن الحار الذي تخبز لهم فيه أرغفة الخبز اللذيذة، هي نفسها لكنها معظمة للإخافة، ولا شيء قادر على أن يخيف إنسانًا ترك قلبه بيد الله، وقلوب جميع الأطفال لا تغادر يداه؛ لذلك لا خوف..

لا خوف،

ولذلك لا تتردد وهي تمسك بيد أخيها وتشده هامسة: «هيا بنا يا محمد»، يعترض ساحبًا نفسه إلى الأسفل وهو ينظر لها معاتبًا: «أريد أن أكمل بنائي»، تجيبه بسرعة: «يجب أن نتحرك من هنا الآن، سأريك شيئًا لم تره من قبل»، نظر إليها في غير فَهم لكنه أطاعها كعادته، ومثله توقفت صفية وهي تكاد تتبعها لولا يد يارا التي ارتفعت أمامها موقفة وهي تقول لها برفق: «لا، لا يا صفية، قالت خالتي إن عليك البقاء»، تحركت سريعًا وهي تمسح دمعًا حارًّا، حارًّا جدًّا كدمعها حين ماتت أمها، متشبثة بيد أخيها، تنظر للأرض وكأنها تستشعر عارًا غير مفهوم وخطواتها تتسارع بينما تقف صفية تنظر إليهما بدهشة وهما يغادران باب الدار وللحظة تشعر ببرد داخلها لا تفهمه وتنظر للأسفل فترى الهرم الذي بناه محمد وغطى أركانه بقماش قديم مقطع وكأنها خيمة، ويتعالى سباب أمها من الداخل فتتمنى للحظة لو أنها قد خرجت معهما.

أترك مكاني،

أنزل للأسفل،

أهبط،

بأمره؟ لا أعلم، لكني مأمور،

من بين الأجرام، أرى الدوران العظيم، الكون كله يدور، أعلم ذلك،

إلى ذلك المكان البعيد أذهب، المكان المقبض المعزول،

أميزه من مسافات شاسعة،

أشعر بجسدي يتغير، أنظر إلى النور البعيد، أفتقده ! كيف وأنا منه؟!

تداخلني مشاعر لا أعلم عنها شيئًا، تلك التي سمعت بها عن أهل الأرض، أرتعش وأكاد أهمس: «لا»،

وأخترق السحاب،

للمرة الأولى أسمع صوت ارتطام الريح بجسدي،

أشعر بدقات قلب داخلي،

وأستشعر وحشة تدفعني للبكاء،

تتطاير قطرات دمعي للأعلى وأنا أهوي،

وتتشكل الأرض أمامي سريعًا،

الجبال المتجاورة والهضاب،

مساحات شاسعة من خضرة مر ببعضها ملايين السنين من دون أن تمس،

«مـاذا يـراد بي؟» أفكـر وأنـا أقـترب، في رهبـة أرى شـعرات بيـض تتطايـر مـن وجههـي، أرفـع يـدي وأمسـه فأجـد لحيـة كاملـة،

أتأنسن ...

«قـل كونـوا حجـارة أو حديـدًا»، هـذا كل مـا أعـرف أن الله قالـه لـه،

فـكان أسـوأ مـن الحجـارة وأغلـظ مـن الحديـد مـن فـرط مـا صنـع،

تقـترب منـي دار واحـدة، منعزلـة، مربعـة الشـكل وبسـيطة، لا يحدهـا سـقف ونقوشـها القديمـة تكسـرت مـع مـا تحطـم منهـا،

أُلقيـتُ داخلهـا، لا أدري مـا يُفعـل لي، لكنـي حـين أتوقـف، أرفـع يـداي أرى العـروق النافـرة فيهـا، مزرقـة تتجـاور مـع بقـع بنيـة داكنـة، صبغـات المسـنين! ألتمـس ثـوبي الطويـل، نحـت وجهـي، والشـعر الكثيـف عـلى رأسي تغطيـه طاقيـة مطـرزة.

أسـمع صـوت خرفشـة في جيـب ثـوبي، أمـد يـدي فيـه فألامـس مـا يشـبه قطـع قـماش قطنيـة، أخرجـت يـدي ممسـكًا بهـا، وهمسـت بدهشـة :

«حلوى!!»،

نعم،

حلوى لم ير الإنسان مثلها،

لن يحصل عليها طفل في هولندا أو السويد،

لا تصنعها أيدي البشر،

مغلفـة بقـماش خلـق للطفـل وحـده، يمتـص نـور الشـمس

ليبقيها دافئة، نقش عليه نحتًا شخصياتٌ خيالية لم تخطر بقلب بشر، تسبق حكاياتنا ورسومنا بألف سنة حتى بدا كل ما خلقه ديزني مجرد بصقة، أعين كائناتها تنظر مباشرة في عين من يمسك بها وبهمسة لا يسمعها إلا الملاك الوحيد القادم إلى مريمة تهمس: «سلام من الله عليكم»،

جرب واحدة...

تلامس لسانك فتجدها ناعمة خشنة، طرية وشديدة، تكاد تذوب في يدك وأنت ترفعها، ثم تدخل فمك فتظل فيه طويلًا،

حين يمسها ماء فمك تتجمد لحظات نافحة جزءًا من حلاوتها في اللسان وكأنها قهوة من كرز أو فاكهة صنعت من شوكولا، قبل أن تدفع ألف طعم لعقلك فلا تستطيع إلا الجلوس مستمتعًا وكأن العالم كله أنت.

وكأنك من أجل العالم كله.

الآن يخرج من مسكنه هذا، ممسكًا بقطع الحلوى في كل يد، لا يعرف سبيله، لكن الأطفال نظروا إليه، اقتربوا منه، تفحصوا لحيته غير المشذبة وعصاه الخشبية التي لا تتعدى كونها غصن شجرة كبير ما يزال يمكن أن ترى نقر الطير على سطحه والصوت الدقيق المستمر لنخر السوس فيه قبل أن تستقر أعينهم على الحلوى، وبثقة عارف يمدون أيديهم إليها فيناولهم الملاك حلواهم ويدخل يده في جيبه فيجد المزيد.

سيعجز أهل مريمة عن معرفة من أين أتت هذه الحلوى،

سيتوهون في تأويل اللغة التي نقشت على حواف أغلفتها، فيقول بعضهم هي لغة غربية وآخرون أنها رومانية قديمة وقال حمزة زعيم هذه القرية ضاحكًا أنها تشبه لغات تولكين السحرية بمملكة الخواتم، وتعلم الأطفال ألا يسألوا وكأنهم آمنوا بالقدر أكثر من آبائهم، فقط تناولوا الحلوى وألقوا الأغلفة بلا اكتراث إلا قلة جربت أن تحتفظ بها، إحداهم كانت ابنة مجدي التي أحضر لها أبوها الحلوى بنفسه بعد أن قابل الشيخ في أحد الحارات، يبحث مثل ممسوس عن أولاد أخته، أوقفه قسرًا، أدخل يده في جيبه وأعطاه قطعتين، نظر مجدي إليهما طويلًا ثم رفع رأسه إليه قائلًا: «عندي طفلان آخران، ضاعَا مني...»،

وأدخل الشيخ يده في جيبه فوجده للمرة الأولى فارغًا.

«آسف»، قال له بصوت متعب فشدد مجدي قبضته على الحلوى ونزل من عينيه دمع كثير.

حين عاد إلى داره رفضت زوجته أن يعطي ابنته ما لا يعرف له مصدر، أمسكت الحلوى أمام عيني صفية المترجية وألقت بها بالقمامة.

كان أبوها قد توقف عن سرد حكاياته منذ غاب أولاد عمتها، لا تراه إلا قليلًا ولا يظل بالدار إلا دقائق يغادر بعدها باحثًا من جديد.

تسللت بليل من سريرها، مشت محاذرة أن تسمع أمها صوت خطواتها، دخلت المطبخ، فتَّشت بيد مرتعشة عن الحلوى، لامست قشر الخيار الذابل وبقايا الطماطم الفاسدة وقذالة الشاي حتى لمستها، القطعة الأولى، ثم وجدت الثانية.

«ما أجملها» همست وحاولت أن تتغلب على خوفها الذي يعذبها في خيالها بصوت أمها.

فتحتها، تناولتها بقلق في البداية ورائحتها تصلها كوردة، «سأمرض» فكرت بقلق ثم وضعتها بفمها، أغمضت عينيها وهي تلوكها باستمتاع فسمعت دقات قلب رقيقة وصورة لشمس تغرب على سفح جبل تستظل تحته غزالة وصغارها، ابتسمت وهي تجري لغرفتها وبيدها الغلاف تخبئه كي لا تجده أمها.

في تلك الأثناء بينما كانت صفية تخبئه متدثرة بأغطيتها محاولة الاحتفاظ بطعم تلك القطعة لأطول وقت على لسانها، كان الشيخ ما يزال يسير، وكان اسمه قد خلق في مريمة للمرة الأولى، «شيخ الحلوى».

لكنه كان متوترًا بينما يسير في الظلمة؛ لأن جيبه قد خلى من أية حلوى، تمنى ألا يلقى أي أطفال حتى يصل داره.

سار وعصاه تحفر الأرض أمامه، صانعة دوائر صغيرة متتابعة لكل غرزة في الطين، عند حارة ضيقة تفوح منها رائحة عطنة كاد أن يتعثر، اتكأ على عصاه وهو يحاول أن يتمالك نفسه، فسمع صوت تشقق ينبعث منها للمرة الأولى، رفعها وهو ينظر إليها متفحصًا، مرر يده على خشبها الخشن، لم تكن هناك كسور، ابتلع ماء حلقه وهو يهم بوضعها على الأرض مجربًا لكنه نسي كل شيء وهو يسمع صوت البكاء الصامت والهمسات المواسية، كانت أصوات طفولية خالصة، طافحة بالحزن والعجز، عذبة رغم الألم، عذبة إلى درجة جعلت الشيخ يجلس على الحجارة محاولًا أن يسمع، أغمض

عينيـه، وصلتـه النهنهـة، يتبعهـا صـوت طفلـة مترفـق، وكأنهـا تـواسي بكلـمات لم يفهمهـا، نظـر الشـيخ للأسـفل وقـد فاجأتـه قطـة تمسـحت بقدميـه وإلى جوارهـا رضيعهـا غـير قـادر عـلى المشي بعـد، «ستشـفى يـا محمـد، لا تخـف» قالـت يـارا، فأجابهـا أخوهـا بصـوت متعـب: «رأيـت أمـي، قالـت إن الله يرانـا، وأن كل شيء سـيكون عـلى مـا يـرام»، ارتعـد جسـد الشـيخ، وقـف بدهشـة، كان يعلـم بأمـر حـروب البـشر لكنـه لم يتخيـل أنهـا وصلـت لهـذا الحـد، حـين يبـدأ الأطفـال بالحديـث عـن علاقـة الـرب بالحـروب، فانتظـر تدخلـه فيهـا وليـس بعـد حـين، تثاقـل جيبـه فجـأة، امتـلأ بالحلـوى، أدخـل يـده فيـه فتسـاقطت القطـع منـه مـن فـرط كثرتهـا وبصعوبـة أمسـك بقطعتـين وهـو يقـترب مـن مصـدر الصـوت، رسـم عليهـما شـخصيات كارتونيـة لم يصنعهـا الإنسـان بعـد عـلى أورق مزخرفـة بـورود متداخلـة، نظـر إليهـا الشـيخ لحظـات ثـم رفـع جسـده فـوق كتلـة إسـمنتية عاليـة عابـرًا إلى الطفلـين، رأى الطفلـة تحتضـن أخاهـا الـذي احمـر خـداه كأنهـما يحترقـان، كانـت هـذه الليلـة الثالثـة لهـما بالعـراء، مذعـوران، باسـتمرار ومـن دون لحظـة راحـة، كيـف يرتـاح مثلهـما بـين الحطـام الـذي يشـهدونه بـكل مـكان يمـرون بـه، أو تحـت صـوت المقاتـلات المخيـف الـذي يذكرهمـا بلحظاتهـما الأخـيرة مـع أمهـما، مـن دون طعـام أو شراب إلا البقايـا التـي وجداهـا قريبًـا مـن الـدور التـي مـرًّا بهـا، كانـا قـد أكلا القمامـة حرفيًّـا وقمامـة هـذه الهضبـة لا تصلـح حتـى للـكلاب، نامـا بالعـراء لأنهـما خافَـا دخـول الـدور المهجـورة، واسـتيقظوا مـرات عـلى أصـوات النبـاح وشـجارات القطـط ودبيـب الحـشرات

وحتى صوت امرأة خالهما التي تبعتهما في أحلامهما، في ليلتهم الأولى بدأ أخوها بالعطاس بشكل متكرر جعلهما يضحكان كثيرًا حتى ناما، وبالصباح بدأ بالسعال وتباطأت حركته، في تلك الليلة حين ناما ولامس خده رأس أخته أحست بدفء محبب أسعدها في البداية، لكنها بعد ذلك شعرت بانقباض مظلم من تلك الحرارة وتمنت لو أن جسد أخيها يبرد ليكون مثلها، وحين بدأ يرتعش وتصطك أسنانه تشاءمت أكثر.

في تلك الليلة لم تنم، ظلت إلى جواره، تواسيه بالحكايات والأغاني، وحين اشتدت الظلمة انطلق لسان أخيها يتفوه بكل الأشياء الغريبة التي لم تتوقع أن يقولها يومًا، بدا الأمر وكأن كل الصور والأفكار والذكريات قد تداخلت في عقله وخرجت على لسانه، تحدث عن القردة التي تجلس بغرفة الضيوف بينما أبوها يضيفهم بالقهوة، وعن جدته الميتة التي جاءت لتغسل ملابسهم وهي تحمل سلة تفاح فارغة، وعن الرجل الصيني الذي ينظر إليهم من ثقب بالجدار وكأنه يتوعدهم بالإيذاء.

رفعت الطفلة رأسها لتجد الشيخ واقفًا عنده، صرخت باكية وهي تقول: «ساعدنا»، اقترب منها الشيخ ببطء، مد يده إليها وفتح كفها الصغير، كان باردًا جدًّا، وكانت عيناها اللتان تنظران إليه جميلة ومعذبة، وضع فيها قطعتي الحلوى وهمس من دون أن يفهم لماذا وكيف قائلًا: «اتبعي القطة أيها الطفلة»، «أية قطة؟!!» سألته مستنجدة ودموعها تغرق خديها، زفر الشيخ ببطء، أغمض عينيه عن عينيها، لم يحتمل، «فقط اتبعيها»، زمت الطفلة شفتيها باكية وهي

تحتضـن أخاهـا، أبعـدت نظرهـا عنـه مستسـلمة، أحزنـه ذلـك لكنـه لم يكـن قـادرًا عـلى أن يفعـل أكثـر، توجـب عليـه أن يذهب، يـوزع الحلـوى ويغـادر لكنـه لازم مكانـه قليـلًا وهـو ينظـر إليهما، توقفـت يـارا، حاولـت أن تحـرك أخاهـا لكنـه كان غائبًـا كالنائـم، نظـرت إلى الشـيخ قائلـة: «سـاعدني أن أحملـه»، «لا أسـتطيع، عصـاتي مكسـورة مـن الداخـل»، انكفـت عـلى نفسـها، دفعـت ذراعيهـا تحـت إبطـي أخيهـا تحملـه، بصعوبـة رفعتـه عـن الأرض، وقعـت الحلـوى مـن يدهـا فهمـس الشـيخ متهيبًـا: «سـيتدخل الله!»، رفعـت أخاهـا عـن الأرض قليـلًا لكنهـا سـقطت بـه، دمعـت عينـا الشـيخ وهـو يراهـا تلقـي نفسـها إلى جـواره وهـي تبكـي بحرقـة، أحـس أنـه يحـترق مـن داخلـه كعصاتـه، انـصرف عنهـما وهـو يهـز رأسـه متألمًـا، تمنـى للمـرة الأولى لـو كان يسـتطيع أن يفعـل مـا هـو أكثـر، أن يحملـه كـما طلبـت، أن يقبلهـما عـلى الأقـل مواسـيًا، تناهـى إليـه صـوت بـكاء الطفلـة وكأنـه يتبعـه.

وغابت عنه آية الحجارة والحديد،

وملأته نار دافئة ودفقات حنان متتابعة،

وانهدم ظهره فعرف لم يمشِ الشيوخ بظهور منحنية،

وأصبح إنسانًا للمرة الأولى،

إنسان بحق.

وكمعجـزة لطيفـة ظهـرت القطة، بـين أسـنانها اسـتقر صغيرها تحملـه مـن مؤخـرة عنقـه بتـأن وحـرص، تتحـرك بـه محـاذرة السـقوط بـين الـركام والحجـارة الإسـمنتية، لمحتهـا يـارا فانفلتـت منهـا صرخـة وتوقفـت وجسـدها كلـه يرتعـد، هـزت أخاهـا فلـم

يستجب، لفت رأسها خلف القطة، وانفجر باطنها بقوة علوية وهي تنحني عليه من جديد، تحتضنه بشدة وهي تهمس ملاطفة بصوت حاولت دون أن تدري أن تحاكي به صوت أمها حين تشجعها: «ستغيب القطة عن نظرنا يا محمد»، واستقامت حاملة إياه وعيناها لا تبتعدان عن القطة، ومع كل الألم الذي سرى بجسدها والدمع الذي يعكر رؤيتها نبع أمل داخلها وهي تتبعها محاذرة السقوط.

تبعت يارا القطة مسحورة بمنظر الرضيع البرتقالي بين أسنانها وهي تمشي قافزة فوق الحجارة، متفادية برك الطين وبقايا الإسمنت وما طفح من الأرض من المصارف المهملة، بدت وكأنها نزهة رغم حملها الثقيل ولولا وزن محمد وحرارة جسده وهمهمته المتواصلة لكانت تضحك الآن معه في هذه الطرق، والحقيقة أن القطة نفسها كانت تبحث عن حماية تحتاج إليها وما يشبه البركة، أنجبت أربع قطط، تتذكر ألوانهم كضباب غير مفهوم أو حالة جوع مرت بها وانتهت لكنها ما تزال عالقة بذاكرتها، تتذكر الرمادي الداكن، الأبيض النظيف، الزيتوني المزخرف بالأسود، وهذا البرتقالي الناجي الوحيد، تباعًا ماتوا، رغم رعايتها لهم، واحدًا تلو الآخر، تذكر الدم الذي نز من أنوفهم وأفواههم حين ماتوا، الاستكانة الهادئة، الزهد في حلمتها وعدم الحركة، الجسد السائب وعدم الاستجابة لإخوتهم حين يستندون إليهم، لا مواء، ثم الدم الذي يتجمد على أفواههم، والتعفن.

حينها تحمل الميت، تمده على الأرض، تلعقه ربما يستفيق، تعيد شم جسده بحثًا عن حياة مختبئة، تعضه بترفق عصبي من أنحاء جسده علَّه يعود، وتبتعد بصمت.

واحدٌ بعد الآخر غادروا، هناك شيء ملوث بهذا المكان الذي اختارته لتلد فيه، وهي تريدهم بشدة أن يعيشوا ويكونوا إلى جوارها؛ لذلك يجب أن تغادر، وحين أتى صاحبها ماءت له، تركت الطعام وتمسحت بثوبه، ليته يأخذها معه إلى حيث يذهب أو يبقى جوارها للحماية، لكنه

يضع طعامها ويغادر سريعًا دون حتى أن يلاعبها، في الليلة الماضية خبأت صغيرها جيدًا، أرضعته حتى نام، ثم انطلقت خلف الرجل دون أن يراها، تبعته وهي تعلم طريقها بالروائح والصور وخمش الأظافر ثم عادت، وفي الصباح حين أصبح الجو أدفأ حملت صغيرها بين أسنانها وانطلقت بالطريق الذي باتت تعرفه الآن.

ومن خلفها يارا وأخاها بين ذراعيها،

تتعثر وتقف، تتنفس بصعوبة، يؤلمها ظهرها كأنه سينكسر، وفي الأوقات التي كانت القطة تترك فيها صغيرها على الأرض لثوانٍ كانت تضع أخاها أيضًا؛ لتستجمع قوة تمضي بها قبل أن تحمله من جديد،

معًا عبروا من موقف الحافلات المهجور الذي خلا من كل شيء إلا بقايا السيارات المحترقة وبضع حافلات بلا محركات، من عند المصلى الصغير وحصائره المتسخة انسابوا لليمين ليظهر أمامهم جسر «طريف» الذي قصف منتصفه فاتخذ شكلًا منحدرًا من الجانبين إلى المنتصف حيث نقطة القصف، عانت يارا وهي تعبر المنطقة المتهدمة حيث خرجت أعمدة الخرسانة والصخور في شكل ملحمي عبرته وقدماها تنزفان من الشقوق التي حفرتها الحواف الحادة تحتها، كادت تسقط بأخيها مرات، سمعته وهو يسأل بفضول مريض: «أخبريني كيف تكون رائحة المسك تلك؟»، الآن تدلف إلى الشارع التجاري حيث بدايات الحياة بالهضبة، ما يزال ميتًا؛ لأن الوقت باكر، جاءته كثيرًا في الأيام البعيدة، كان الشارع يعج بالمحلات على جانبيه وغرف تخزين البضائع أعلاها

ومـن فوقهـا البيـوت والفنـادق، تذكـر أنـه كان هنـاك أكثـر مـن محـل ألعـاب أطفـال حيـث يأخذهـا أبوهـا لـشراء ألعـاب العيـد وملابسـه، كانـت هـذه المحـال تعمـل رغـم الحـرب، وكأن أبوهـا يخبرهـا أنـه حـين كان صغـيرًا كانـت الألعـاب بهـا أكثـر بكثـير، فكانـت تتعجـب وهـي تنظـر حولهـا متسـائلة كيـف يمكـن أن يكـون هنـاك أكثـر ممـا يوجـد الآن، لم تعلـم أن طفـلًا أوروبيًّـا يقـف بتولـوز ينظـر ألعابًـا أكثـر بألـف ضعـف عـما تنظـر إليـه الآن ويقـول لأمـه بملـل إنـه لا يـرى فيهـا شـيئًا مثـيرًا، ربـما لأنهـا صنعـت مخلوطـة بحرمـان يـارا ومَـن مثلهـا، ربـما هـو الله يحـرك أحاسـيس الأطفـال بميـزان لا يـراه البـشر وينـزع مـن فـرح هـؤلاء إلى هـؤلاء، فيمـرح أبنـاء مريمـة في الـتراب وهـم يضحكـون بصـدق، بينـما الآخـرون يغطـون أعينهـم بنظـارات إلكترونيـة، يشـهدون معـارك سـحرية ولا يتحـرك فيهـم شيء.

تمـشي الآن فـترى بقايـا محـال تبيـع الحلـوى والخبـز وبضعـة مطاعـم مـا تـزال مغلقـة، لم يعـد هنـاك أثـر لألعابهـا أو محـال الحيـوان؛ حيـث كانـت تراقـب الأسـماك والقطـط والطيـور والجـراء الصغـيرة، ربـما تجـد نسناسًـا أيضًـا في أيـام حظهـا، البيـوت الملونـة التـي تعلـو المحـال غطَّـى أكثرهـا الـتراب الداكـن فغابـت ملامحهـا، اختفـت الزهـور في الشرفـات ومـبردات مـاء الصدقـة وصيحـات الأطفـال، تبـدو كل تلـك الأشـياء شـاحبة الآن، عـبرت مـن أمـام المطعـم الـذي اعتـاد أبوهـا أن يأخذهـا إليـه كل خميـس حتـى سـنوات أخيهـا الأولى، فلـم تميـزه رغـم أنـه كان مـن المحـال القليلـة التـي تعمـل حتـى الآن، ربـما لأن صـورة الطبـاخ الكرتونيـة العملاقـة المضيئـة كانـت قـد اختفـت

من أمامه، خرجت من الشارع خلف القطة، مشت حتى ملعب الكرة، صدمها منظره، كان قد تحول إلى خرابة تغلفها أسوار متهدمة تجمعت عندها القمامة، رأت المشردين والضائعين والمتسولين والعجزة مبعثرين في أنحائه، في أحد زواياه توجد عيادة طبية بنيت على عجل أيام كان بالقرية أطباء يعملون لتكون بديلًا للمشفى الصغير حال قصفه، تلك العيادة التي يحضر إليها عبد الله مرة كل عدة أيام، يزوره أناس بلا أمل في العلاج؛ لعدم وجود دواء فيه، لكن الجيد أن كل من أصابه مرض خبيث بالهضبة مات دون أن يعرفه، فانتهت حكايات العذاب والعلاج المخيفة التي كان يتهامس بها الأزواج بخوف وإشفاق بعد أن ينام أطفالهم، كان ما بقي من السور منقوشًا ومدهونًا ومرشوشًا بالسباب واللعن والوعيد والدعاء والانتظار والأمل وفقدانه، بل إن بعضه قد نقش بآيات قرآنية، استطاعت يارا أن تميز كلمات كبيرة حفرت حفرًا على الحائط بخط معوج «إن ظهرت الآن ستجدنا خلفك حتى نموت»، أسفلها تربط مجموعة من القطط تبحث في أكوام القمامة، للحظة ظنت يارا أن القطة ستقف عندهم إلا أنها عبرتهم سريعًا ولم تلتفت رغم أنهم قد توقفوا عن البحث متحفزين لحظات وهم ينظرون إليها، ومن خلفها أكملت الطفلة المسيرة عابرة جامع الصوفية، لم تصبه قذيفة لكنه انتصب مهجورًا من المصليين، تجاوره بساتين برتقال صغيرة، ما زالت أشجارها قائمة وإن غطاها غبار كثيف من سحب إسمنتية متراكمة، استطاعت أن تميز بضع ثمرات تنمو على الأغصان، بدت ضعيفة إلى أقصى حد

ككل تحديات الله في بدايات خلقه للأشياء، ومن مسافة بعيدة عابرة عشرات الدور، المحطم منها والباق وشوارع مريمة الأكثر دمارًا والممتلئة بالحفر لمحت المئذنة المكسورة كلقطة خارجة عن المألوف حتى لسنها الصغيرة وكأنها خلل خطير بالنظام، إليها توجهت القطة بنفس الخطوات السريعة الواثقة ومن خلفها يارا التي عبرت ساحة المسجد الخاوية قبل أن تتبدى أمامها الخيمة الصغيرة بأقمشتها المتداخلة وتشم رائحة التراب النظيف المبلل وتسمع غمغمة رضيع مطمئنة وأصوات زقزقة، خرج الأب حين سمع المواء، اندهش والقطة تضع رضيعها عن قدميه، ثم ترقد على جانبها لاهثة، وحبوًا من ورائِه خرج الرضيعٍ كبدر غير معقول وهو يمد يديه إليها، التفت الرجل بحثًا عن إناء يضع به ماءً من أجلها، فرأى يارا التي أرقدت أخاها على الأرض وسقطت إلى جواره وقد خارت الباقية من قواها، ركض نحوها ومن خلفه الرضيع، رفعت رأسها وهمست تغالب ألمها: «أخي مريض»، بينما خطرف أخوها ضاحكًا: «المسك من الدم!»، وحين حمله عبد الله كان إسماعيل يزحف من جديد محاولًا الوصول إلى رضيع القطة.

حين وصل القادمون كان عبد الله محتضنًا ابنه محاولًا أن يتناسى ألم رقبته الضاغط وهو يلاعبه.

مر عليه الصباح وما بعد الظهر وهو يجمع الأخشاب من أنحاء مريمة، من أجل مشروع بناء يتكون في عقله بالساحة التي نظفت من جميع حطام داره وما جاوره وأصبحت مساحة من أرض طينية نظيفة خالية تحدها المئذنة وما تبقى من جامع صخر، ويقع فيها نبع الماء الذي حاوطته حجارة بسيطة، ذلك المغموس ببركة المعجزة، الذي لم يتوقف عن ضخ الماء لحظة، القرية كلها تحصل على مائها منه الآن، كل ما عليك هو أن تنحني وتغمس إناءك فيخرج ممتلئًا. ببطء نسي أهل الهضبة السنوات الصعبة، حين كان الماء شحيحًا، لا يُتحصل عليه إلا بشق الأنفس من آبار قديمة وتجمعات أمطار، حين كان يخزن بالشهور خوفًا من شحه، ويُشرب ورائحة جثث الفئران وبرازها تفوح منه.

إلى جوار البئر كان صفٌّ من الصحون ينتظر، بأشكال ومحتويات متباينة، خضر طازجة وتين وعنب وتمر، بطاطا حلوة طُهيت حتى لانت وانساب عسلها متخللًا قشرتها الرقيقة، حساء خضار من دون لحم وحلوى بسبوسة صنعتها امرأة تمنت لو غطتها ببعض المكسرات التي انعدمت في قريتنا، كان الطعام هنا كثيرًا لدرجة تعجز معها تصديق أن هذه قرية منكوبة ومحاصرة وأن مجاعتها تروح وتغدو من دون أن ترحل، كان الرضيع بحكايته ونبع الماء الذي حمله قد خلق شيئًا غير مفهومٍ داخل الناس، حالة عصية على التفسير، موجة أخلاق

جديدة ربما كنا نسمع مثلها من أجدادنا حين يتحدثون عن أيام طفولتهم، إيثار وكرم وتضحيات صغيرة، والصدق أنه فيما سبق وعلى الرغم من أنات الدعاء وصرخات التكبير ونداءات المساجد والبكاء خلف الأئمة في صلوت الجنائز، كانت قلوب كثيرة بهذه الهضبة قد ألحدت دون أن تشعر، ولم يعد الله يُدعى فيها من أجل الأشياء العظيمة، وقد فُقد الأمل ، وانطفأت فيها كل تلك المشاعر التي تَذوى حين تفقد إيمانك بالخالق، والآن عاد إيمان قديم إلى أناس كثيرة تراه في مشاهد يومية بسيطة، أعني كيف يمكنك أن تقتطع جزءًا من طعامك الشحيح أصلًا والذي لا تعلم إن كنت ستحصل على غيره قريبًا من أجل محتاج؟ كيف تضيع وقتًا وجهدًا من أجل مساعدة إنسان لا يخصك وأنت لا تعلم كم من الوقت تبقّى لك حيًّا قبل أن ينعدم كل شيء؟ وكيف تزعم إن كنت مؤمنًا أنك غير مرحوم وأنه لا بقاء بدنيانا إلا للمتوحش؟ لا يفعل ذلك إلا قلة من الأطفال الصغار والمؤمنون، الإيمان هو الذي يدفع ربة منزل لا يحوي دارها طعامًا يكفي لأكثر من ثلاثة أيام أن تدخل مطبخها المقفر، تقترب من خزانة الطعام الحديدية الصلبة التي ورثتها من بقايا حطام منزل أم زوجها، تفتحها وتنظر للخزين البائس المتبقي ونملات كبيرة تهرب من جواره مختبئة، تمد يدها وتأخذ منه شيئًا يسيرًا وتعمل عليه طوال ساعة أو يزيد، تطبخه محاولة أن تجعل مذاقه مستحسنًا بما لديها، من أجل طفل لا تعرفه وأب لم تسمع عنه من قبل إلا حكاية واحدة.

هو مَن يجعل امرأة أخرى لا يكفي حليبها لرضيعها، تضع حجابها وهي متلهفة بينما تترك رضيعها مع أبيه

وتمشي إلى حيث الساحة، قلبها يدق متسارعًا بينما عيناها تبحث عن إسماعيل وتنفرج ابتسامتها منيرة وجهها حين يرفع رأسه إليها وهي تحمله محتضنة، كان إيمانًا فطريًّا صادقًا انساب ببطء شبه خجل داخل قلوب أناس كثيرة هنا، معجزة نفيسة من النوع الذي لا يستطيع أن يخلقه إلا الناس، النوع الذي يحبه الله ويحب أن يشاهده يحدث، ولدهشة أهل مريمة تيسرت الحياة أكثر مما كانت من قبل وقل الإظلام الذي كان يلف كل شيء، ظلت المقاتلات تحوم فوق القرية في السماء لكنها لم تلق القنابل، أكلَ الناس وشربوا وانحسرت موجة المجاعة الأخيرة رغم الحصار الذي اشتد والأخبار القادمة من أطراف الهضبة الشرقية عن التجمعات العسكرية والتعزيزات التي تصلها كل يوم، حتى طين الأرض نفسه اضطرب وكأنه يتحالف مع أهل القرية، فلم تثمر الأشجار فقط وإنما خرجت عن أطوار نموها المعتادة وانفلتت عقالها فدفعت كل ما يمكن أن تخرجه وبسرعة وكأنها تحارب لحياة الإنسان، أينعت الأرض بخضرة لم يرها من قبل إلا المعمرون بالأزمنة البعيدة، وأقسم مزارعون أنهم سمعوا ثمار الرمان وهي تئن على الأغصان واللون الأحمر القاني يضرب لونها الأصفر الباهت، مثلما تئن يارا الآن وهي تحتضن أخاها على الأرض وعبد الله يقترب منهما متخوفًا مما سيجده، بينما الرضيع ينحني على القطة الصغيرة على الأرض فتقترب منه أمها محاولة أن تضع جسدها بينها وبينه وهي تموء له باستكانة مستعطفة، وعند رأس محمد جلس عبد الله، احتضنه بين ذراعيه وهو ينظر إلى أخته سائلًا: «ما به؟!»، نظرت إليه يارا ودمع ساخن يتساقط على خديها، همست بصوت متقطع: «لا أعلم»، عدل عبد الله من جلسته وهو

يقرب الطفل منه، شعر بجسده المرتعش ساخنًا بين يديه، استطاع أن يميز صوت اصطكاك أسنانه، انحنى يلمس جبهة الطفل بشفتيه قبل أن يتراجع بجزع وهو ينظر إليه هامسًا: «يا لطيف!»، من دون انتظار توقف حاملًا إياه وجرى نحو البئر، على الأرض الطينية وضعه وهو يخطف صحنًا ملأه بالماء وبدأ يسكبه كله على رأس الطفل، ترك الصحن وانكب على الصغير يخلع عنه ملابسه، ارتعشت أصابعه وهي تفك أزرار قميصه، كانت أغلبية الأزرار مفقودة، القميص نفسه كان شديد الضيق على الجسد رغم ضآلته، أفلتت منه نظرة إلى أخته فتألم قلبه وهو يرى حالة ملابسها المزرية، والحق أنهما لم يشعرَا من قبل بذلك وسط لعبهما مع أولاد خالهما وضياعهما داخل حكاياته، هز رأسه وكأنه يسقط الأفكار وحين خلع بنطال الصغير كان لباسه الداخلي متسخًا بالخراء والبول تفوح منه رائحة قذرة، رفع عبد الله رأسه إلى يارا وأشار بيده إلى رضيعه: «اذهبي إلى إسماعيل وابقي معه»، خلع اللباس غير مبال بتوسخ يده، وحمل الماء يغرق كل جزء من الجسد الصغير، ثم وضع خده على الصدر المبلل يسمع صوت التنفس وتوتر وهو يسمع صوت الصفير ويميز الأنفاس السريعة غير القادرة، تعرقت جبهته وهو يتراجع ورفع رأسه باتجاه الطفلة، ماذا إن كانت العدوى قد انتقلت إليها؟ ما أشد ما تقف قريبة من ابنه، صاح من مكانه: «هيه! لا تتقاربوا، العبوا متباعدين»، لكن إسماعيل مشى بخطوات متعثرة ملقيًا بنفسه بين ذراعيها، فأغمض عبد الله عينيه وزفر بتوتر وهمس داعيًا وهو يحمل الماء من جديد ويسكبه على الطفل الذي كان قد بدأ يتفوه بكلامه غير المفهوم من جديد.

كانت رقعة جواربه أسفل القدم، لا يمكن تميزها من الأعلى، ولن يرى أحد الخيط الأحمر الذي استعمله مجدي لرتقها إلا عند السجود في الصلاة وكان قد توقف عن أدائها بالجامع تمامًا منذ وقت طويل، ثم أصبح يضيعها حتى في منزله، ومع ذلك فقد ظل يقلب قدمه كل بضع ثوان، ينظر إلى الخياطة غير المتقنة ثم يعدل قدمه على الأرض قبل أن يثنيها من جديد.

لم يكن قد جاوز الخمس ساعات نومًا في الثلاث أيام الماضية؛ لذلك كانت عيناه تحرقه وجسده يؤلمه في كل جزء منه ونبضات قلبه غير منتظمة. مسح على شعره محاولًا الاستفاقة، بينما تدخل خالته حاملة صينية على كوب من عصير البرتقال الذي ازدهر إنتاجه هذا الشتاء بمريمة وإلى جواره كوب ماء، توقف مسرعًا يحملها عنها، وضعها على المنضدة أمامه وتناول الماء ولم يكن قد شرب منذ الصباح، ورغم أنه معطر بماء الورد إلا أن شعورًا مقيتًا بالغثيان غلب عليه واندفعت عصارة حارقة من جوفه حتى لسانه، وضع كوبه ورفع عينيه إلى خالته فوجدها تنظر له من دون تعبير.

كانت هي محطته الأخيرة في بحث بدأه بالشوارع المحيطة بداره واتسع حتى وصل أطراف مريمة عند حدها الشرقي، حيث السجن القديم الذي هرب كل من كان فيه أيام الثورة إلى الدغل الفاصل بين مريمة والهضبة الصغرى، وأطرافها الغربية حيث المقابر الجديدة، ولما لم يجدهما بأي مكان قرر أن يمر بدور الجيران والأقارب على أمل أن يكون الطفلان

قـد لجـأ إلى أحدهـم.

يعلـم أن أختـه كانـت تـزور خالتهـم كثـيرًا، تأخـذ معهـا يـارا وأخاهـا، ربـما كانـا هنـا الآن..

كان قـد قـرر ألا يسـأل، تعابـير الوجـه تغنيـه عـن توجيـه الأسـئلة، وحـين طـرق عـلى البـاب فكـر لحظـة أن محمـدًا أو أختـه ربـما يكونـان مـن يفتـح البـاب لـه، ربـما سـمع صياحهـما اللاهـي وهـو يدخـل.

لكنه لا يسمع شيئًا هنا إلا صوت أنفاس خالته الثقيلة.

لـوم خفـي يسـتتر خلـف نظرتهـا، ابتلـع مـاء حلقـه ورمشـت عينـاه مـرات متتابعـة، لم يزرهـا منـذ شـهور رغـم قـرب المسـافة، تذكـر هـذا للمـرة الأولى الآن، شـعر بغصـة والتَـوتْ شـفتاه للأسـفل، كان قـد تيقـن الآن أن الأطفـال ليسَـا عندهـا، فركبـه هـم فـوق هـم إهمالـه لهـا.

كـره نفسـه، يعلـم أنـه رجـل مكتئـب، يعيـش تعاسـة يومـه مثـل تعاسـة عامـل كامـل مـن أعـوام أقرانـه، وحياتـه مثـل بركـة مـاء آسـن ثقيـل يخطـو فيـه بصعوبـة، غـير قـادر عـلى الاقـتراب مـن أحـد.

كأن امرأتـه سـجن كامـل يحبـس عقلـه ويطفـئ نـور قلبـه، لكـن مـا ذنـب هـذه الخالـة؟ ومـن أيـن تعـرف كل ذلـك؟

أطرق برأسه بمرارة، همس: «سامحيني».

أغمضت الخالة عينيها لحظة.

«تأخرت كثيرًا حتى قلتها».

«أعلم ذلك»،

«مـاذا حـل بـك؟» سـألته ونظرتهـا تتبـدل ببـطء كأيامهـا القديمـة، وتابعـت: «لم تكـن هكـذا يـا مجـدي، كنـت قريبًـا مـن الجميـع، أكثـر مـن يـروي الحكايـات المضحكـة وأول مـن يلـوذ بـه أبنـاء هـذه العائلـة مـن أجـل الـرأي والمشـورة، حـين غـادرني أبنائـي واحـدٌ بعـد آخـر وبقيـت أنـت كنـت مطمئنـة أني سـأجد مـن يرعـاني، ولـن أحتـاج إلى أحـد، لكنـك غبـت عنـي وكأنـك سـافرت معهـم».

مسـح عرقًـا غزيـرًا مـن عـلى جبهتـه وهـو يشـعر بتوتـر مفاجـئ وأحـس بالتهـاب جلـد وجهـه كأنـه يحترق، لم يسـتطع أن ينظـر إليهـا، فحـرك قدمـه مـن جديـد لينظـر إلى خياطـة جوربـه واندهـش وكأنـه يسـتيقظ مـن غيبوبـة! لم تكـن الخياطـة أسـوأ مـا فيـه!

لأن عينيـه حينـما مرتَـا بيـده وجـد أصابعـه قبيحـة، متشـققة بخيـوط سـوداء كأنـه معمـر قديـم، مـد يـده إلى أسـفل جذعـه فوجـده مترهـلًا، سـمينًا لكنـه يـوشي بمـرض لا نعمـة، ثـم بنطالـه، مبقـع بألـوان مختلفـة في أكثـر مـن بقعـة ومنحـول بمواضـع عـدة ميزهـا كلهـا، لا تغسـله زوجتـه ولا يغسـله هـو، ربـما كان جوربـه أنظـف مـا فيـه!

التفـت إلى مرآتهـا التـي تجاورهـم مغطيـة الجـزء الأكـبر مـن أحـد الحوائـط،

شـعره اسـتطال، باهتًـا وضعيفًـا، قـد أصابـه صلـع في أكثـر مـن موضـع، عينـاه متعبـة كئيبـة يعلوهـا كسـل غـير مفهـوم، وتجاعيـد جبهتـه غائـرة عريضـة، كأنـه عـاش مائـة سـنة، تسـاءل في حـيرة كيـف تحبـه بناتـه وهـو عـلى هـذه الصـورة؟!

كان اكتئابه قد بدأ معه مثل حيوان أليف يعيش مع رجل لا يحب الحيوانات، يحاول أن يتجنب صاحبه لكنه يقترب مستعطفًا بأوقات متقطعة، تقبله برضا، استمتع به أحيانًا، لكنه تضخم مع كل يوم حتى أصبح ماردًا عملاقًا أكل كل مجدي القديم، وحوَّله إلى المسخ المريض الذي يراه الآن في مرآة خالته.

زفر،

أغلق عينيه لثوان،

وارتجف حين وصله الصوت دافئًا،

«أريد أن أرى الأولاد يا مجدي»،

رفع رأسه إليها، «بناتك وأبناء أختك، لماذا لم تحضرهم معك؟ تعلم أن كل أحفادي غادروني».

ترقرق دمع في عينيه كتمه بصعوبة وهز رأسه وهو يحاول أن يبعد نظره عنها.

«سأحضرهم لك».

«كلهم يا مجدي».

«نعم» أجاب بصوت مبحوح،

للحظة بدا لعينيها وكأن ابن أختها ازداد عمرًا فوق عمره، كأن تجاعيده تحفر وجهه أعمق وتتكون حولها تجاعيد جديدة وكتفيه ينهدلان بعجز، جعل قلبها ينبض له رحمة وهي تقوم من كرسيها بصعوبة، تقترب منه، تمس خده وتسأله: «أنت بخير يا بني؟».

رفع إليها عينين تائهتين فبدا أمامها وكأنه أختها نفسها

وفتحت عينيها على اتساعهما تحاول أن تستوعب منظره كله، وكأنها ذكرى تعود من الموت واندهشت حين قام من مقعده واقترب مقبلًا رأسها بشفاة باردة، للحظة اطمأنت وغمرها دف غير محدود، وكأنها قبلة من المسيح لكنها إذ تابعته وهو يغادر باب دارها شعرت وكأنها تنظر إلى رجل ميت، حتى أنها كادت أن تناديه راجية إياه أن يبقى وهي ترى الباب ينغلق خلفه.

عندما خرج من دارها كان الظلام يلف المكان، لا صوت إلا صوت نباح كلاب متقطع ما لبث أن خالطه صوت أمطار متتا بع .

ترك نفسه ينهدم، ألصق ظهره بجدار الدار الصخري، وبكى..

طويلًا وبشدة، حتى أن جسده اهتز وهو يفعل وشعر بأن روحه ستقفز هاربة من بين أسنانه.

لكنه بطريقة أو أخرى، شعر أيضًا أنه حي.

وغاب في سنة من نوم.

فرأى نفسه..

بأرض مكة..

عند السور الزجاجي للمسعى، ينظر إليه من الخارج وخلف ظهره مكتبة مكة المكرمة، المكان الذي ولد به النبي محمد.

كان الزحام شديدًا، الحرارة لا تطاق، النيران مشتعلة بأكثر من موضع فوق الجبال المحيطة وأبواب بعيدة للحرم مفتوحة

اختلط فيها الخارجون هربًا، عراة من كل ملابسهم بأعلام غربية وأعلام قوس قزح، بينما آخرون ستروا أجسادهم بأسمال قديمة يحاولون الدخول، لا يحملون راية وإن كانوا يبحثون عن واحدة، يلعنون الخارجين ويبكون من أجلهم أيضًا، ويطأطئون الرؤوس وهم يخطون للداخل.

فكر أن يذهب معهم..

لكنه سمع اسمه،

من صوت يعرفه،

يحبه ويفتقده،

التفت إليها بجسد مرتعش،

وخلف الجدار الزجاجي رآها،

أخته..

في عباءة بيضاء غير مطرزة، وغطاء رأس رقيق مثل وجهها.

اقترب من الزجاج، ضربه، أراد أن يكسره ليعبر إليها، التفت له جندي سعودي بغضب لكنه تجاهله وضرب من جديد.

ولاحت نظرة حزينة في عين أخته جعلته يتوقف ويقترب أكثر حتى لامس وجهه الزجاج فهمس لها: «من أجل الأطفال حزنك؟».

انفجر ضجيج عظيم وتناهت إليه صرخات وهتافات وبدا وكأن الأرض نفسها تنشق.

«قد جاء وقتنا!!».

وبـدا المسـعى مـن خلـف أختـه مضطربًـا بمـن فيـه والـكل يركـض نحـو سـاحة الطـواف، وسـمع اسـم الله يُهتـف بـه مـن حناجـر الرجـال والنسـاء، ثـم اهتـزت الأرض مـن تحتـه، انفتحت عينـاه عـلى اتسـاعهما وهـو يـرى مـا يشـبه جبـلًا كامـلًا يخـرج مـن منتصـف السـاحة، يعلـو حتـى يرتقـي عـن أسـوار الحـرم حامـلًا فوقـه الكعبـة، عاريـة مـن كل كسـوة!

اسـتطال الجبـل مدمـرًا الرخـام المحيـط بـكل شيء وصنـوف البـذخ البـدوي المذهـب حتـى أن بـرج السـاعة نفسـه اهتـز أمـام عينـي مجـدي وهـو يلتفـت مـرة أخـيرة إلى أختـه التـي صاحـت وهـي تنظـر لـه مودعـة وزوجهـا يأخـذ ذراعهـا لينطلقـا إلى السـاحة الجبليـة: «حـزني مـن أجلـك أنـت»، قالتهـا وابتسـمت فـكان هـذا آخـر مـا رآه منهـا وهـي تـذوب في الزحـام، وازداد اضطـراب الأرض تحتـه، ارتـج كل جسـده وفتـح عينيـه مسـتيقظًا وهاتفـه يهتـز داخـل جيـب بنطالـه.

مسـح دمعًـا اسـتقر بعينيـه بسرعـة وأسرع يخـرج الهاتـف الـذي يبقيـه معـه حـين يغيـب طويـلًا عـن داره، ضـوؤه الأخـضر يلمـع في الظلمـة، سـقط مـن بـين يديـه المتعرقـة عـلى الأرض الطينيـة، فانحنـى ممسـكًا بـه وهـو يمسـح عنـه الـتراب وفتـح الرسـالة الجديـدة، توقـف عندهـا طويـلًا حتـى أن فمـه انفتـح في حـيرة خائفـة..

«ما الذي يحدث بالساحة؟».

كانت خطواته إلى الساحة مضطربة، لا يمكن أن ينتظر لأن رسالة بهذه الصيغة يجب أن تجاب فورًا. لم يكن مجدي كثير المغادرة لداره منذ توقف عن التدريس، انشغل تمامًا في مهمته الخيالية التي لا يعرفها سواه بإنقاذ أطفاله من حياة بائسة، حاول لي الحقائق مرة بعد مرة، قال لنفسه أنه ربما كان صياح أمهم هذا مفيدًا حتى يروا الجانب الصعب من العالم وعندما يكبرون سينعمون بهدوء لم يخبروه وهم صغار، قال أن بناته لهن قلوب غير معهودة أراد الله أن يصقلها بالألم، قلوب لم تتخل عنه رغم كل الصفات التي نعت بها، ورغم كل الكراهية التي تبثها أمهم عنه، مع ذلك يحتضنونه بشغف ولا يفعلون معها، تحكي له صفية عن أحلامها وكوابيسها حين تستيقظ ولا تفعل معها، ولذلك لم يكن يغادرهن كثيرًا رغم أن ذلك يرهقه. في الظلام بدت له مريمة جميلة رغم كل شيء، بدت أصيلة ونبيلة مثل التاريخ القديم الذي كان يعلمه للأطفال، مثل خيل خالد بن الوليد في الحكايات الخرافية حين تتحدث إليه، ومثل مدينة النبي التي بكت أحجارها ماءً حين مات، أحب ما يراه، ببقايا بناياته، وآثار دماره، وشوارعه الخربة ونباتاته المروية بالمطر، بدت الهضبة له كطفلة تنتظر من ينقذها لتصبح امرأة عظيمة، تمامًا كابنته، ورغم تعبه، رغم ألمه من أجل المفقودين، رغم كآبته الداخلية التي تصرخ في كل صباح حين يفتح عينيه أن: «مت يا مجدي»، رغم كل ذلك وجد نفسه مستمتعًا بالرحلة حتى أنه تمنى لو كانت ابنته معه فيها،

ومن بعيد لمح المئذنة فضرب قلبه بصقيع لحظي وارتعشت عيناه لحظات، كان كل شيء مضاء بنور قمري باهت، أكثر رومانسية من الواقع، أكثر سحرًا، وكأنه محضر من أجله، وكأن الله يهتم بهذا الرجل رغم كل ما فيه، لكن هذا لم يجل بخاطر مجدي الذي كان يعيش تجربته الآن وهو يقترب حتى أنه لم يشعر بغليان صدره ضد هذا العبث المخرب، ورغم أنه نفسه كان ضائعًا في عالم الإيمان، يصحو معتقدًا في الله وقدرته ثم يغيب كل شيء في أحداث يومه ولا ينام إلا فاتر الأمل فيه وبلا صلاة ومن دون خجل، حتى تمرض طفلته فيصلي من جديد ويدعو من دون بكاء، رغم ذلك فإنه الآن يشعر بالغضب يفور داخله، من أجل الجامع الذي كان يصلي فيه مع أبيه، من أجل أتباع الله وعلاماته وأماكن تبجيله، واقترب أكثر فسمع صوت خرير الماء الدقيق للنبع، يتداخل مع همس طفولي غير مفهوم، ارتعش، اصطكت أسنانه وهو يقترب، وتسارعت أنفاسه وهو يمد ذراعه أمامه عابرًا من جوار سور الجامع بحجارته الضخمة، وكأنه سور المسعى بحلمه الأخير، وللحظة انتظر أن يرى الجبل العظيم لكنه فقط سمع الصوت الطفولي يقول ضاحكا: «دائرة تنغلق على نفسها!»، وفي مكة المكرمة، عند أطراف الوادي لأن الأمراء الجشعين والعسكريين والأغنياء والمعتمرين المترفين قد أكلوا باطنها حتى أوسطها، فتح رجل كنيته مثل كنية النبي، صاحب نسب عظيم قلما تجد مثله، عينيه مندهشًا وهو يهب في سريره مذعورًا برؤياه، كان الطائفون بالحرم يغيرون اتجاه طوافهم، أعينهم مفتوحة بدهشة مفجعة ونظرة

أمـل مهولـة، أذرعهـم أمامهـم ممـدودة تـصرخ أن أوصلـوني إليـه لألمسـه، طـال الانتظـار! وحتـى الطـير في السـماء توقـف لينظـر أعظـم مشـاهد الإنسـان، بينـما مـلاك في السـماء يسـتعد ليـصرخ في النـاس باسـم منقذهـم، نفـس الحلـم الـذي يـراه محمـد الآن في حلمـه بـين يـدي عبـد الله، وعنـد المئذنـة سـقط مجـدي عـلى ركبتيـه وهـو ينظـر وقـد انفجـر الدمـع في عينيـه، قريبًـا منـه كانـت يـارا نائمـة تحتضـن إسـماعيل، وغـير بعيـد، تمامًـا عنـد النبـع الـذي طالمـا سـمع عنـه ولم يشـهده إلا الآن، كان عبـد الله يتعـرق وبـين ذراعيـه محمـد يضحـك وهـو يخطـرف برؤيـاه بينـما المـاء يصـب فوقـه بـلا توقـف.

عندمـا دخـل داره كان غـير قـادر عـلى التنفـس، غارقًـا في عرقـه وكل جسـده يؤلمـه،

قطـع المسـافة ركضًـا مـن السـاحة إلى الـدار، اسـتقبلته زوجتـه وعـلى وجههـا نظـرة قلقة مـا لبثـت أن تحولـت إلى فضول مسـتبشر وهـي تسـأله بلهفـة: «مـا بـك؟! هـل وجدتهـم؟!»، بأنفـاس متقطعـة أجابهـا وهـو يمشي إلى غرفـة نومهـم دون انتظـار: «نعـم، نعـم، فعلـت»، رفعـت يدهـا للسـماء وقالـت بسـعادة: «لـك الحمـد يـا الله!»، نظـر إليهـا متفحصًـا، للحظـة سـعد بهـا وهـو يـرى الابتسـامة عـلى وجههـا لكـن لم يكـن لديـه وقـت ليضيعـه، فتـح خزانـة الملابـس ملهوفًـا وهـي تنظـر لـه بحـيرة وتسـأله بينـما يـداه تعبثـان بـين الثيـاب: «أيـن هـم الآن؟»، لم يجبهـا بينـما اقتربـت منـه خطـوة حتـى صـارت وراءه، «عـن مـاذا تبحـث هنـا يـا مجـدي؟»، «علبـة الـدواء»، قالهـا لاهثًـا وقطـع الثيـاب الصيفيـة المخزنـة تتسـاقط عنـد قدميـه ويـداه مـا تـزلان تبحثـان بالداخـل، واندفـع بـاب الخزانـة منغلقًـا بقـوة، سـحب ذراعـه بسرعـة والتفـت إليهـا غاضبًـا: «مـا بـك؟!»، صـاح فأجابتـه بانفعـال: «لمـاذا تبحـث عـن علبـة الـدواء؟»، بسرعـة قـال: «محمـد، محمـد محمـوم، تركتـه مـع الطبيـب بالسـاحة، يجـب أن يأخـذ هـذا الدواء وتعلمـين أنـه لا يوجـد بالقريـة أدويـة، ربـما أكـون الوحيـد الـذي عنـده هـذه العلبـة الآن، سـتنقذ حياتـه!»، هـزت رأسـها نفيًـا ونظـرة رعـب ترتسـم في وجههـا وقالـت بصـوت منخفـض: «وبناتـك يـا مجـدي؟»، نظـر لهـا مبهوتًـا، فأكملـت

«مـاذا سـتفعل هاتـان المسـكينتان إن مرضتَـا؟، ابتلـع مـاء حلقه

وهـو ينظـر إلى تقاسيمها التـي لم يعـد يشـعر نحوهـا بـشيء، دفـع يدهـا برفـق عـن بـاب الخزانـة وهـو يهمـس: «دعينـي آخـذه وليكـن مـا يكـون بعدهـا»، «لا!» صرخـت، «لـن تأخـذ شـيئًا لا يخصـك، هـذا الـدواء ملـك ابنتـي منـذ جئـت بـه، لـن تأخـذه لأنـك تريـد ذلـك»، صرخ فيهـا: «سـيموت الولـد!»، أجابتـه بسرعـة: «إن كان سـيموت فلـن تنفعـه هـذه العلبـة»، «قـال طبيب ذلـك! تعرفـين أكثـر منـه؟!»، جـزت أسـنانها وهـي تقـترب منـه بشراسـة مجنونـة وتقـول: «قلـت لـك لا! ابحـث لـه عـن علبـة غيرهـا، أحـضر واحـدة أخـرى كـما فعلـت مـع هـذه، لكـن لـن تأخـذ علبـة صفيـة»، «سـأحضر لـك غيرهـا» همـس لهـا راجيًـا، فهـزت رأسـها وهـي تنظـر إلى عينيـه وتقـول بصـدق: «دائـمًا تكـذب»، قالتهـا وهـي تسـد الخزانـة بجسـدها، اضطـرب في وقفتـه وغضبـه يتصاعـد، «بينـما كنـت تـدور بالخـارج كالمجاذيـب بـدأت صفيـة بالبـكاء لأنهـا تريـدك، ثـم بـدأت تسـعل أيضًـا، كنـت أطمئـن عليهـا كل بضـع دقائـق وهـي نائمـة لأتأكـد أنهـا بخـير وأنـت لا تـدري شـيئًا عـن كل ذلـك، مـاذا سـتفعل لـو مرضـت الليلـة أو غـدًا؟»، وتراجـع مجـدي خطـوات، ضعفـت أعصابـه وأصابتـه حرقـة شـديدة بصـدره الـذي انقبـض مـن جديـد، وكأن حياتـه بحـر أمـواج مـن نوبـات كآبـة تأكلـه واحـدة منهـا الآن، وتابعـت المـرأة: «والله لا أعـرف لم تحبـك هـذه البنـات، هاتـان المسـكينتان ، لـو يعلمـن أنهـن لا يسـاوين عندك شـيئًا، وأن حياتهـن نفسـها لا تهمـك لابتعـدن عنـك للأبـد، وصدقنـي يومًـا مـا سـيعلمن وسـيفعلن وسـتفتقدهن حتـى المـوت، سـيحتقرونك لأنـك لم تهتـم كـما يجـب، لم تحـاول حتـى أن تفعـل»،

وتراجع أكثر، انسدت أمامه كل فرجة والبهجة المختلطة بالحزن والرجاء لإيجاده الأطفال تحولت لسواد مقبض غاب داخله أي إحساس، تمامًا كما كان قبل البكاء أسفل دار خالته، أغلق عينيه وهو يغادر الغرفة، تتبعه كلماتها كضربات جلاد، مشى إلى ردهة داره الخالية، سيدخل الحمام ويغلقه على نفسه كما يفعل كلما أراد الهرب منها، لكنه حن حين مر بغرفة صفية، وجد نفسه يدفع بابها برفق ويدخل..

الغرفة ذات الأثاث القديم،

لا سرائر ملونة منقوشة أخشابها بفراشات وتيجان البنات،

لا حوائط زهرية تتداخل فيها ألوان سعيدة،

لا حقيبة مدرسية، قديمة أو جديدة،

ولا ألعاب، من أي نوع،

فقط أكياس الرمال الذهبية كما تطلق عليها ابنته،

وصوت أنفاسها الدقيق يتتابع،

مشى نحو سريرها، على ركنه جلس يتأملها،

لمس جبهتها، ناعمة ودافئة من أثر النوم، لا حرارة،

قبَّل خدها، تمدد إلى جوارها، كان يشعر بضياع وألم كاسحين، احتضنها، يعرف رائحة جلدها، بها نزعة سكرية سحرية،

تنهد وهو يغمض عينيه،

ثم سمع همهمتها غير المفهومة، كانت تحلم، اعتدل وربت على خدها وكمعجزة أو هدية سماوية غير متوقعة سمعها تقهقه وهي نائمة، تضحك بصوت حريري ناعم، لا

أثر فيه لعناء من أي نوع، ابتسم على رغمه حتى تبدت فلقة أسنانه الأمامية التي يخفيها بيده كلما ضحك، أمسك بكفها الصغير ثم ارتعش قلبه من فرط سعادته وهو يسمعها تقهقه من جديد حتى دمعت عيناه،

وقبل الفجر كان في الساحة مرة أخرى،

راقدًا إلى جوار ابن اخته وعبد الله، تجاورهم زجاجة دواء مفتوحة.

تركت شعري يغطي نصف وجهي، لو كان بإمكاني لغطيت نصفه الآخر أيضًا، خبأت الألم في مكان لا يراه سواي، استبدلت أنينه بضحك منهمك لا أشعر معه بشيء وأعدت خدي ورديًّا كما اعتادت أمي أن تراه وهي تقبلني قائلة: «ما أدفأه!».

اعتاد أبي أن يطلق عليَّ أسماء أبطالي، قال لي إني أشبههم في أشياء كثيرة، قصصهم من قصصي.

أنا الجميلة وهو الوحش،

أنا بو وهو مارد،

في كل قصصهم كان هناك العدو وفي كل مرة تغلبنا عليه معًا،

لكن العدو لم يكن يومًا مرضًا، ولم أكن وحدي في مواجهته أبدًا،

لذلك أفتقد أبي الآن..

رغم أني أشعر به داخلي،

هو وحده الذي يحميني، هكذا قال لي، «والله؟» سألته حينها، فقال لي إن الله هو من اختاره لحمايتي.

لا شيء يستطيع إيذائي وهو معي؛ لذلك انتظر المرض حتى غادر فدخل باب غرفتي واختلا بي.

في أيامنا القريبة، كان يسخر من كل شيء حتى من أمي، مني أنا، ومن نفسه، يسخر وهو يضحك فنضحك معه، نضحك كثيرًا حتى كنت أوشك على التقيوء من كثرة

الضحـك.

مثلما أوشك الآن من شدة الألم.

هنا إلى جوار أمي وأنا أنظر للتلفاز معها،

اليـوم أصابنـي صـداع لازمنـي منـذ اسـتيقظت ولم يتركنـي حتـى الآن، بعدهـا بقليـل سرى ألم جديـد بأجزاء جسـدي، بأجزاء لم تؤلمنـي ولم أشـعر بهـا مـن قبـل، ألم ممـض طويـل وضاغـط بـين فخـذي وبأطـراف أصابعـي وعنـد مفاصـل قدمـي؛ لهـذا أسـتكين إلى جوارهـا الآن محاولـة أن أتناسـاه، تنظـر إليَّ كل دقيقـة بقلـق فأحـاول أن أبتسـم، أعـض عـلى شـفتي محاولـة التحمـل وأضغـط بيـدي عـلى قـاربي.

أحـضرت إليَّ الطعـام، نظـرت لـه فأصابنـي دوار جعلنـي أنفـر منـه، لكنـي أكلـت مـن أجلهـا،

بعدها تقيأت،

زاد ألمي فبكيت منه،

حملتنـي وهـي تبكـي معـي، تركـت نفـسي لهـا، بعـين نصـف مفتوحـة رأيـت بـاب غرفتـي وهـو يفتـح، مـررت باللوحـة الكبـيرة التـي رسـمها أبي معـي لفيلـم UP، رسـم أبي العجـوز فريـد ورسـمت أنـا الطفـل، كان أكثـر رسـم أحبـه، ابتسـمت وأنـا أرى الآيـس كريـم في يـد العجـوز يـذوب متسـاقطًا عـلى يـده وتحـرك الطفـل مقتربًـا بفمـه ليلحسـه، النجـوم المضيئـة في سـقف غرفتـي ازداد نورهـا والظـلام يلـف مـا حولهـا، وضعتنـي أمـي عـلى سريـري وجلسـت عنـد قدمـي،

ليتهـا تتوقـف عـن البـكاء مـن أجـلي، لا أريـد أن أراهـا باكيـة

أبـدًا، شـعرت بـأن جسـدي يـزداد سـخونة وكأنـه يحـترق، مزقنـي وجـع بطنـي، بخـط طويـل مـن ألم يقطعهـا ثـم يتشـعب منهـا إلى جوانبـي، أسـفل صـدري وذراعـي وحتـى رأسي، اهتـز كل شيء مـع دوار شـديد، للحظـة تمنيـت لـو كان أبي هنـا الآن، ومـن خلف أمـي ظهـر ولـد صغـير، لـه وجـه مسـتدير، خـدان حمـراوان وأنف لطيـف، فيـه ألفـة وكأنـه أخـي الـذي طالمـا تمنيـت أن أحظـى بـه،

اقـترب بخجـل وهـو ينظـر إلى أمـي متوجـلًا، ثـم التفـت إليَّ، لمحـت في عينيـه حزنًـا دفينًـا لكنـه ابتسـم وهـو يهـز رأسـه بلطـف،

لم أستطع أن أخبر أمي عنه؛ لأني لم أقوى على الكلام،

وبينـما يغالـب عينـي نـوم يسـتحكم، ابتسـمت بدهشـة وأنـا أرى رأس حصـان صغـير تنظـر بفضـول مـرح مـن بـاب غرفتـي،

التفت الطفل إليه ودعاه أن يدخل بإشارة من يده،

لونــه رمــادي داكــن، كلــون دب ظريــف، شــعره طويــل وناعـم، حـين وقـف غـير بعيـد مـن سريـري بـدا طولـه مثـل طـولي وأنـا واقفـة، رأى الطفـل انجـذابي لـه فربـت عـلى رقبتـه وهــو يقربــه أكثــر هامسًــا لــه

«اقـترب يـا سـبحة»، اقـترب حصانـه حتـى جـاورني، ربـت الطفـل عـلى خـده وهـو يقـول لي: «تريديـن أن تـأتي معـي؟».

«وأمي؟».

هز رأسه ببطء وهو يقول: «لن يعرف أحد»،

«كيـف أركبـه؟»، أجـاب وهـو يقربـه منـي: «حـاولي»، كان جسـدي يرتعـش بشـدة لكنـي دفعـت يـدي في سريـري وتحاملـت حتـى اسـتطعت الوقـوف عليـه مهتـزة، رفـع لي المهـر رأسـه ثـم

اقـتـرب، خطـوت باتجاهـه، رفعـت رجـلي، انحـسر ثـوبي عنهـا فبانـت دوائـر الـدم القرمزيـة منتـشرة عليهـا، أسرعـت حتـى أركبـه وأنـا خجـلى مـن منظـري، وللحظـة رأيـت نظـرة الحـزن التـي ظهـرت عـلى عينـي الطفـل الـذي أدار وجهـه للأسـفل بينـما ألامـس فـروة حصانـه جالسـة، ونسـيت جسـدي كلـه في هـذه اللحظـة، اندفـن الألم فأصبـح بعيـدًا وإن ظـل موجـودًا كنبضـة خافتـة اعتدتهـا، لكـن رائحـة القـيء غابـت تمامًـا، تركـت نفـسي عليـه وذراعـي تلتـف حـول رقبتـه، أصـدر صوتًـا رقيقًـا، حمحمـة لم أسـمع مـا هـو أجمـل منهـا وأرجـع رأسـه للخلـف مستأنسًـا، قربـت وجهـي منـه فمسـح نفسـه في وانصهـر قلبـي حبًّـا لـه وهمسـتُ لـه: «مـا أجملـك يـا سـبحة!»، اضطـرب جسـده ولامسـتْ وجهـي دفقـة هـواء قويـة جعلـتْ شـعري يتطايـر حـول رأسي، بدهشـة نظـرت إلى شـعرات ذهبيـة طويلـة تتسـاقط منـه في الهـواء، حزنـت لمرآهـا، لكـن حـزني اختفـى وأنـا أنظـر بدهشـة إلى جناحـين عـلى جوانـب حصـاني لم أرهمـا إلا الآن ينفـردان طويـلان ثـم يضربـان في هـواء الغرفـة، فيرتقـي فـوق كل شيء وأنـا معـه..

ضحكت في دهشة وأغمت عيناي لثوانٍ من قوة الريح،

أسفلي كان حينا،

يبتعد بسرعة،

ميزت البيوت فيه، أشجار الليمون أمامها،

لمحـت السـيارات التـي علمنـي أبي أن أتعـرف عليهـا مـن رموزهـا، كان قـد قـال لي إن الهونـدا الكبـيرة هـي أسرع المركبـات، لكنهـا مـرت بطيئـة جـدًّا وسـبحة يتخطاهـا سريعًـا، عبرنـا حينـا إلى أحيـاء أخـرى،

تتجاور متشابهة،

لا يميزها شيء،

إلا مجرى نهر صغير يظهر ثم يختفي،

أو مساجد قديمة ارتفعت مآذنها في السماء وكأنها أصابع تشير إلينا،

كلما طرت كانت الأحياء الجديدة أقل بالمنازل، وكأنها لم تعمر كاملة بعد، وزاد اتساع النهر عندما ظهر من جديد ونحن نطير أعلاه، تبعه سبحة وكأنه طريق، ملأتني بهجة حتى أن عقال ضحكي انفلت بينما يتأرجح حصاني يمينًا ويسارًا، ياالله! الرياح وهي تحملنا ساحرة! خلقتها أنت من أجلي أنا؟ ضغطت على أسناني بقوة وانا أحتضنه وهمست له: «ما أسعدني»،

وأتاني من بعيد صوت أمواج فرفعت رأسي أنظر،

أسفلي كانت البيوت تتناقص بشدة مبعثرة بين مزارع متسعة،

ثم اختفت تمامًا وبدأت ظلمة في التشكل اختفى معها لون شعر سبحة الرمادي الجميل وبات أسود،

ثم ظهرت الرمال،

وعلى البعد كان السواد العظيم لبحر يأتيني صوته من مكاني هذا..

وتباطأت أجنحة حصاني، انخفض هابطًا، استوحش قلبي وأنا أسمع هدير الموج والظلمة تزداد، لكنني رأيت الولد ينتظرني بالأسفل،

أنزلني برفق، لامسته شاكرة فلامس شعره الداكن وجهي وجعلني أضحك، انغرست قدماي في الرمال الباردة، رفعتها فرأيت أنها نقشت ما يشبه جسم جمل في الأرض، تحركت مع الطفل مبتعدة عن حصاني وقدمي تنغمس، من جديد نظرت خلفي بفضول فرأيت النقوش التي خلفتها في الرمال مع كل خطوة، وجه حمامة، ورسمة جبل، انغمست مرة أخرى، رفعتها وتوقفت أنظر، رأيت ما يشبه الكهف، انحنيت أنظر ما فيه فرأيت رجلين لم أتبين ملامحهما ينظران إليَّ بصمت وأحدهما يربت على كف الآخر مطمئنًا، وحين خطوت من جديد كان الظلام قد أحكم وكانت يد رفيقي تشدني شدًّا إلى حافة الشاطئ، رفعت رأسي أنظر البحر...

كان عاصفًا،

تعلوه أمطار وأمواجه عاتية،

في وسطه، كان رجلًا متوسطَ الطول يقف، يرتدي ملابس عتيقة ملونة أشبه بثياب الرجال العربية بفيلم قديم تعشقه أمي، لا شيء فيها يلمع، أنفه دقيق كدوق فليد، شعره طويل كماوكلي وقد بلله المطر، يخطو على الماء وكأنه يمشي على الأرض، ينظر إلى رجال آخرين حاصرهم الموج في مركب صغير استقر السمك بجانبه الأيسر، ينظرون إليه بذعر مستنجدٍ ودموعهم تذرف بينما يمد يديه إليهم مطمئنًا، مد واحدٌ منهم ذراعه إليه بخوف حتى أني في مكاني هذا استطعت أن أراها ترتعش،

واقترب الطفل مني وهو يرقب ما أنظر إليه،

كان الألم قد بدأ يغزو جسدي من جديد فتثاقلت أنفاسي

وأنـا أخفـض رأسي محاولـة أن أتماسـك،

«اسـمي إبراهيـم»، هكـذا همـس لي، أردت أن أبتسـم لكنـي حـين رفعـت رأسي إليـه وجـدت عينـاي تدمـع وأنـا أقـول لـه: «أنـا أشـعر بـالألم»، اقـترب منـي أكثـر، أمسـك بيـدي وهـو يهمـس: «تخفـي الحكايـات الألم»، «أخـبرني أبي بـكل الحكايـات» أجبتـه فابتسـم وهـو يقـول: «أعـرف آلاف الحكايـات، حكايـات جديـدة لا يعرفهـا سـواي، أقـص منهـا للأطفـال في اللحظـات الأخـيرة، ربـما تملكـين الوقـت لتسـمعي خمـس حكايـات منهـا، أو سـبعة... عـشرة عـلى أقـصى تقديـر».

هـززت رأسي متفهمـة وابتسـمت، أمسـك بيـدي وهـو يخطـو في الرمـل إلى البحـر، نظـرت أسـفل قدميـه رأيـت أن آثارهـا كلهـا كانـت رسـمات دمـوع، ثـم دخـل المـاء، مثـل الرجـل سـار عليـه، خطـوت إلى داخـل البحـر مثلـه، لا شيء.. لم تغـرق قدمـي في المـاء ولم يمسـها ملحـه، ونظـرت إلى الرجـال البعيـدة متسـاءلة: «لم كل هـذا الخـوف؟!»، مشـى داخلـه وأنـا معـه ولمحـت غـير بعيـد المركـب الأزرق الصغـير ونحـن نقـترب منـه، التفـت إبراهيـم إليَّ وقـال: «الحكايـة الأولى؟»، هـززت رأسي بنعـم،

«ستكون عن حيوان قديم»،

«أحب الحيوانات»،

« اسـمعي إذن باسـم الله... الـذي، مثـل كل شيء آخـر، حدثـت أحـداث قصتنـا بعلمه».

الحكاية الأولى
الحيوان

بكت أنثى ذلك الحيوان وهي تقف مرتعبة أمام الموجة الكاسحة وأطفالها يموؤون باكين وهم يحتمون بها.

ليس بكاؤها مثلنا، لا دموع وإن انغلقت العين بألم، فقط مواء طويل حزين يتكرر كأنه دعاء لا نفهمه.

اسمها؟ لا أعرفه، ولا أعرف نوعها أيضًا، كانت تلك الأنثى موجودة قبلي وقبلك، وقبل أجدادي وأجدادك، قبل أن يكون هناك إنسان ليطلق الأسماء على الأشياء بلغات مختلفة.

تراجعت خطوات وعيناها تنفتح باتساع غير معقول تتسع للهول القادم، شكلها؟ تشبه القطة أو النمر الصغير، لكن أرجلها أطول وأنيابها الحادة تظهر خارج فمها وكأنها أنياب فيل، مخيفة بألوانها الغريبة، خليط من الخطوط الرمادية والسوداء ولون الفضة، قوتها تبدو أسطورية حين تتحرك، لا يمكن مواجهتها أو التغلب عليها. أيًّا كانت، فقد كانت شيئًا لم يرَ أحدنا مثله من قبل، ورغم ذلك الشكل العجيب، لأطفالها أشكال لطيفة، لو رأيتهم بأجسادهم الصغيرة وأعينهم المستديرة الواسعة لأردت أن تمسك بهم وتلمس فروهم النظيف.

حين استيقظت هذا الصباح لم تسمع صوت الطيور الذي

تألفه، الزقزقة الصاخبة التي تعد بالصيد والحياة ليوم آخر، كان الصمت يلف كل شيء، رفعت رأسها للسماء، لم تستطع أن تميز إن كان الوقت مبكرًا جدًّا أم أن النهار قد شارف على الانتهاء، لم تستطع أن تميز الشمس التي اختبأت بصمت وراء غشاوة صفراء غير مريحة تعكر السماء وكأنها إنذار.

كانت قد رأت حلمًا عجيبًا بالليلة الماضية...

مثل قططنا وكلابنا كانت ترى الأحلام يا صديقتي زهوة، صدقت هذا الحلم وفهمت أنه حقيقة؛ لأنها كانت قد عرفته من قبل، في ذكرى قديمة انغرست داخلها في لحظاتها الأخيرة قبل الولادة وانطفأت مختبئة حين رأت عيناها النور للمرة الأولى.

وعد قديم تذكر عنه كل شيء الآن وكانت قد نسيته لدرجة أنها لم تعرف أنه موجود.

وعد الخالق الذي بدأ به هذه الطبقة من الحيوان..

أخلق..

أزيل..

ثم أعيد الخلق...

هكذا أفعل ... ما أريد، وهكذا تكون الحياة هنا..

انظروا لما أحدثه الوعد،

لوحات متتابعة لا يمكن الإلمام بها كلها، في لمحات خاطفة على مدار زمن يبدو بلا نهاية، فليكن لكل حيوان، لكل خلق، الحق في حياة واحدة بهذه التجربة المدهشة، تجربة تخلق بلا جمهور وبعبقرية خالصة لو رآها راء لصرخ: «ما

أعظمك!!»، ليكن للحيوان الحق في أن يستمتع بما خلقت، نور الصباح وتمدد الجسد المريح، فرو الأم الدافئ وصوت الأشياء المحيطة التي يستأنس لها، رائحة الطعام المخلوط بالدم من الضحية وطعمه الذي قد يدفعك أن تزوم بدهشة مستمتعة وأنت تعتصريه بين أنيابك.

ليجرب لحظة التحام الأجساد ولحظة خروج الولد وتدفق اللبن للرضع، صوت البحر العجيب وطعمه اللاذع ورائحة لحاء الأشجار بينما يغمشه بأظافرها الطويلة.

كل ذلك سيختفي الآن، أخذت نصيبها منه كاملًا، وقد حان الوقت للفناء اليوم.

لأن كل تلك الأشياء تتكون وتنمحي وينبعث غيرها من أجل خلق أخير سيتتبع أثر كل ذلك باحثًا، مخطئًا ومصيبًا فيما ندر، خلق اعتقدت لفترة من الزمن خاصة حين ولد أبناؤها بين قدميها وكبروا أمامها، أنه سيكون لها نصيب من الحياة معه، ستكون من مرافقيه، ربما تألفه ويألفها مثلما تفعل مع أولادها..

لكنها الآن تعلم أنها من السابقين وقد حان الوقت كي تترك الأرض من أجل الجديد القادم، ربما كان هذا الخلق الجديد هو الذي سيرافق المخلوق الأعظم فيبقى، ربما سيفنى مثلها.

نظرت إلى أطفالها، ما زالت أنيابهم غير ظاهرة، يقتربون منها أكثر ويموؤون في ذعر، لعقتهم مطمئنة وهي تشم ريحهم للمرة الأخيرة.

والآن..

تشرئب أذناها وتتوتر وهي تسمع صوت الموجة الهادرة، ترفع رأسها وتهتز شواربها وهي تنظر للأفق، استطاعت أن تراها وهي تعلو للسماء وسمعت صراخ كل ما يطير كنوبة مخيفة من رعد علت صوت الموجة نفسها.

ستموت غرقًا إذن ...

احتضنت صغارها في انعدام حيلة، للحظة شعرت أن عليها أن تبول لكنها تماسكت، لامس فرو الصغار الناعم فروها الغزير، تقاربوا أكثر ورذاذ الملح يصل إلى أنفها الحساس وفي لحظة عابرة سألت نفسها ما ذنبهم؟

تعالت الموجة أكثر، كانت خائفة، مرتقبة، لكنها لم تكن تملك من أمرها سوى الرضا والغضب على الموجة نفسها فوقفت مواجهة لها بينما تتقبل كل شيء بما فيه الموت، هكذا خلقت، توارت الغمامة الصفراء خلف الموجة العالية وغطاها ظل مملح بطعم الموت فأغمضت عينيها وبدايات الموجة تكتسح الأرض ناسفة الطين أمامها..

وانسحبت مع الماء بقوة مجنونة..

ماءت صارخة مرة أخيرة اقتطعت من منتصفها قبل أن تموت...

ودخل الماء المالح أنوف الصغار، تخلل أحشاءها، ودقت القلوب الصغيرة بسرعة غير معقولة، سرعة معجزة تخطت خطورة نبضات الموت وعبرتها لينبض القلب بنغم جديد.

وانبعثت علوم إلهية في أجسادها، ألوان جينات متداخلة

ضربت بعضها وخلايا تتراقص داخلها متحاربة أو ربما متعارفة بطريقتها الخاصة، بخطة قديمة شبه أثرية، سبقها فيها مخلوقات أخرى كانت لها جدة، بدأت حين بدأت هذه السلسلة من الخلق.

وارتقى الصغار،

ارتقوا درجة للأعلى، فسريها يا زهوة بالعلم، أو الإرادة، فسريها بجينات قديمة أو طفرة، لكن دائمًا اعلمي أن الله كان من أراد، مهما كان الطريق لإرادته.

واهتزت أجساد الصغار، ارتجت عقولها وانبعثت جينات ميتة مستيقظة في دهشة وشفرات محذوفة ظنت أنها لن تعمل والآن بدأت تتحرك بجنون مسعور.

كانت هذه حركة مضادة لما يفعله السرطان الخبيث، كان نموًّا من أجل الحياة وليس من أجل الموت.

وحين اضمحلت الموجة العظيمة وغابت في طيات الأرض، كان الصغار هناك، بين الأشجار المحطمة والصخور المبعثرة والأسماك الميتة، ذكر وأنثى، ذكر وأنثى، لم تتعد أعمارها الشهر بعد، ترقد متجاورة فوق ربوة منخفضة، متعبة كأنها على حافة الموت لكنها ناجية.

وبداخلها كان الخلق الجديد مستمرًّا..

خلق قضت الحكمة أن يجاور الإنسان بعالمه، ويموء بحنين قديم حين يربت على فروه مداعبًا.

بسرعة انتشرت أخبار المفاوضات بين بقايا المقاتلين بالهضبة الصغرى والعميد، قيل إنها تتقدم باتجاه حَلٍّ سلمي يضمن للجميع حقوقهم ويضمن له السيطرة، وبأن المفاوضات تعدت الصغرى إلى حمزة نفسه ومقاتليه بمريمة حيث العدد أكبر وأشد تسليحًا وأن العميد ما يزال ينتظر ردًّا منه.

جلبت هذه الأخبار بعض طمأنينة إلى الأسر القليلة الباقية بالهضبة الصغرى، حتى أن بعضهم بدأ يتنقل بين الهضبتين بحرية.

ربما كان هذا ما جعل سماع هذا الصوت مقبولًا...

صوت عجلة طفل تتحرك، صرير معدنها الذي يحتاج إلى تشحيم يسري بينما يلهو بها صاحبها...

ساعات الصباح الأولى،

ورغم الصوت المطمئن للحركة الرتيبة إلا أنه ولسبب غير مفهوم بدا مشؤومًا، وكأنه أحد أبواق يوم القيامة، تصاحبه قتامة كئيبة وهو يستمر دون انقطاع.

ويقترب أحد جنود الحراسة من مصدر الصوت مستطلعًا،

يرى الطفل الذي لم يتجاوز العاشرة وهو يحرك قدميه بصعوبة دافعًا البدال القديم، مرتديًا ثوبًا أبيض قديمًا بدا نظيفًا رغم قدمه، من تحته ظهرت رجلا الطفل، بيضاء ناعمة كالفتيات، حمل الجندي سلاحه واقترب مستمتعًا بالمشهد، تحرك داخله شيء لم يفهمه، وجد نفسه يضع يده في

جيبه بحثًا عن أي شيء يعطيه للطفل حتى وجد قطعة حلوى عتيقة نسيها فيه منذ زمن ولا بد أنها قد غسلت مع الزي نفسه مرات عديدة، أخرجها وهو يقترب أكثر، كان الطفل غائبًا تمامًا في لهوه، ينظر الأخاديد الدقيقة التي تصنعها عجلاته في الطين، يتحدى نفسه محاولًا أن يمشي فوقها من جديد لتزداد عمقًا،

«هيه ..»،

ناداه الجندي فتوقف مرتعبًا وهو يرفع رأسه نحوه وقدماه تتأهبان لدفع البدالات هاربًا، لكنه رأى الحلوى في يد الجندي الذي رفعها مبتسمًا وهو يقترب بخطوات هادئة، وتذكر كلمات سمعها بين أبويه عن هدنة لا يُقتل فيها أهل القرية، ثم إن الرجل بدا له مسالمًا كصديق مخلص.

لذلك توقف..

بالواقع دفع بقدميه في الأرض والعجلة من تحته واقترب من الجندي،

حين تجاورا، ربت الجندي على كتف الصبي، داعبه مبعدًا الحلوى عن يده فانقض عليها الصغير ضاحكًا.

وحين خطفها ضحك الجندي وهو يضمه إليه ويقبل خده.

ضم الطفل جسده على نفسه متباعدًا بلطف وهو منشغل بمحاولة فتح الغلاف الشفاف الذي التصق تمامًا بالحلوى نفسها، فضمه الجندي بقوة أكبر وقبله من جديد، وللحظة غابت ابتسامة الجندي، وانفرج فمه حتى بدت أسنانه

البيضـاء فيـه.

حـرك يـده عـلى ظهـر الصبـي وهـو يبتلـع مـاء حلقـه فيجـده جافًّـا، انسـابت عـلى جبهتـه قطـرات عـرق ورفـع رأسـه مسـتطلعًا مـا حولـه بقلـق وارتعـش جسـده انفعـالًا والطفـل يرفـع رأسـه إليـه قائـلًا بحـزن: «إنهـا فاسـدة»، تكلـم الجنـدي فخـرج صوتـه مبحوحًـا وهـو يقربـه منـه: «تعـال معـي أعطيـك واحدة سـليمة»، قالهـا وهـو يجذبـه إلى سـور أحـد البيـوت المغلقـة، احتكـت العجلة بـالأرض بصـوت مرتفـع، فانحنـى الجنـدي بانفعـال وحمـل الطفـل عنهـا لتسـقط عـلى الأرض والطفـل يصيـح ممتعضًـا فيجيبه بسرعـة: «انتظـر لتأخـذ حلـواك وتعـود إليهـا»، وسـاور الطفـل شـعور بخـوف فطـري وانقبـاض عجيـب لم يحسـه مـن قبـل، ارتعـش وأصابـع الجنـدي تلتمـس جسـده بينـما يحملـه، الجنـدي الـذي اشـتعل باطنـه بنـوازع غـير مقبولـة، مشـى بخطـوات متعثـرة إلى السـور، لم يضـع الطفـل عـلى الأرض، احتضنـه بقـوة وهـو يقبلـه...

وانفلتـت صيحـات خـوف، تلتهـا صرخـات رعـب وألم كتمها الجنـدي مـا اسـتطاع بيـده التـي شـعر بدمـع الطفـل السـاخن يتسـاقط عليهـا، تجاهلهـا وهـو يحكـم قبضتـه ويكمـل مـا بـدأه..

وحـين جـاءت الصحـوة، كان هنـاك طوفـان نـدم، لم يتركـه لحظـة ليسـترخي وإنـما ارتطـم بـه في لحظـة النشـوة نفسـها، وكان الطفـل أمامـه عاريًـا، ثوبـه ملطـخ بالطـين وجسـده اختلـط فيـه دمـه وبولـه ودموعـه، مثـل جريمـة كاملـة تـصرخ. احتقـر نفسـه وإن اعترتـه دهشـة لمـا فعلـه وتسـاءل بحـيرة كيـف بـدأ كل ذلـك؟!

ارتعشت يداه، مدها إلى سلاحه، وجد نفسه يشد أجزاء مسدسه من دون وعي وهو يحاول أن يستجمع أنفاسه وبعين خائبة ينظر إلى الطفل وهو يرفع ذراعه على امتدادها بسلاحه، يجب أن يصمت للأبد، فكر لحظة إن كانت هذه خيانة للعميد أم خطأ؟ قال لنفسه هو خطأ، سيغفر له لو عرف، ولن يعرف.

قرب المسدس من صدغ الطفل المذعور، بدت عيناه حزينة إلى حدٍّ لم يتحمله، انتظره أن يصرخ لكنه لم يفعل، عض شفتيه وهو يقول بصوت متهدج مواسيًا له: «ستحصل على هذه اللعبة مع الحلوى، هذا المسدس يرش الماء فقط»، ورغم ألمه وخوفه اتسعت عينا الطفل بفضول وهو ينظر إلى السلاح ودموعه ما تزال تترقرق فأطلق الجندي الرصاص وغادر هاربًا دون أن يلتفت وقبعته العسكرية ترقد مجاورة الجثة.

في الساعات الأكثر إظلامًا بالليل احترقت برودة الأجواء بخيط دخاني أبيض صاحبه صوت احتراق مندفع، ثم انفجرت بوابة أحد الدور مضيئة كل نقطة تمركز فرقة العميد وما حولها بوهج برتقالي اندمجت في ألوانه صرخات جنود وانفراط لحم حي ممزق.

كان هذا هو المنبه الأول تلك الليلة، تبعه صمت استمر ثوان بطيئة مضت كأنها ساعات، ثم انهالت أمواج طلقات تتخللها قذائف أشعلتِ النَّار في كل شيء.

وارتفعت أعمدة اللهب في السماء، علامة الموت التي يألفها كل الجنود لكنهم كانوا من قبل خالقيها والآن هي من نصيبهم، قاتمة ومخيفة مثل كل مرة، فأسرعوا يلوذون بالمنازل محتمين وهم يطلقون النار عشوائيًّا باتجاه الدور المحيطة وكأنهم يقتلون مربعات القرميد.

ولأن المهاجمين لم يكونوا مذعورين مثلهم، فقد اصطادوهم اصطيادًا حتى أن صوت صراخ المصابين تعالى في الحارة وهم يستغيثون برفاقهم.

واستيقظ حسن مذعورًا ويد العميد تضرب كتفه بقوة، «احمل سلاحك واتبعني»، أمره العميد وهو يدور على باقي جنوده المقربين بالخيمة، توقف حسن من فوره ويده تتحسس سريره بحثًا عن سلاحه، فاجأه دوار وشعر بالغثيان لثوانٍ وأصوات الاحتراق بالخارج تصله مختلطة بصراخ الرجال، ضغط رأسه بيديه وهو يحاول أن يستفيق، دس قدميه في حذائه ثم انطلق خلف ظل العميد الذي جرى بين الدور،

دافعًا الجنود عن طريقه، محاذيًا البقع المشتعلة بالنار، خافضًا رأسه حماية من الطلقات دون أن يستعمل سلاحه ولو مرة للدفاع، كسر باب أحد الدور العالية بقدمه ودخلها يتبعه حسن فاستقبلته روائح روث الطير المختمر وأصوات زحف الحشرات وذباب هائم يدور حول رؤوسهم، رأى العميد وهو يتسلق السلم الداخلي للأعلى بسرعة، يفتح باب العلية المكشوفة ويدخلها دون تردد، سمع همسه والهواء البارد يتلقفه، «ماذا يحدث؟! لماذا الآن؟!»، يجري بين أركان العلية، يتلفت حوله بحثًا عن مصدر إطلاق الرصاص، ينحني حسن وهو يقترب منه محاذرًا، وينظر العميد للأسفل مستندًا على الحافة وكشر بغضب من منظر رجاله، مبعثرين في الحارة بلا قائد، أغلبهم مصاب وجلهم مذعور، تساقط السلاح من أيدي كثير منهم، هذه معركة خاسرة لو لم يتصرف الآن، ترك موقعه وانطلق إلى حافة السور الأخرى ورفع منظاره الليلي وهو ينظر باحثًا.

عبر المسافة رأى ومضات ضوئية تظهر وتختفي عند أحد التلال المزروعة القريبة، هي فوهات البنادق والرشاشات، حاول أن يحصيها لكن دفقة رصاص ضربت السور أمامه وعبرت من جداره، انبطح حسن فارتطم ببقايا بناء إسمنتيي آلمت جسده، سب بانفعال وهو يطبق أنامله على سلاحه وللمرة الأولى استطاع أن ينظر بتفحص إلى العميد الذي قرفص جالسًا محتميًا بالسور والمنظار بيده.

كانت قدماه حافيتين، يرتدي بنطالًا قطنيًّا ضيقًا فاتح اللون وفانلة ثقيلة من صوف أسود، جرى العميد خافضًا

ظهره وهو يشير لحسن أن يتبعه، وصل لمنتصف الحارة وصرخ في الرجال: «ليأت إليَّ الفيلة، أيها الفيلة تعالوا هنا!»، كان قد قسم فرقته إلى مجموعات رئيسية بأسماء الحيوانات والطير، ثم قسم المجموعة الرئيسية إلى مجموعات فرعية أصغر بأسماء شوارع المدن، وكل شارع مقسم إلى مجموعات أكثر تخصصًا بأسماء الحروف العربية.

التأم حوله الفيلة وغيرهم، جاء كل قادر، بالواقع أن وجوده أيقظهم من رعبهم، وقف منتصبًا وتكلم بسرعة ومن دون انفعال كأنه مدرب كرة قدم خبير،

«ليصعد الفيلة إلى أسطح الدور، المهاجمون بالجزء الغربي المواجه لنا باتجاه الساعة التاسعة من مكاني هذا، وزعوا أنفسكم على الدور، بين كل دارين أبقوا دارًا خالية، يتمركز فيها أفراد «عين» ومعهم قاذفات الصواريخ، لينسفوا السيارات التي ستهاجم الحارة بعد قليل، وليبق معي واحد من «عين» ومعه سلاحه، اذهبوا الآن»، قالها وهو يدفع أولهم في ظهره مشجعًا ويلتفت إلى ما تبقى من الرجال، وزع المجموعات الباقية على مدخل الحارة ومخرجها وعند مخزن السلاح والمركبات وبالنهاية نادى على الأسد والكلاب، كانوا أكثر تنظيمًا، يحملون أسلحة أحدث، نظر إليهم وهو يقول: «لن نفلت من هذه إلا بانتصار، ما عداه موت»، وأخذ نفسًا عميقًا وهو يقول: «سنهاجم التبة، وننظفها ممَّن فيها، اتبعوني لتنجوا لأنكم تعلمون أين الله»، «بظهورنا!» تعالى الهمس من الرجل فصرخ فيهم: «بظهري أنا! فكونوا من خلفي»، قالها وهو يركض مشيرًا لأحد رجاله «السيارة»،

بعدها بثوان تكسرت أخشاب بوابة أحد الإسطبلات واندفعت خارجها ثلاث سيارات جيب عسكرية جرى نحو أولها وقفز إلى جوار السائق وهو يصرخ في رجاله: «احشروا أنفسكم فيها واستعدوا بسلاحكم»، والتفت إلى السائق وهو يشير لحسن ليجاوره: «كن أنت بالمقدمة».

لمح حسن عادل وهو يصعد إلى أحد السيارتين من خلفه، وانطلقت سيارته بمن فيها، تتلوها الأخريان، تتأرجح بعنف بطريق متعرج يغطيه الحطام والزرع، وأمر العميد السائق والدور تتابع من جوار السيارة وصوت الإطلاق المتبادل يشتد: «أطفئ أنوارك»، وخرجت السيارات من ضيق الحارة إلى مساحة زراعية واسعة، تناثرت فيها الصخور، واقتربت التبة منهم حتى ميز فيها حسن ظلال الرجال المختبئة ودفقات النار والغبار المتصاعد، أخذ نفسًا عميقًا واشتد إمساكه بسلاحه، دمعت عيناه وهو يطبق أسنانه، كانت بنته ماثلة بعقله حتى في هذه اللحظة التي استطاع فيها أن يميز صوت دقات قلبه مختلطًا بآهات متقطعة رافقته كصدى صوت سمعه منذ كان بالحارة والرجال تتعثر في دمائها، خفضها محاولًا أن يتماسك، رأى يد العميد ممسكة برشاشه، متعرقة من كل مسامها لكنها ثابتة، رفع عينيه إليه فميز نظرة هائمة لم يتوقع أن يراها الآن فيه.

وهزت رعدة مفاجئة أعصاب العميد وهو يرى دفقات الرصاص ويسمع ارتطامها بجسد السيارة المعدني، كتم أنفاسه وهو يتأهب، ارتعش وهو يشعر بيد حبيبته تمس كفه وهمس لها: «لن أموت»، سمعها حسن فالتفت إليه مستطلعًا

قبل أن يشق الهواء بصوت صفير خيط دخان يشق المسافة بين التبة حتى سيارتهم، لم يره حسن إلا بلحظته الأخيرة قبل أن يصطدم، وبدهشة ممزوجة بالذعر رأى كلمات الدعاء التي نقشت على مقدمة الصاروخ وهو يمر أعلاهم ثم انفجرت مؤخرة السيارة بدوي هائل، وتوقفت دفعة واحدة فارتفعت مؤخرتها في الهواء مع صوت صرخة مكتومة وتمزق، سمعه وهو يفقد الشعور بجسده وكأنه خارجه بينما يطير لزجاج السيارة المحطم كاسرًا ما تبقى منه، صارخًا وجلده يتمزق مرتطمًا بمقدمتها المعدنية قبل أن يرتطم بالأرض منكفئًا بوجهه على الحصى الصغير ورائحة احتراق معدنية خبيثة تضرب أنفه الذي لوَّن نزفُه الأرض تحته.

عصفت بعقله دوامة عدم اتزان وهو يحاول أن يعتدل، عجز عن الحركة وألقي على ظهره، رفع رأسه بوهن فرآه..

العميد، واقفًا وكأنه يعرض نفسه، بيده رشاشه يضرب به باتجاه التبة، بتتابع منغم وكأنها إيقاع أغنية، رأى طلقاته وهي تثير الغبار عند العدو، سمع أصوات صراخ متألم واصطدام بالأرض، كان مشهده أسطوريًّا بينما يقترب بخطوات واثقة نحو العدو، بثياب نومه وقدميه الحافيتين والخوف الصفري في كل حركاته، والواقع أن برأسه بالفعل نغم لأغنية راب قديمة استعملها كإيقاع لطلقاته وهمس بها لنفسه مشجعًا كي لا يسقط.

الناس غوغاء

ما الغوغاء لملك؟

ما الملك للإله؟

ما الإله لغير مؤمن؟

لا يؤمن بشيء

وتحرك حسن، دفع يديه في الأرض وتوقف وهو يحاول أن يتنفس، ورغم الألم الذي يعصف به وجد يده تمتد إلى حزامه، ملأته راحة عجيبة وهو يتلمس المعدن الخشن لمقبض مسدسه، رفعه ومن دون إبطاء أطلق النار، طلقاته الأولى كانت عشوائية وكأنها إعلان عن بقائه، ثم ازداد وضوح رؤيته وغمره شعور بالنشوة وهو يسمع خطوات زملائه خارجين من السيارتين الأخريين، اقترب أكثر باتجاه عدوه متتبعًا خطوات العميد نفسه، استطاع أن يميز مواقع الرجال، رآهم وهم يتبادلونها متفادين الرصاص ومحتمين بسيقان الأشجار، ودوت صرخة حماسية من خلفه بينما يسقط جسد حامل قاذف الصواريخ من أعلى التل وسلاحه يرتطم بالصخور المتناثرة بدوي معدني منذر بالنهاية الدانية، وصرخ العميد دون أن يلتفت: «صاروخ يا عين»، قالها وهو يجري باتجاه التل، واضطرب حسن للحظة وهو يهم باللحاق به، ثم ارتطمت رصاصات متتابعة بالأرض أمامه حتى رأى غبارها أسفل قدميه وأفلتت منه صرخة وهو يتراجع للخلف بينما يركض من جواره جندي يحمل قاذف الصواريخ، سمعه يهمس: «سدد رميتي يا الله»، ثم رقص جسده برعشة ناعمة وهو يسقط على الأرض ميتًا إلى جوار حسن بطلقة في الرأس، حسن الذي مد ذراعه إليه ثم تراجع وهو يرى عينيه الميتة، يمد عنقه فيرى العميد أسفل التل يشير صائحًا من جديد: «صاروخ!»، والطلقات تتناثر من حوله، السيارات المحترقة وأنات المصابين والدوار

الـذي يتعـالى في رأسـه يجعلانـه أبطـأ لكنـه يمسـح عينيـه وهـو ينحنـي عـلى القـاذف، يرفعـه عـلى ظهـره محتميًـا بجسـد الميـت، ثـم يتوقـف مـرة واحـدة، ينظـر باتجـاه العميـد ويرفـع القـاذف أعـلاه ويضغـط فـلا يسـمع سـوى تكـة معدنيـة، ثـم يندفـع للخلـف ويشـعر بسـخونة لاهبـة أعـلى كتفـه ويسـقط القـاذف مـن يـده وشـعلة نـار عظيمـة تنبعـث بوسـط التـل تمامًـا وصـوت الرصـاص مـن خلفـه يتعـالى متقويًـا بنشـوة المنظـر.

في تلـك اللحظـة آمـن أن الله مـع العميـد كـما يقـول؛ لأنـه بـدا ملائكـي العظمـة وهـو يتسـلق التـل والجنـود تتبعـه، طلقاتـه أسـقطت الرجـال واحـدًا بعـد الآخـر وصيحـات السـباب التـي أطلقهـا أخرجـت بعضهـم مـن جحورهـم ليلتحمـوا بـه لكنـه اصطادهـم قبـل أن يصلـوه، بـدا وكأن الهزيمـة مسـتحيلة الآن لفريقـه للدرجـة التـي جعلتـه يحمـل سـلاحه مـن جديـد متغلبًـا عـلى خوفـه ويجـري باتجـاه العميـد ومـن معـه فـيرى أمامـه غـير بعيـد عـادل وهـو يطلـق الرصـاص هاتفًـا باسـم العميـد.

حين خرج العميد مرة ثانية من خيمته مرتديًا كامل زيه العسكري هذه المرة كان الفجر قد اقترب، وكان صفٌّ من قتلى الفرقة متراصًّا على الأرض، بأطوال متقاربة وأجساد نحيلة وملابس متشابهة، غير بعيد عنه كانت كومة من لحم قد تكونت من جثث متلاحمة وملابس لا يجمعها إلا الفقر، منهم المسن الملتحي والشاب الذي رأيت صوره ألف مرة في قتلى ثورات العرب، لحية نامية ونظرة الحلم في عينيه حتى بعد موته، وحتى بعض الأجساد بدت أقرب إلى الطفولة منها إلى البلوغ، تقدم العميد وسلاحه معه، وحين توقف رجاله انتباهًا أشار اليهم أن واصلوا العمل بينما أسند ظهره إلى جدار أحد الدور وعن يمينه حسن، وغير بعيد منهم كان الأسرى وحرسهم، بدأوا بأسيرين فقط كان العميد قد نزل بهما من التل، لكن عددهم ظل يزيد بينما تقوم الفرقة بالتفتيش بين الأشجار وفي الدور المهجورة حتى أصبح هناك الآن تسعة منهم ولا يزال البحث مستمرًّا، تسعة رجال قد عُروا بالكامل إمعانًا بإذلالهم، أخرجت السكاكين وشقت سراويلهم من عند العانة حتى ظهرها فسقطت بطريقة مضحكة بينما أكف وأقدام الجند تضرب المؤخرات والأقفية، سابين ولاعنين، والعميد ينظر ولا يعلق، لم يبدُ سعيدًا وهو يراه لكنه لم يمنعه، حتى حين اقترب أحد الجنود بسلاحه ودسه ببطء في فتحة شرج أحد الأسرى فصرخ مذعورًا وهو يستنجد بالله، وقف ينظر إليه ولم يعلق.

كان هذا دينه بالمعارك،

إما الهدنة والانصياع وإما عذاب لا سقف له،

لكنه لم يفهم لم هذا الهجوم الآن؟ كانت الهدنة أقرب من أي شيء آخر، زار أحد عملائه المقاتلين بالهضبة الصغرى وعرض عليهم شروطه وكانت موافقتهم مسألة وقت، هو نفسه وضع شروطًا مغرية أكثر من أي مرة أخرى؛ لأنه لم يرد أن يقاتل طويلًا بهذا المكان البائس. بدا أفقر وأكثر حزنًا من أن يتحمل مزيدًا من دم في وقت تخبو فيه آخر أعمدة دخان الحرب بهذا البلد.

ما أغرب ما حدث...

همس لنفسه.

أما حسن فقد توتر وهو ينظر للسلاح الذي ظل يغطس في الأسير، لم يفعلها؟ سأل نفسه، بدا الجندي متعرقًا وغاضبًا وهو يفلعها، لم يبد سعيدًا، لم ترتسم على وجهه ابتسامة رضا وهو يدفع السلاح ويسمع الصراخ، فقط تراجع وعلى وجهه نظرة حقد مشتتة، وخطا حسن نحوه، برفق جاد وضع يده على ذراع الرجل يوقفها، وعم صمت بين الجنود إلا من صراخ المعذب، رفع الجندي عينيه إلى حسن بثبات غاضب، التفت إلى العميد وكأنه يستشيره لكن العميد نظر إليه بلا تعبير، وسحب حسن يد الجندي للخلف ومعها سلاحه.

الجندي الذي ابتلع ماء حلقه وهو يرى بقع الدم الفاتح على جسم بندقيته، وارتعشت عيناه لثانية بينما اعوجت شفاه الغليظة وهو يتراجع للخلف والمعذب ينظر إليه بصمت متألم دامع.

وبدأ الجنود يلقون الأسرى على وجوههم في صف واحد، عراة وبلا حول، يتهامسون باسم الله في رعب، وسمع حسن أحدهم يصرخ بصوت مبحوح «والعنهم لعنًا كبيرًا» فارتعش جسده ببرودة مفاجئة.

عندها علا الضجيج من أطراف الحارة، «أسرى جدد»، همس العميد وهو يريح رأسه للخلف على الحائط وكأنه مل كل ذلك.

ظهر جنود فرقته محاصرين عددًا من الأهالي، تقدم قائد المجموعة وألقى بجوال احتوى الأسلحة التي وجدوها معهم عند قدمي العميد وتسارع الجنود يلتفون حولهم من أجل حفلة الترحيب الجديدة، وصاح صائح: «فتحت لنا طاقة القدر! هناك نساء أيضًا!!»، مد حسن رقبته مستطلعًا في غير تصديق بينما صوت الصفعات يتعالى، مشى باتجاههم، أبعد بيده بعض رجال عن طريقه وهو يقترب أكثر، رأى الجنود يدفعون الأسرى ليرقدوهم على وجوههم، ارتعش وهو يقترب أكثر مستطلعًا جسدًا واحدًا اندفن وجهه في الطين، جسدٌ رفع الجندي ذراعه عاليًا وضرب مؤخرته ضاحكًا بشهوانية بينما صاحبته تسبه متوعدة، واحترقت أعصابه وهو يميز الصوت، تساقط العرق على جبينه واضطرب تفكيره، دفع من أمامه بقوة حتى وصل، دفع ذراعيه في صدر الجندي الذي أراد أن يضربها من جديد، ركع على الأرض أمام جسدها المسجى، انحنى بجذعه حتى لامس وجهه الأرض، جاءته ريحة طينها مختلطًا بعرق المرأة، وفي الناحية البعيدة اعتدل العميد في وقفته وهو يراقبه

برهبة، وتلاقت عينا حسن التي دمعت من فورها بعيني المرأة الحانقة، لمح اختلاجة شفتيها فعرف أنها تذكرته، وفي عينيها رأى رضيعها ينظر إليه بسخط بريء، شملت صدره سخونة ملتهبة بالألم أجبرته أن يغلق عينيه فنزل منها دمع غزير، ولامست كتفه يد العميد وهو يسحبه للأعلى، وحين اقترب الجنود للهو بالأسرى أوقفهم بإشارة من يده ومسح جبهته وهو ينظر إلى حسن بصمت، كان قد عرفها في عينيه، تنهد وهو يلوي شفاه ويشيح بوجهه للبعيد، ثم صاح بالجنود: «أحسنوا ربط وثاقهم وأعدوهم ليرسلوا للعاصمة غدًا»، وعم صمت منذر، قطعه صوت جندي حاد: «منذ متى نأخذ أسرى من مهاجمينا؟! هؤلاء ليسوا أهالي، هؤلاء مجرمون قتلوا رفاقنا الليلة»، رفع العميد نظره للمتحدث، اقترب منه فتوتر الرجل واعتدل سريعًا في وقفة عسكرية ثابتة حتى وقف العميد أمامه ينظر إلى عينيه المترددة ويقول: «هل سألتك عن رأيك أيها الجندي؟».

ارتبك الشاب ودارت عيناه فيمن حوله بحثًا عن تأييد، والحق أن أعين جنود كثيرة كانت ما تزال منفعلة بغضب مكتوم، تشجع به الجندي وهو يقول: «لا تهاون في الدم يا سيدي، أنت من علمنا ذلك»، وابتسم العميد وهو يقول ساخرًا: «آها! اعتراض مشمول بالنفاق»، ثم غابت ابتسامته واشتعلت عيناه بغضب ودفع يديه في صدر الجندي يدفعه أمامه شادًّا على حلمتيه والآخر يضرب بقدميه الأرض مذعورًا حتى ارتطم ظهره بالحائط فانبعث منه تراب أحمر عكر وجه العميد وجعله أكثر وحشية وهو يمسك برأس

الجنـدي بكلتـا يديـه ويسـحبها للأمـام: «مـن دوني أنـا... لم تكـن لتحيـا لتـدور هـذه الأفـكار في رأسـك! كان دمك سـيختلط بدمهم أيهـا الدميـم»، قالهـا وهـو يدفـع الـرأس للخلـف فتـضرب الحائط وتـزوغ عينـا الجنـدي وصيحـة شـبه أنثويـة تخـرج مـن فمـه لكنهـا لم توقـف العميـد الـذي ضرب رأسـه مـرة ثانيـة، وثالثـة، حتـى سـقط الجنـدي عنـد قدميـه بـلا حـراك فرفـس رأسـه بحذائـه وهو ينظـر للجنـود حولـه ويصيـح: «غـدًا! يسـلم هـؤلاء الأسرى إلى القيـادة، ومعهـم هـذا الكلـب أيضًـا»، قالهـا وهـو يكتـم انفعالـه بينـما يمـر بجـوار حسـن الـذي وقـف مكانـه عنـد رأس المـرأة لا يتزحـزح فتباطـأت خطـوات العميـد وهـو يقـول دون أن يلتفـت إليـه: «احبـس المـرأة وحدهـا يـا حسـن، سـتكون مسـؤولًا عنهـا حتـى الصبـاح، لا أريـد أن يقـترب منهـا أحـد».

شـدد عـلى قبضتـه وهـو يقفـز باتجـاه خيمتـه، كاتمًـا غضبـه الـذي يكفـي ليحـرق الهضبتـين بمـن فيهـما، ألا يذكـر وعـده لزوجتـه ألا يضعـف فيمـوت؟ ألم يتعلـم أن يدعـس كل تلـك المشـاعر تحت حذائـه منـذ بـدأت هـذه الحرب؟ وربـما مـن قبلهـا حـين ماتـت امرأتـه؟ فلـماذا الآن؟

مـن أجـل قصـة لا تربطـه بهـا إلا مـا حـكاه حسـن لـه؟ صغـيرة لم يرهـا ومـرض خَبره مـن قبـل ويعلـم أنـه لا شـفاء منـه إلا المـوت؟!

هـي المـرة الأولى التـي لا يقتـل فيهـا أسرى مقاتليـه، كان جنديه عـلى حـق ولعلـه كان أكثـر رجالـه شـجاعة لكنـه هنـا والآن يفكـر مـن جديـد بالقصـة التـي حكاهـا حسـن، يرفـع رأسـه إلى صـورة بـن لادن وصغـيره في حضنـه، نعـم! هـؤلاء الأطفـال

هم فيروسات الحروب الخاصة وخللها الذي لا تسري عليه قوانينها، لا يسعه إلا أن يفسح المجال لحسن لينفذ عهده مع إله لا يؤمن بوجوده لكنه لن يمنعه منه، يجب أن يتركه، يجب أن يراه من جديد ويسمع الأخبار منه، أن ينتظر وينظر إن كان أي شيء سيتغير من أجل صغيرته تلك...

أم أن قصته ستتكرر مرة أخرى مؤكدة ألا إله لهذه الأرض.

أخفض رأسه ودعك عينيه وإلى جواره من مشغل الموسيقى كانت الأغاني.

بهدوء استمع وهو ينظر إلى الصورة الأخرى المعلقة إلى جوار ابن لادن في إطارها الخشبي الثمين.

الرجل الحليق،

أقراطه السوداء تزين أذنيه،

ونظرة غاضبة ملؤها الألم،

يغني بصوت لم يسمع العميد ما هو مثله من قبل أو بعد، مع فريقه الشهير لينكن بارك،

تشستر بيننجتون،

مغنيه الأثير،

وصديقه الخيالي منذ كان طفلًا،

ذلك الذي غنى منذ سنين طويلة أنه يفضل الموت على الحياة،

ولأنه رجل صادق، فعلها، في قمة مجده،

وعمره لم يتجاوز الأربعين إلا بقليل،

من حبل قوي في سقف غرفة جلوس كبيرة علق نفسه وانصرف منتحرًا،

تاركًا زوجة وستة أولاد،

ومحاطًا بهالة من قداسة،

يسمعه الآن يغني مرة جديدة،

تتداخل كلماته مع أنفاس زوجته التي ميز بحة صوتها المحببة فيها،

أغنية اسمها: «قرمزي»، وكأنها بقعة الدم الكئيبة في جسد صغيرة حسن،

أذكر حين كنت تقف في حموة الدمار

تنتظر على حافة المجهول

وكان الطوفان ينزل مطرًا

والكل يبكي له

أنقذني الآن

وأنت ترقب ذلك وحيدًا

مدد العميد جسده المتعب على الأرض،

ما يزال يؤلمه، لكن كل شيء سيزول بعد ساعات من الراحة، أغمض عينيه.

هكذا غاب في نعاس عميق، لم يوقظه منه إلا صوت الخطوات،

توقف...

ومشى خطوات إلى باب خيمته، أزاحها وهو ينظر

للخارج عند الدار القريبة التي أمر أن توضع المرأة فيها،

لمح الجسد المتعب وهو يتحرك، مستترًا بالظلام والصمت، يمشي من عند الحائط الطيني ويتوقف أمام الباب،

يتلفت حوله محتاطًا قبل أن يعالج الباب ويفتحه ويدخل،

لحظات لتعتاد عيناه الظلمة بالداخل،

ثم يمشي نحوها، يرى جسدها الساكن ويبهت وجهها في عينيه وضوء القمر العابر من فتحات الشباك يلف رأسها بدائرة ملائكية بيضاء، تسمع المرأة الأرضية الخشبية تهتز، ترفع رأسها باتجاه القادم، تراه في الظلام، بزيه العسكري وسلاحه في يده، تفتح فمها لتتكلم ودقات قلبها تتسارع لكنها تتوقف محاولة أن تحتمل، تغمض عينيها بحثًا عن صور أولادها والموت يقترب لكنها لا تستطيع إلا أن تسمع خطواته الحثيثة،

تسمع الرنين المعدني للسكين التي فتحت،

تهمس باسم الله وهي ترتجف،

وتنقطع الأحبال،

برفق،

وكأنها لن تؤذى،

يرتجف كفاها وببطء متردد تفتح عينيها فتميز وجهه،

قطرات العرق على جبينه وعيناه المرهقة،

يمتقع وجهها بنظرة غاضبة لحظية لكن عينيها تنفتح بدهشة والحبال تنفك عن جسدها،

«هيا بنا»، يقول لها حسن دون أن ينظر إلى وجهها،

«ماذا ستفعل بي؟» تسأله وهي تتوقف على قدميها غير مصدقة، تؤلمها ركبتاها فتغير وقفتها، يهز لها حسن رأسه ويقول: «سأخرجك من هنا»،

«أنت؟!» تهمس في غير تصديق، يعتدل في وقفته، يلقي الحبال على الأرض وينظر لها للمرة الأولى،

يمسح عرق توتره عن جبهته ويسأل بصوت مرتعش: «أين تريدين الذهاب؟» فتجيبه من فورها: «مريمة»، يهز رأسه وهو يتحرك أمامها منطلقًا نحو البوابة،

وتمشي خلفه في غير تصديق،

وعند خيمته يلمحهما وهما ينسابان في الظلام منحنيَّ الظهر، مبتعدين عن الحارة إلى السهل المفتوح،

وترمش عيناه وهو يقبض على قماش بابها بقوة،

يتذكر قول قائد الجيش آخر مرة رآه فيها،

«لديك ألف مرة لتخطئ قبل أن أفكر أن أبدأ بمحاسبتك»،

متعبًا يهمس: «ليكن هذا خطأي الأول»،

يقولها وهو يعود لخيمته ويغلق قماشها من خلفه.

كان بـراء الطفـل تامًّـا، أو شبه تـام، ذلـك أنـه بالليـالي المظلمـة حـين ينـام مـن حولـه كان يجلس وحـده ويتكلـم مثلـما اعتـاد أن يفعـل أيـام مرضـه، أصبحـت الخطرفـة غـير المفهومـة أنصـاف الجمـل والحـروف المتداخلـة، أصبحـت كلـمات تامـة وجمـلًا مفهومـة، يقولهـا واعيًـا وثابتًـا وكأنـه يحـادث كبـارًا لا يراهـم غـيره، بأفـكار كثـيرة وبعيـدة عـن عقلـه الصغـير وضحـكات متقطعـة تتخلـل حديثـه، كانـت أختـه تخـاف هـذه الحالـة، تتوقـف عـما تفعلـه وتنظـر لـه بفضـول قلـق بينـما تلاعـب الصغـير بنصف انتبـاه، أحيانًـا كانـت تذهـب إليـه تسـأله عـما كان يفعلـه أو مـا قيـل لـه، أمـا عبـد الله الـذي كان قـد اطمـأن لشـفائه فقـد خـاف أن تكـون الحمـى التـي لازمتـه حـين مـرض قـد أثـرت عـلى عقلـه واقـترب منـه ليسـمع مـا يقولـه أكثـر مـن مـرة حتـى عـرف أنـه يحـادث والديـه.

والحقيقـة أن الطفـل كان يراهمـا رأي العـين، جالسـين أمامـه في ثيـاب بسـيطة، متقاربـين دون أن يتلامسَـا، يبـدوان أصغـر في السـن. في كل مـرة يبـدوان أصغـر بقليـل عـن المـرة السـابقة، أمـه تنحـل أكثـر، يشـتد ابيضـاض وجههـا وضحكتهـا تبـدو أسـهل وأكثـر مرحًـا، وأبـوه تنحسـر اللحيـة عـن وجهـه مـرة بعـد مـرة حتـى عـاد أمـردًا، وفي المـرات الأخـيرة كانـت أمـه ترتـدي فسـاتين ملونـة ولا يغطـي رأسـها حجـاب وقـد اقـترب حجمهـا مـن حجمـه هـو، كانـا قـد اقتربَـا مـن سـنه، يتكلـمان بمـودة خالصـة ويخبرانـه بأشـياء غامضـة بأكثـر الأسـاليب بسـاطة فيفهـم، أخـبراه عـن أسـماء الموتـى مـن أهـل القريـة

الذين انطلقوا إلى الجنة وعن المعذبين، قالوا له إن بعضهم قد علق بين الجنة والنار فظل يدور في أحياء القرية معذبًا، قصًّا له تاريخ مريمة منذ الخليقة، هي إحدى القرى التي لم يمر بها طوفان نوح، ومثل ندَّاهة جلبت على نفسها المحاربين، رومان وفرسًا وفراعنة وعربًا، لكنها لم تستقر بالنهاية إلا لأهلها، أخبراه عن الصحابي العربي الذي جرحت يده حين ساعد جنوده ببناء أول جامع بها عند طرفها الغربي الذي تحده المقابر الجديدة اليوم، فنبتت بالبقعة التي سقط بها دمه ولامس الطين شجرة البلوط العظيمة الشاردة وحدها التي يطلق عليها أهل الهضبة «الجدة»، تلك التي دمرتها إحدى الغارات ببدايات الحرب، قالت له إن صحابة كُثر وشهداء ينتظرون الموتى من أهل هذه القرية بالماء والطيب والتمر المغموس بعسل اليمن، وأنه يقال بأن النبي نفسه سيخرج للقاء أحد رجالها قريبًا.

قالت له ضاحكة بأن هناك كنزًا يشير هلال المئذنة المكسورة إليه، مدفون تحت طبقات الطين من ألف عام مضت، وأنه الإشارة الأولى بأن الموتى سيعودون للحياة في أجساد رجال ونساء جدد.

هكذا استيقظ محمد مبكرًا صباح اليوم التالي، نشطًا جرى إلى أخته موقظًا وهو يصرخ فيها بأمر الكنز.

«دعيني أريك أين هو!»، صاح وهو يركض مبتعدًا بينما قامت يارا متضايقة ومسحت عينيها بتعب وهي تراه يقترب من المئذنة، يمد جذعه مستطيلًا محاولًا أن يمسها بأصابعه المفرودة، ثم ينظر إلى أسفل قدميه وهو يصيح «هنا أيها

القرصانة!»، دون انتظار ينحني على الأرض ويبدأ بالحفر، قامت ببطء ومشت إليه وهي تحاول أن تستفيق ثم انحنت وبدأت بالحفر معه، وفتح عبد الله عينيه ببطء، طفله بين ذراعيه وفي ضوء الصباح رآهما يعملان بكد وهما يتبادلان الحديث الخافت فضيق عينيه متسائلًا عما يفعلانه.

استمر الحفر طوال ساعات النهار الأولى، وحين جاءهما عبد الله وصحن الطعام بيده وابنه يجري بخطوات متعثرة لينضم إليهم، سألهما وهو يرى الحفرة التي أحدثاها بالطين: «ماذا تفعلان؟!»،

صاح محمد بانفعال: «نبحث عن كنز!»، ابتسم عبد الله على رغمه واقتربت القطة وطفلتها يشمشمان في الطين الذي أخرجاه مستطلعتان بينما عبد الله يسأل ملاطفًا: «أي كنز ذلك يا محمد؟»،

«كنز عظيم أخبرتني أمي أنه هنا»، نظر عبد الله إلى الصغير بحزن، غاصت ابتسامته وهو يقترب منه ويربت على كتفه قائلًا: «كل أولًا أنت وأختك ثم تابعَا البحث إن أردت»، وتعجب من غبار الطين الذي ينثرانه، كان معطرًا برائحة زكية باردة ذكرته برائحة العود في أرض الحرم حتى أنه تسمر مكانه لثوانٍ يحاول أن يشمها، قال لنفسه إنه لن يمنعهم عن لعب غير مؤذي وهو يبتعد، وقبل أذان الظهر بقليل وفي ثنايا الطين ظهر ما يشبه مقبضًا خشبيًّا غير مُتقَن النحت لكنه كان كافيًا لجعل يارا تصرخ بحماس ومحمد يقفز منتصرًا وهو يدور حول نفسه راقصًا وإسماعيل ينظر إليه محاولًا أن يقلده فيقع على ظهره ضاحكًا، استمروا بالحفر

حول المقبض وتوقف عبد الله وهو يحمل أوتادًا خشبية عن العمل ودق قلبه بتوتر وهو يرفع رأسه باتجاههم محاولًا أن يسمع ما يقولاه.

وتسارع الحفر حول المقبض، بدأ نصل خشبي بالظهور، مُشقَّقًا ومنقوشًا بحروف بهتت في الطين حتى بات من المستحيل تخمينها، وحين أخرجاه كاملًا بدا أقرب إلى جذع شجرة بسيط لكنه جعل الطفلين يصرخان محتفلين وهما يدوران الساحة به، واقترب عبد الله مبتسمًا وهو ينظر إليه، قديم وبال لكنه ما يزال قطعة واحدة كلعبة صنعت على عجل من أجل طفل يحتاج أن يلهو بأي شيء.

«ألا تناوله لي لأتفحصه؟» سألت يارا،

«لن يمسه غيري!»، صاح محمد وهو يتراجع عن أخته التي مدت إليه يدها طالبة أن تحمله والتفت محمد إلى عبد الله وهو يصيح «ولا حتى أنت!»، ضحك عبد الله وهو يرفع رأسه باتجاه سور الجامع مستطلعًا صوت الخطوات فرأى مجدي قادمًا باتجاههم وعيناه على الصغار، أسرعت إليه يارا واحتضنته طويلًا فانحنى يقبل رأسها وهو يمسح عليه بيده، ومشى إليه إسماعيل حتى وقف تحته ورفع ذراعيه نحوه وهو يقلد مواء القطط فضحك مجدي وهو يحمله محتضنًا ومقبلًا، ابتسم له عبد الله بصمت وهو يراقبه، بدا مسكينًا بشعره المنحسر ونظرة الانكسار التي كثيرًا ما تظهر بعينيه وترهل جسده، بدا هناك نُبل أصيل في تقاسيم وجهه التي لفتها لحية مهملة وندوب صغيرة، لكن ضحكاته كانت حقيقية مع هذه الأطفال، ومن دون تفكير ناوله محمد السيف وهو

يصيح: «انظر ماذا وجدنا يا خالي!»، تناوله مجدي منه، تفحصه سريعًا وهو يقول بجدية ملاعبة،

«ما أعظمه!!»،

«أخبرتني أمي بمكانه!»،

اتسعت ابتسامة مجدي وهو يربت خد الصغير وهمس: «حادثتهما أمس من جديد؟»،

«نعم، طوال الليل»،

ابتسم مجدي بتوتر ورفع رأسه إلى عبد الله وعيناه تتساءلان، فاقترب منه الأخير وهو يربت على ظهره قائلًا: «هو بخير، لا تقلق عليه»، هز مجدي رأسه وهو يغلق عينيه بتعب وقال:

«فعلت الكثير من أجله يا عبد الله، لولاك لكنت خسرته»،

ربت عبد الله على كتفه وهو يقول: «دواؤك كان سببًا بإنقاذ حياته، والتدبير كله كان من الله بالنهاية»، ونظر إليه بانتباه كمن تذكر وسأله: «من أين حصلت على هذا الدواء؟ وبمثل تاريخ الصلاحية هذا؟»، توتر مجدي لحظة وهو يتراجع للخلف خطوة، مبعدًا نظره عن عبد الله وأجاب: «كان صديق لي قد أرسله من العاصمة منذ فترة قريبة»،

«معجزة» قال عبد الله،

«سأعود بهم اليوم إلى داري» قال مجدي فهز عبد الله رأسه متفهمًا وعلاه ضيق لكنه لم يعترض.

من اعترض كانت يارا حين أخبرها خالها، وقفت أمامه متحدية وصرخت: «سنبقى هنا!»، أفلتت ابتسامة من الخال

وهـو يلامـس يدهـا بلطـف ويعـاود الـكلام لكنهـا قاطعتـه قائلـة: «تعـال أنـت وعـش هنـا معنـا إن أردت، لكننـا لـن نغـادر»، وجـرت مبتعـدة عنـه إلى أخيهـا، أمسـكته مـن ذراعـه وجرتـه إلى الخـال قائلـة لـه: «أخـبره بـما قالـت أمـي»، «عـن الكنـز؟» سـألها محتـارًا فأجابتـه بانفعـال: «عـن بقائنـا هنـا»، اتسـعت عينـاه فهـمًا ونظـر إلى خالـه وقـال بصـوت صـادق: «قالـت لي أمـي ألا نـترك المئذنـة بعـد الآن»، رفـع مجـدي يـده إلى الطفـل مقاطعًـا، أغمـض عينيـه بنفـاذ صـبر وقـال: «سـتعودان معـي إلى الـدار، هـذا أمـر لا نقـاش فيـه»،

«سـنهرب مـن جديـد ونـأتي إلى هنـا يـا خـالي» قالـت يـارا وعيناهـا تضجـان بدمـع مكتـوم، ونظـر مجـدي إلى عبـد الله كالمسـتغيث، فاقـترب منـه خطـوات وهـو يقـول لـه بهـدوء: «دعهـما معـي يـا مجـدي عـلى الأقـل الآن، همـا سـعيدان هنـا، وكذلـك ابنـي، والطعـام كثـير كـما تـرى».

وصمـت مجـدي، فابتسـم لـه عبـد الله وهـو يقـول: «كـما أننـي أحـب صحبتـك وأريـدك أن تـأتي هنـا كثـيرًا».

كانت بداية مريمة معسكرًا للمسلمين الأوائل، هكذا قال أهلها، قالوا بأن قلعة «كاف» التي وجدت عند جانبها الغربي، والتي لا تزال أطلالها الأخيرة مرابطة هناك رغم القصف، بنيت بأيدي العرب الفاتحين القادمين من جزيرة العرب، لكن الرسوم المنقوشة لحيوانات غريبة المظهر والوحوش الخرافية المحفورة جعلت كثيرين يعتقدون أن هذه القلعة أقدم من ذلك، حتى جاء الأثريون من أوروبا وحفروا أعوامًا عند القلعة وحواف الهضبة، وفي يوم لا ينسى أخرجوا آنيتين من ذهب على شكل نصفي دائرة تتكاملان بالالتصاق، عليهما نقوش باليونانية القديمة يجاورها رسوم متتابعة لامرأة لها وجه جميل وجسم ممتلئ، عارية تمامًا إلا من أوضاع جلوسها التي لا يمكن منها أن ترى فرجها، أما كل ما دون ذلك فمنظور، انبهر بها العالم الألماني الذي ظل يصيح باستثارة وهو يقلب الأثر الفريد بين يديه، أما مساعده العربي الذي درس بالخارج وجاء مع البعثة مترجمًا فعندما أمسك بالأثر ونظر إلى التصاوير فقد توارت ابتسامته، رغم النقوش البديعة واللغة البعيدة كانت تقاسيم المرأة عربية، جسدها الممتلئ عربيًّا، وحتى تلك الابتسامة اللعوب التي تشعل من يراها للوهلة الأولى، نظر إلى العينين متعمقًا فرأى النظرة المحتارة للمرأة وكأنها لا تفهم ما يحدث بها ولا تريده، نفس اللحظة التي كان يراها على بغايا البث المباشر على الإنترنت لبنات البلاد الفقيرة وهي تتعرى ناظرة بخوف للكاميرا، قلب الأثر بيديه، في كل رسم لها كانت

تلـك النظـرة حـاضرة، مشـحونة بخـوف وحـزن، قـرأ النقـش المحفـور عـلى الجوانـب، كان ممسـوحًا في أغلبـه إلا آخـر كلمتـين بجملــة طويلــة: «رحيــق الإنســان»، في تلــك الليلــة تناوبــت شـياطين الأرق عـلى هـذا الشـاب العـربي، مثلـت أمامـه المـرأة في كل لحظـة وكأنهـا حبيبتـه هـو، همسـت إليـه في أحلامـه القصـيرة: «أرجـوك اسـترني»، آمـن أن روحهـا هـي التـي تفعـل ذلـك، فتـح عينيــه في الظلمــة فــرأى مــلاكًا ينظــر إليــه منتظـرًا مــا ســيفعله بعينــين صابرتــين.

هكـذا دخـل مسـكن العـالم الألمـاني أثنـاء نومـه، سرق القطـع واختفـى تمامًـا مـن عالمنـا.

بالنهايـة، كان ذلـك الأُثـر الـذي اختفـى دليـل العلـماء أن هـذه القريـة قـد بـدأت قبـل مولـد المسـيح، وأن هـذه الأرض القادمـة مـن عـوالم تولكـين السـحرية أو التـي خلـق عوالمـه عـلى غرارهـا، لهـا تاريـخ غائـر لم يعـرف أكثـره بعـد.

مجموعـة متفرقـة مـن الهضـاب عـلى مسـاحة شاسـعة خـضراء، أغلـب هضابهـا صخريـة، برقـع ضيقـة لا تجعلهـا صالحـة للحيـاة، الاسـتثناء الوحيـد كان هضبـة مريمـة والهضبـة الصغـرى المواجهة لها .

تلـف كل تلـك الهضـاب والقبـاب الصخريـة أحـراش بريـة ومسـاحات هائلـة مـن الأشـجار العملاقـة والنباتـات البريـة بـما فيهـا مـن حيـوان وطـير وزواحـف، لم يتمكـن أهـل مريمـة مـن زراعتهـا لوعورتهـا وغرقهـا بالمـاء أيـام الفياضانـات التـي كانـت تحـدث مـرة أو مرتـين كل عـام، وخـسرت عائلـة البيطـار أغنـى عائـلات الهضبـة أمـوالًا كثـيرة اسـتثمرتها بهـا محاولـة أن تجنـي

المحاصيـل مـن ورائهـا.

في أيـام الحـرب وقبـل أن يخـرج الجنـد النظامـي مـن الهضبـة عـلى أيـدي الثـوار وفي محاولـة أخـيرة للانتقـام، قـام الجنـود بفتـح أبـواب سـجن مريمـة الوحيـد، لم يكـن السـجن مثـل باقـي سـجون الدولـة العملاقـة التـي يتزاحـم فيهـا السـجناء بالغـرف الضيقـة غـير قادريـن عـلى النـوم إلا بوضعيـات مثـيرة للأسـى، كان مجـرد بنايـة أقيمـت بطـرف الهضبـة مـن الناحيـة الشرقيـة، طـل عـلى الهضبـة الصغـرى والأحـراش مـن تحتهـا، كثـيرون لم يعلمـوا بوجـوده مـن الأصـل، لم تكـن بالقريـة مـن الأحـداث مـا يسـتأهل وجـوده بالأسـاس، كانـت مسـالمة إلى أقـصى حـد وكأنهـا ريـف منسي بنيوزلنـدا؛ لذلـك فـإن مـن شـذ عـن هـذا الطـور إلى الدرجـة التـي جعلتـه يدخـل ذلـك السـجن كان حثالـة حقيقيـة، حكاياتهـم تثـير الرعـب في نفـوس الرجـال والنسـاء، رجـل اغتصـب عمـة لـه لأيـام قبـل أن يقتلهـا ويـسرق مالهـا ليعـود إلى داره، وكأن شـيئًا لم يحـدث، تلـك العمـة التـي وجـدوا جثتهـا ملقـاة بحـمام النسـاء بأحـد الجوامـع، آخـر أصابتـه لوثـة جعلتـه يعتقـد أن صديقـه الـذي كان دائـم الزيـارة لـه مـع أسرتـه قـد لـوث مقعـد حـمام داره بمنيـه أثنـاء زياراتـه وأن ذلـك المنـي قـد دخـل جـوف زوجتـه فحملـت أولادهـا بـه، قـام هـذا الرجـل بعمليـات حسـابية معقـدة وهلاميـة لحسـاب أيـام زيـارة صديقـه ومقارنتهـا بأعـمار أولاده وعددهـم وتواريـخ حملهـم، ثـم حمـل سـكينًا نظيفًـا كان اشـتراه مـن الشـارع التجـاري ولم يسـتعمله قـط، ومـن دون تـردد دفعـه في عنـق أكـبر أولاده، أثـار صـوت اخـتراق اللحـم جنونـه ومـلأه بغضـب أزعجـه فألقـى بالسـكين

الملـوث عـلى الأرض وخنـق ابنـه الثـاني ثـم زوجتـه ولم تنـج منـه إلا صغيرتـه التـي كانـت قبلهـا قـد بكـت لتبيـت عنـد جدتهـا تلـك الليلـة فلـم يجدهـا بـداره.

آخـر كان أهـل القريـة يسـمونه البولـدج؛ لأنـه اشـتهر بمسـيره بأنحاءهـا وفي يـده حقيبـة طعـام حيوانـات عـالي التكلفـة طبـع عليهـا صـور قطـط صغـيرة، كان طعامًـا يسـتورد خصيصًـا لهـم، لـه رائحـة نفـاذة وطعـم لا يسـتطيعون مقاومتـه، يضـع منـه في المواطـن التـي يعتقـد أن القطـط قـد تكـون قريبـة منهـا، تطـير الرائحـة في الحـارات وعنـد البنايـات القديمـة وأسـفل السـيارات فتجـري القطـط خلفهـا، كانـت تصـل إليـه خجـلى في البدايـة، يعتريهـا خـوف غريـزي يجعلهـا تـدور حـول الطعـام متباعـدة عنـه، ثـم لا تلبـث أن تشـتمه وتبـدأ بالالتهـام مـن دون ضجيـج، حينهـا كان يخطـو ببـطء مـن خلفهـا، ينظـر إليهـا، يختـار إحداهـا ويدفـع يـده بسرعـة ممسـكًا بهـا مـن قفاهـا، مسـكة أمهـا لهـا وهـي صغـيرة، المسـكة الوحيـدة التـي تشـل جسـد أي قـط لهـا وتعجـزه عـن الحركـة، يبتعـد قليـلًا عـن القطـط الباقيـة ثـم يطبـق قبضتـه المعروقـة عـلى رأس القطـة ويديرهـا مخـدرًا بنشـوة سـماع طقطقـة عظـام الرقبـة التـي تتحطـم بـين يديـه قبـل أن يلقيهـا أرضًـا ميتـة.

تحـدث معـه إمـام القريـة مـن قبـل فأجابـه بـأن الله قـد خلـق هـذه القطـط هبـة للإنسـان، وأنـه مـن النـاس مـن يسـتمتع بالربـت عـلى فروهـا وملاعبتهـا، لكـن غـيره يسـتمتع بصـوت الطقطقـة السـاحر، ومـا دام الإنسـان بخـير فـلا شيء آخـر يهـم، خـاف الإمـام حينهـا مـن نظرتـه المجنونـة وقطـرات اللعـاب التـي انسـابت عـلى شـفتيه بينـما يتحـدث بسرعـة، لكـن هـذا البولـدج

نفسه وفي إحدى مغامراته تلك قتل ثلاث قطط متتابعة، كانت ولدة جديدة لم يتجاوز عمرها الشهر، يمشون متتابعين خلف أمهم وكانوا جوعى بحق حتى أن الأم ظلت تدور حوله في حلقات متمسحة وهي تشم رائحة الطعام، أمامها وضع الطبق فدست رأسها فيه ثم تجمع الصغار بسرعة يشاركونها الطعام، مد يده وتناول إحداها، للحظة رفعت الأم رأسها وهي تسمع صوت الطقطقة لكنها لم تفهم، ثم قتل الثاني وإلى جوار الطعام أرقدها أمامها، اقتربت الأم ببطء، اشتمت الصغار وماءت وهي تحاول أن تحركها، لعقتها طويلًا في غير فهم وهي تموء ناظرة له مستنجدة، حينها مد يده وتلقف قطًّا آخر من الثلاثة المتبقين واقترب من أمه وأدار رأسه مثل رسومات الشياطين القديمة، قفزت الأم على الصغير فضرب رأسها بكفه وهو يلقيه عليها وفي تلك اللحظة صرخت طفلة صغيرة وهي ترى القطط الميتة وكانت تطعمهم في أحيان كثيرة، لاهثًا سيقول البولدج أنه حين رأى الطفلة خيل إليه أنها مجرد قطة أخرى وأنه حين قتلها لم يشعر أنها إنسان.

هؤلاء وغيرهم هربوا أيام الثورة، ولأن أهل القرية كانوا مسلحين في ذلك الوقت وعلى علم بقصصهم واحدًا واحدًا، فقد قرروا قتلهم أو إعادة حبسهم، هكذا فروا إلى الأحراش بين الهضاب وتحصنوا بها.

وبدأت حوادث متتابعة في الظهور، سرقات محال، سرقات مواش، بل إن نساء اختفين، حتى أن أهل القرية نظموا دوريات تدور بحدود القرية بالليل واستطاعوا الإمساك

ببعضهـم وقتلـه، ثـم مـا لبثـت رحـى الحـرب أن تسـارعت وانتـشر الدمـار والقتـل إلى الحـد الـذي لم يعـد فيـه يشـعر بأشـياء صغـيرة مثـل السرقـة.

في تلـك الأحـراش التـي أصبحـت مـأوى لمـن لا مـأوى لـه دخـل حسـن ورفيقتـه، تتكـسر أوراق شـجر جافـة تحـت أقدامهـما، يتبينـان طريقهـما بالظـلام بكشـاف يرفعـه أمامـه.

تراقصـت الموجـودات بينـما يهتـز ذراعـه الممسـك بـه، بـدت الأشـجار كرجـال تتباعـد بحـذر، والهـواء المشـحون بالحـشرات وذرات الـتراب الدقيقـة كبقايـا قهـوة تتسـاقط ببـطء إلى قـاع كـوب شـفاف، لكـن الاثنـين، الرجـل والمـرأة لم يهابـا، كلاهمـا كان مفجوعًـا بصدمـة خطـت فـوق المـوت وألقتهـم في عـالم بـلا خـوف.

حـين كانـت المـرأة تنظـر إلى حسـن السـائر أمامهـا تتملكهـا حـيرة تجعلهـا تتسـاءل لم فعـل ذلـك؟ والله لـو كان رضيعهـا الآن بـين يديهـا وأطفالهـا مـن خلفهـا لكانت ارتمـت عنـد قدميـه مقبلة، لكنهـا الآن وحدهـا وسـتظل كذلـك دائـمًا، أمـا حسـن نفسـه فـكان متعبًـا، يسـير متحامـلًا، إصابـات جسـده تؤلمـه وجـروح المواجهـة تحرقـه، يشـعر وكأنـه يسـير فـوق نطاطـة أطفـال تدفعـه في الهـواء في كل قفـزة وهـو يعـبر حافـة الهضبـة الصغـرى نـزولًا، بقعـة سـيئة السـمعة، تنتـشر فيهـا جحـور الثعابـين، مـات عندهـا أطفـال عائـلات كثـيرة قرصتهـم حيـات وهـم يبحثـون عـن كـرة ضائعـة أو يلعبـون الغميضـة، لكنهـما قطعاهـا دون إبطـاء، لم ينظـرا أسـفل أقدامهـما ولـو فعـلا لارتعبـا، بإشـفاق سـمع حسـن لهـاث المـرأة وصـوت أناتهـا الـذي تكتمـه، تبـدى صوتهـا لـه كطفلـة

رقيقة حتى أنه تساءل كيف فعل ما فعل بها من قبل؟!
وحين قطعا المنحدر توقف الاثنان ينهجان بأنفاس سريعة، لمحتها عيناه وهي تحاول أن تظل متماسكة، ترتدي ثوبًا رياضيًّا قديمًا يعود لرجل، ألوانه زاهية، زرقاء تتداخل فيها خطوط صفر، لمح حذاءها الذي حال لونه وحين تحركت قدمها رآها وهي تسبح فيه وهو يعوج باتساع رهيب، كيف لا ينخلع؟ رآها مرات وهي تتلفت حولها، تبلل شفاهها بين الفنية والأخرى فعلم أنها عطشى، بسرعة أخرج زمزمية من حقيبة ظهره الصغيرة وناولها لها، «لا...» قالتها وهي ترفع كفها رافضة وتبدأ بالحركة فاتبعها وهو يربط زمزميته إلى حزامه، وعلى ضوء كشافه استطاع أن يرى ذيل شعرها الذي عبر حجابها واستطال حتى لامس أسفل ظهرها، سقط النور عليه فبدى وكأنه يعكسه مضاعفًا.

وأخذ خطوات سريعة ليتقدمها،

سأل نفسه متى أُخبرها؟

متى أحكي قصتي وأطلب العفو؟

أنار كشافه الحشائش تحته، تتابعت أسفل قدميه ومع تعبه وصوت تزحزح الحصى تحت قدميه وفي لحظة سحرية أصبحت تلك الحشائش المتداخلة بساتين أشجار، وأصبح هو طائرًا يراها من الأعلى أو طائرة درون تقترب ببطء للأسفل، تعبر الأجواء إلى الحصى الذي أصبح بيوتًا والطين الذي خلق الشوارع، شوارع حيه هو، اقترب للأسفل أكثر حتى ميز حيه بأشجار الليمون التي ترابط فيه، من نافذة غرفة الصغيرة دخل، كانت الظلمة حالكة لم تنفع معها

الملصقات الفوسفورية لكنه شعر وكأنه يتوحد معها في جسد واحد، يشعر بألمها مفصلًا، سخونة جسدها والإعياء في كل خلية فيه، انقباضات بطنها الصغير وصداعها الضاغط وألم نابض خلف مخها، جلدها ينبض بحرقان متعب والدم يسري في العروق محتكًّا بصفير غير مسموع، وسمع الخلايا الخبيثة وهي تتحرك فيه وتغني...

بوم بوم بوم بوم
سآكلها كلها

بوم بوم بوم بوم
سأدخل حتى عظامها

أغلق عينيه بقوة، هز رأسه وهو يهمس «أعوذ بالله !»، سمعته المرأة فرفعت رأسها إليه، للحظة أشفقت وهي ترى انحناءة ظهره المسكينة وارتعاشة يديه، وتباطأت خطواته دون وعي حتى سار بحذاها.

وببطء سرى صوت زقزقة ما لبث أن زاد بأصوات طيور متداخلة، كان الصبح يقترب..

وهمست المرأة تكلمه للمرة الأولى...

«لماذا؟».

ارتعش لحظة، التفت إليها بجميع جسده، في بدايات النور لمح دمع عينيها الخضراوان وسمع تهدج صوتها مختلطًا بأنفاسها المرهقة..

«لماذا؟» قالتها وشفتاها تعوجان بألم وارتعاشته تزداد بينما تتكلم . .

«حين رأيتك ذلك اليوم، ميزت نظرة عينيك وأنت تقترب، كنت مختلفًا عن كل من حولي، كنت مترددًا، لمحتك مرتين أو ثلاث وأنت تنظر إلى رضيعي مشفقًا، خائفًا عليه، سمعتَ كلامي وأنا أتوسل من أجله، قال لي قلبي أنك منقذه، ربما تأخذه من بين يدي وتخرج به مسعفًا، ربما تهرب به، ربما حتى تخرج سلاحك وتقضي علينا معًا رحمة بنا، ستفعل شيئًا ما من أجله، لكنك تخطيته وهو يصرخ على الأرض، ولمست لمستك الوسخة تلك وكأنك تبارك ما سيفعلونه بعد ذلك».

ارتعشت شفتا حسن وازدادت حرارة جسده وتوقف تمامًا وهو يقف أمامها بلا كلمة وهزت هي رأسها وهي تنظر له بحزن قبل أن تلتفت عنه وتكمل مسيرها.

وسألت الله في حيرة «ماذا سأفعل بحياتي الآن؟»، تباطأت لحظة وهي تسمع حذاءها القديم يدوس أرضًا مبللة، خفضت رأسها فرأت خيط ماء دقيق ينساب تحتها بين الصخور، ماء رقراقًا، يلتمع فيما حضر من ضوء الشمس، انحنت دون انتظار تشرب منه وهي تمسح دمعها، شهقت بخفوت وهي تعب الماء، كان أنقى من أي شيء شربته من قبل حتى أنها تمالكت نفسها بصعوبة من أن تنادي على حسن ليجرب.

وتحولت بسرعة الأماكن التي يقطعونها بطريقهم إلى مريمة، تغيرت روائح الورد البري الزكية والريح اللطيفة الباردة إلى رائحة عطنة ثقيلة يصعب أن تتنفس فيها والأشجار تتكاثف وتتلاقى أغصانها عاليا مانعة أي ضوء، وتعرق حسن

من إبطيه وأعلى بطنه وهو يدفع عن طريقهم أغصانًا لا تنتهي وتحرقت عيناه والتهب جلد وجهه من الأشواك والأوراق الخشنة وشق عليه في مأساته الخاصة تلك أن يلتفت كل حين مطمئنًا إلى المرأة، فاكتفى بسماع صوت خطواتها الرتيبة تتابع من خلفه، وتساءل في حيرة كيف يظن العميد والسابقون له أن بإمكانهم اختراق هذه الأحراش برجالهم وعتادهم ومركباتهم الضخمة؟ يستحيل أخذ هذه الأرض عنوة.

والحق أن البلاد مثل العباد حتى أنك لتتساءل إن كان الله قد ضمن تضاريس الأرض في أشكال الحياة الأخرى التي خلق جينات بالإنسان على صفتها، مثلما فعل بالحيوان من قبل، فالرجال المرتخية الجبانة تعيش طويلًا أيام المحن والحروب مثل أرض وادٍ نيلي منبسط بلا جبال ولا تضاريس خطرة، يستقبل أهلها كل قادم بلا مقاومة متحصنين بثخانة جلودهم وفتور همة استمرؤوه من أجيال سابقة، أما أهل البلاد الجبلية ووديان الصخور والأراضي الصحراوية المقفرة، فهؤلاء لا بد لهم أن يَهلكوا أو يُهلكوا في حروبهم، ولا يمكن ترويضهم، ولا تلبث بلادهم أن تفور من جديد.

ولذلك تقصف بلادنا الحرة بأطنان الحديد والنار حتى تنصهر في كل حروبنا إلا ما ندر، وتترك ودياننا الناعمة بمن فيها من كسالى حية حتى في وقت الحروب.

وانفلتت نهنهة باكية دون سابق إنذار، سمعها حسن بوضوح فالتفت سريعًا إلى المرأة التي رفعت إليه وجهها المتعب، لم تكن هي صاحبة الصوت.

ضغطت أصابعه على سلاحه بجرابه وهو يتلفت حوله

بقلـق وهمـس متسـائلًا: «هـل سـمعت شـيئًا؟»

هـزت رأسـها نفيًـا وهـي تمسـح عرقًـا عـن جبينهـا الـذي التصـق حجابهـا بـه، لكـن صـوت النهنهـة تعـالى مـن جديـد يتبعـه صـوت تحطـم أوراق جافـة مـا لبـث أن ابتعـد فقالـت وهـي تتلفـت حولهـا :

«لعلـه قـرد»، وتحركـت مبتعـدة وهـي تكمـل «قـد اقتربنـا عـلى كل حـال، يمكنـك أن تعـود إن أردت»، وفكـر حسـن أنـه مخبرهـا عـما قريـب، لا بـد أن يفعـل، لم يعـد هنـاك متسـع مـن وقـت لأنـه لـن يدخـل معهـا مريمـة، سـيخرج هاتفـه، سـيريها صـورة ابنتـه وهـو يحكـي قصتهـا، سـيختار أكثـر صورهـا عذوبـة، وحدهـا وهـي تلعـب بجـوار أشـجار الليمـون وشـعرها الطويـل ينسـدل عـلى عينيهـا، سـيعتذر ألـف مـرة ويطلـب الصفـح حتـى تغفـر لـه، وحـين تفعـل سـينطلق رأسًـا إلى ابنتـه، لـن يمـر بكتيبتـه ولـن يضيـع لحظـة أخـرى بعيـدًا عنهـا، سـيطمئن أنهـا بخـير ثـم ليكـن مـا يكـون.

سـارع خطواتـه مقتربًـا منهـا، فكـر كيـف يبـدأ كلامـه، ثـم اخـترق الفـراغ صـوت سـقوط مهيـب، محـاطٌ بـأوراق الشـجر المتباعـدة ومتعاليًـا في كل لحظـة، رفـع حسـن رأسـه فانفتحـت عينـاه بدهشـة مرتعبـة وهـو ينظـر الصخـرة العظيمـة التـي تندفـع نحـوه، تسـمر مكانـه والأدرينالـين يباطـئ حركـة الصخـرة في عقلـه ويباعـد الثـواني لتصبـح دقائـق كاملـة ميـز فيهـا التجاويـف الغائـرة في جسـم الصخـرة التـي أخطـأت رأسـه بسـنتيمترات قليلـة محطمـة كتفـه بطرقعـة مكتومـة.

صرخ مـن الألم وهـو يسـقط أرضًـا معهـا، مرتطـمًا بالطـين وألم

صاعق يكتسح كتفه منتشرًا حتى أصابع كفه وأعلى رقبته، عض شفتيه محاولًا أن يبقي عينيه مفتوحة وهو يرى الظل القافز نحوه وصراخ رفيقته يرتفع من جواره، التف على نفسه على الأرض دون انتظار، دمعت عيناه ألمًا وهو يدفع نفسه بعيدًا عن الطين وانفلتت منه صرخة أخرى وأعصاب ذراعه تحترق بالألم وجسد نحيل يدب على الأرض جواره، وصلته رائحته قبل أن يراه، تعرق عطن مختلط برائحة غائط خبيثة، وفي اللحظة التالية وهو يحاول أن يستقيم في وقفته التقت عيناه بيعيني الرجل، رأى أوردة الدم الدقيقة الغائرة في بياضها محاطة بالصديد الأصفر عند أطرافها، منفتحة بنظرة مجنونة لوجه تحيط به لحية شعثاء وشعر رأس عظيم، طويلة مثل مجانين الأزقة، خشنًا تتداخل ألوانه الرمادية والسوداء مع بقايا الطين فيه وتحت الأنف النحيف كانت الأسنان البيضاء قابضة على سكين مطبخ قديم ملطخ بدم جاف، لم ينتظر ثانية أخرى، فزع من مكانه متحاملًا على ألمه، مد ذراعيه الاثنتين إلى صاحبته المذعورة ساحبًا إياها وهو يجري مبتعدًا، وصرخ الصوت من خلفه «اتركها وانج!»، ضعيفًا جاء، وغير خشن وكأنه صوت موظف حكومي خامل، مخنوقًا بلزوجة لعابية لرجل بدا وكأنه لم ينطق منذ سنوات، أسرع حسن في جريته وهو يدفع المرأة أمامه، شعر بها تتباطأ وهي تلتفت خلفها بهلع، فصرخ فيها وهو يضع يديه في ظهرها دافعًا بقوة: «توقفي عن التلفت!»، وتنبه عقله إلى ذكرى قديمة لصورة رآها يومًا مكتوبة بخط كوفي منمق نقش فيها: «ملتفت لا يصل» قبل أن تغيب مدفونة من

جديد في باطن عقله وهو يشعر بجسدها يستجيب وبخطواتها تتسارع، وامتدت من جواره ذراع عارية، عبرته قابضة على قماش ثياب المرأة التي صرخت وهي تنسحب للخلف دفعة واحدة مرتطمة بجسد حسن وشعرها يلفح وجهه وهو يفقد توازنه محاولًا أن يلتف على نفسه معها وانزلقت قدماه على الطين وهو يسقط بدوي عالٍ ورأسه مرفوعة للأعلى ينظر إليها وهي بين يدي الرجل الذي يسحبها وهو يقول كأنه يبكي:

«تعالي معي! تعالي! تعالي يا امرأة!»، تضرب بذراعيها بجنون في كل اتجاه والآخر وكأنه لا يشعر بجسده من الأصل، كان عظامًا يغطيها جلد باهت لم ير الشمس منذ زمن، توقف بصعوبة محاولًا ألا يتعثر وهو يندفع وذراعاه ممتدتان أمامه دافعًا الرجل عنها، ساقطًا معه على الأرض، من دون انتظار وبطريقة بهيمية خالصة دفع الرجل سكينه في جسم حسن، استطاعَا سماع صوت اللحم المخترق، ساخنًا وعميقًا وصرخ حسن والسكين ينفلت منه قبل أن يخترقه مرة ثانية، وانفتحت عيناه بذعر وهو يفكر بدهشة أنه لا يعرف أين طعن مرتين ودون تفكير وجد نفسه يدفن أسنانه في وجه خصمه ويعض وكأنه يلتهم، صرخ الرجل بشراسة وتدفق دم دافئ على شفتي حسن الذي اشتم أقذر وأخبث رائحة تنفس بحياته وكأنها خراء معتق، اهتاج بجنون اللحظة فأطبق أسنانه عن آخرها وتمزقت قطعة لحم من خد الرجل في فمه، لينة، معدنية الطعم، سمع الصراخ الباكي المجنون: «يا ابن الحرام!!»، رفع رأسه وبصق وهو يقترب من رقبته

وشعر بالسكين يغادر جسده من جديد فاستعد لطعنة جديدة، لا يهم ما يفعل لأني سأقتله الآن، هكذا فكر قبل أن تسحبه يداها من الخلف وهي تصرخ فيه، عاد إليه بعض وعيه فانزاح بجسده في اللحظة التي مرق فيها السكين إلى جواره، ورفع حسن رأسه للخلف ما استطاع ثم هوى كجبل منهار على أنف الرجل، جاءه صوت تهتك العظام الدقيقة والغضاريف والصرخة الملتاعة لرجل انكتم أنفه بما فيه، وانثنى الرجل على نفسه باكيًا وهو يصرخ مرددًا بإصرار عجيب: «اترك المرأة، الآن ... اتركها واذهب»، وقام حسن وهو يتراجع للخلف وذعره يعاوده، التف ممسكًا بيدها وركضَا مبتعدين.

وعند التفاتته الأخيرة ضربه ذعر حيواني وهو يرى الرجل يقوم من جديد وكأنه يستيقظ من نومة مريحة، ينظر نحوهما ثم ينطلق راكضًا، بسرعة خرافية، وحسن يشعر بقدميه تلينان وكأنه محرك سيارة انقضى عزمه ووجب تغييره حتى أن رفيقته شدته بقوة وهي تحثه على الركض أسرع، كان الرجل يأكل المسافة أكلًا مقتربًا كالريح، دق قلب حسن بعنف، أخفض رأسه فرأى بقعتي الدم تتسعان أعلى فخذه وأسفل بطنه التي بدأت أعصاب أنسجتها تطلق نيران الألم إلى عقله حتى كاد أن يسقط، كان باستطاعته الآن أن يسمع أنفاس المهاجم، سيقتله هذا المجنون ويحظى بها، لا يمكن الفوز على رجل بلا قلب مثله، وفي لحظة عبثية وبينما يتباطأ ركضه وتخور قواه سمع صوت ضرطة من خلفه، ضرطة طويلة، متقنة ومشبعة انفلتت بين فخذي المجنون

الراكـض، أفلتـت ضحكـة مـن حسـن مـا لبثـت أن تحولـت إلى حنـق عظيـم، شـعر بنفسـه مـن جديـد، كبـيرًا وقـادرًا، اسـتمتع بغضبـه وهـو يلتـف أمـام عينـي صاحبتـه المندهشـتين، أفلـت يـده مـن بـين أصابعهـا وهـو يسـتقبل مهاجمـه متلمسًـا طريـق سـلاحه الـذي أنسـاه الذعـر وجـوده، يتحفـز مواجهًـا الرجـل الـذي قفـز عليـه قاطعًـا المسـافة بينهـما، ينطـرح أرضًـا معـه ومـن بـين أنفاسـه اللاهثـة همـس فتبعثـرت نـدف الـدم عـلى وجـه حسـن، «اتـرك المـرأة لي» قالهـا وهـو يرجـع ذراعـه للخلـف بسـكينه مـن أجـل ضربـة أخـيرة.

وصرخـت الطيـور هاربـة وصـوت طلقـة فاجـر يـدوِّي في المـكان، وكأنهـا صرخـة وحـش بحـري داخـل مكتبـة هادئـة، انفتحـت عينـا الرجـل في ذعـر مندهـش، وهـو يرفعهـا مـن فـوق حسـن إلى وجههـا ويهمـس بـما لم يسـمعه أحـد قبـل أن يسـقط وجهـه فـوق وجـه حسـن، ملوثًـا إيـاه بالدمـع والـدم واللحـم العـاري، دفعـه حسـن عنـه بصعوبـة ثـم التفـت إلى جانبـه وتقيَّـأ طويـلًا حتـى كاد يدفـع أمعـاءه خـارج فمـه، كان جسـده يرتعـش بسـخونة محمومـة والغابـة تميـد مـن حولـه وظـلام دامـس يقـترب منـه.

وغاب..

في سبات عميق..

صوت أنفاس هادئة..

وزفرة هامسة..

وكأنه رجل يتوجع..

كان جالسًا أمامه بهدوء..

في قميص طويل من ثياب العرب القديمة القادمة من بلاد الشام..

شعر غزير فاحم، لحية عظيمة سوداء إلا من شعرات بيضاء متفرقة أسفل شفاه..

ورائحة مسك..

ما أجمل وجهه!

يبتسم؟ أم هي نظرة مريرة حزينة؟

جلسته الوقورة لا تتزحزح،

وعيناه تحدقان إلى حسن ولا تتركانه لحظة،

من خلفه الكسوة السوداء التي صنعها الملوك..

لكن نقوشها متغيرة،

ما أكثر من نقش اسمه على هذه الكسوة فخرًا وهو ملعون،

بين يدي الرجل كان غصن شجرة طويل، ميز أصابعه وهي تتحرك عليه،

ورأى الدعاء على شفتيه،

خرج من غير صوت، لكن حروف الكلمات تكونت من فمه وطارت حتى وصلت حسن،

ودخلت جوفه.

بخطوات ثقيلة تميزه كما يميزه برطمان الشاي الذي يمشي حاملًا إياه في كل مكان، تقدم حمزة بطرقات مريمة، من أطرافها الجنوبية حيث يسكن إلى أوسطها؛ حيث احتُجز الأسير بأحد الدور الخالية محاطًا بالحرس.

على خلاف كل أمراء الحرب بهذه القرية وما حولها لم يُحِط نفسه بالحرس أثناء تحركاته، جربها عدة مرات عندما تولى الأمر، ثم ومثل كل شيء بحياته، التي يشعر أنها مجرد خواء، ملَّ الأمر ورفض صحبتهم مبررًا الأمر لنفسه ولباقي القادة الذين يأتمرون به بأن هذا أكثر أمنًا؛ لأن كل العرب المؤثرين قتلوا وسط أنصارهم، محاطين بحرسهم.

بسبب هذا ربما، وبسبب غيره من الصفات فيه، استدام حكمه لهذه الهضبة، مع أنه لم يكن يومًا ثائرًا، ولم يحمل السلاح ويقاتل ولم يحضر اجتماعات الثوار أو يسمع عنهم.

ربما استبقوه قائدًا لهذه الهضبة؛ لأنهم لم يشعروا أنه منافس، والحق أنه منذ جاء كُفَّت النزاعات بين المجموعات واستطاع أن يوقف التناحر بينهم على القيادة.

لم يكن حمزة معروفًا لأهل قريته، كان ظلًا، عرف عنه أنه الرجل الذي يكتب الكتب التي لا يقرؤها أحد، كتب في المواضيع الباهتة التي فرمها عصرنا بلا رحمة ولم يعد يفكر فيها أحد، كتب عن اللغة العربية وعلاقتها بتكوين الإنسان، عن تطور العلوم أيام المماليك، وعن أحزان الحاكم بأمر الله الخفية ورؤيته المختلفة للحياة ورحلته الحزينة فيها وكأنه إخناتون جديد.

عن تلك الأمور كتب، طبعت بعض العناوين وانتهى بها

الحال إلى مئات الكتب المغلفة ذات العنوان المكرر، تتراص مستندة إلى حوائط المنزل القديم الذي ورثه عن أمه، في صفوف طويلة وكأنها ناطحات سحاب ورقية.

ذلك الفعل الدقيق الذي كان يفعله، الجحر الضيق الذي أوجده لنفسه في تضاريس الحياة القاتمة، كان هو الجدار الذي يبقي عقله سليمًا ويمنعه من أن يضيع؛ لأنه حين بدأت الحرب وانهار الأمل وأصبح الحديث لا يدور حول اللغة أو أحزان الملوك القديمة، بل عن الحياة نفسها وإمكانية الاستمرار فيها، فقط يدور عن الغذاء الشحيح والماء الملوث وبقايا الأدوية التي مضت فترات صلاحيتها من شهور، حينها ترك قلمه وكف بحثه وتوقف عقله عن التساؤل القلق، ومنع نفسه من شراء الكتب فأصبح وحده تمامًا، جسدًا بلا روح، يتناول طعامه ممددًا على أرضية داره الباردة، شبه عار، تزداد دهونة كل يوم، ولم يبق إلا القليل من عظمة جسده الضخم البائدة، ممسكًا بهاتفه الذكي، يكتب أسماء النساء باستثارة على محرك البحث، أسماء غربية لكنها أصبحت أقرب إليه من أسماء نساء عائلته، تتفتح المواقع تباعًا، تغرق عينيه في صور أوضاع التناكح، تتحرك الصفحات أسرع، تتابع الأفلام، يضحك من فرط اللذة، يتخيل لو كانت إحداهن رفيقته، يتساءل إن كانت كل النساء خارج بلدته قد خلقن بهذه الأجساد الشهوانية القحة، وإن كانت أيامهم الحقيقية بعيداًعن الكاميرا المتلصصة كهذه الأفلام السعيدة، إن كان من الممكن بالحياة أن يكون كل شيء مباحًا بهذه الدرجة.

داخله كان هناك حزن صغير، حزن العلماء، حتى وهو يستمتع بما يراه، حزن ينبض بخفوت كدقات قلب عجوز غير قادر على التنفس وهو يتشبث بذراع ابنه الأكبر، حزن يخبره بأن كل ذلك ليس صحيحًا، لا يمكن أن تضر الأجساد بعضها بهذا الفجور من دون فعل كوني معترض، أمامه يضرب جسد الابن أمه وجسد المرأة مرأة مثلها ويشتم الرب نفسه أثناء نشوة الفعل، مجرد استدعاؤه في هذا الجماع الفاحش إهانة لكنهم لا يتوقفون عن ندائه، ينحدر العالم بسرعة متوهجة، يهمس ما تبقى في عقله من وعي مؤنبًا وهو ينزلق في النشوة، تتجمد أنفاسه ويرتعش جسده ولحظة الذروة تقترب والرغبة المسعورة تتضخم، في تلك اللحظات يتخلى عن كل شيء يؤمن به، ويصبح إلهه امرأة يراها في لاس فيجاس ويفهم حديث النبي عن خروج الإيمان من الجسد لحظة الزنا، يفهمه جيدًا؛ لأنه يختبره كل ليلة مرة أو أكثر بينما يتقلب وهاتفه بيده، مرتطمًا بصفوف الكتب التي تنزلق متساقطة عليه وكأنها تعاقبه، وحين يحدث الأمر، يتوقف الزمن وجسده ممد على الأرض، يخرج خارجه إلى السقف المشقق وينظر لنفسه من أعلى وهو غارق في العرق وعيناه ملتهبة، نظرة مؤنبة طويلة تتبعها همسة «وماذا بعد يا حمزة؟».

ثم كانت تلك اللية الصيفية الحارة..

ليلة ضجت فيها حواري مريمة بحديث مقبض بدأ خافتًا ثم سرعان ما تحول إلى قصة يحكيها الجميع، كان الحاج سمير البيطار أغنى أعيان القرية، وعميد أعظم عائلاتها المشتغلة

بالتجـارة، الرجـل الـذي بلغـت أهميتـه أن أقسـم قائـد الجيـش نفسـه أن ينسـف الهضبـة عـن بكـرة أبيهـا لـو اقـترب أحـد مـن قـصره أو أراده بسـوء.

قـصره هـذا كان أعظـم مـا في مريمـة، أكـبر مـن جامـع صخـر عـدة مـرات، وسـياراته أكثـر مـن أن يسـتطيع أهـل القريـة أن يحصوهـا، بـل إن بعضهـم قـال إنـه يملـك طائـرة خاصـة تسـتقر أعـلى قـصره.

تاجـر الرجـل في كل شيء، العقـارات والأخشـاب والفاكهـة والخضرة وأساسـات البنـاء والصلـب، واسـتطاع وحـده أن يـزود قطاعـات كاملـة مـن الجيـش بـكل مـا تحتـاج إليـه مـن غـذاء وملبـس وبأسـعار باهظـة قيـل إن الرئيـس نفسـه ارتشـى حتـى يوافـق عليهـا،

ولأنـه عـارض الثـورة مـن يومهـا الأول، بغضـه النـاس وتمنـوا الخـلاص منـه برغبـة غـير بريئـة مـن حسـد، لكـن مالـه وتاريـخ عائلتـه العريـق في قريتهـم والحـرس الـذي عينـه النظـام لـه جعـل ذلـك مسـتحيلاً.

حتى جاءت ليلتنا الصيفية،

كانـت الحـرب في ذروتهـا في تلـك الأيـام وقـد بـدأ الثـوار في تملـك أجـزاء واسـعة مـن الهضبـة ولم يكـن السـجن قـد انفتـح بعـد، قـل ظهـور الحـاج سـمير خوفًـا مـن اغتيالـه ورابـط جيـش مـن المسـلحين عنـد قـصره، توزعـوا حتـى مسـافة كيلومـتر كامـل مـن بواباتـه،

كانـت حركـة الهجـرة قـد بـدأت حينهـا، فغـادر كثـيرون ممـن

لا عمل نظامي لهم ولا أملاك يحافظون عليها، فروا من القرية في جماعات ومعهم عمال أجرة كثيرون، كان الحاج يعوُّل عليهم من أجل موسم الحصاد الكبير الذي اقترب ليلبي الحاجات المتضاعفة لإمدادات الجيش، ومع عجزه عن منعهم من الفرار اتخذ أغرب قرار ممكن، فأطلق رجاله في الحارات الفقيرة وجمع بالقوة أكبر عدد ممكن من العمال والفلاحين وحبسهم في غرف الخدم بحديقة قصره حتى يحين موعد الحصاد.

انتشرت الحكاية بأرجاء مريمة، تغذيها صرخات الأمهات اللاتي أخذ أولادهن وبكاء الأطفال والولولة التي انتشرت في الشوارع،

قيل إن من بين من اختطف نساء وأطفال ومسنين،

غلى الناس بالغضب، ومع أن الثورة كانت بأشدها لم يجرؤ أحد على التحرك،

حبس الجميع غضبه وخوفه مستسلمًا للقدر،

في تلك الليلة وبعد أن أنهى حمزة عشاءه، تمدد على الأرض كعادته وأمسك بهاتفه الذكي.

كالعادة بدأ يفعل الأشياء البسيطة، يتصفح الأخبار ومواقع التواصل، بمعظم الليالي لم تكن لديه النية المسبقة لنهاياتها اللزجة، لكنه كان ينقاد إليها باستمرار، فتح نافذة تطبيقاته، مر عليها واحدًا بعد الآخر، توقف كثيرًا وهو يقلب صور أصدقائه الذين استطاعوا الهرب من جحيم الحرب إلى بلاد بعيدة، تفحص صور أولئك الذين وصلوا

إلى أوروبـا بالخصـوص، أمـام سـيارات فارهـة لا يعلـم إن كانـوا يملكونهـا أم لا، وبجـوار فتيـات رقيقـات لا يعلـم إن كـن أصدقاءهـن أم استـوقفوهن مـن أجـل صـورة ثـم ابتعـدوا مـن دون كلـمات، وعنـد المعـالم الشـهيرة التي لا تمثـل لـه أو لهـم شيئًا سـوى أنهـا اعـتراف بنجـاح الهـروب الصعـب إلى الأرض الآمنـة.

تجاهـل تنبيهـات أعيـاد الميـلاد وبواقـي الرسـائل التـي لم يفتحهـا حتـى لا يضطـر أن يـرد عـلى أصحابهـا بعـد أن تكتـب أسـفلها عبـارة «تـم رؤيتـه» الكئيبـة،

ذهـب عقلـه إلى أمـه، مـا أنـدر أن يفعـل، لكنـه فعـل حينهـا، تمنـى لـو أنهـا كانـت مـا تـزال حيـة إلى جـواره، تسـتمع إلى أحاديثـه القلقـة أو تشـغله بحكاياتهـا، تمنعـه مـن أن يضيـع لهـذه الدرجـة وتدعـوه أن يسـتمر بالقـراءة، ربـما تشـتري لـه هـي الكتـب الجديـدة، مـا تـزال المكتبـة تعمـل بالشـارع التجـاري.

وتسللت إليه الرغبة القديمة..

بلا وعي وجد نفسه يكتب اسم الموقع..

ثـلاث أحـرف فقـط، مناسـب تمامًـا للأغبيـاء المشـحونين بإدمـان الفرجـة مثلـه..

ثم ضغط «إدخال» وانتظر..

لا شيء..

فقط صفحة بيضاء غير قادرة على التحميل..

ضغط زر الإدخال من جديد..

أعاد كتابة اسم الموقع..

اختـار أسـماء أخـرى لمواقـع يعرفهـا لكـن الصفحـة البيضـاء

ظلت أمامه،

ابتلع ماء حلقه بتوتر وهو يحاول تذكر اسم مواقع لم يدخلها منذ زمن، كلها لم تفتح، جرب مواقع التواصل التي كان عليها منذ دقائق فلم تعمل..

شعر بالاختناق وأصابه ذعر وهو يفكر فيما يمكن أن يكون قد حدث، مدد جسده محاولًا الاسترخاء، أغلق عينيه بقوة محاولًا استحضار خيالات فاحشة كما كان يفعل بالبدء فلم يستطع، لم يتمكن عقله من خلق الصور ولم تعتريه أية رغبة، قام من رقدته، شعر بالعرق يسيل على شعر الصدر العاري، خلع سماعته الموصلة بالهاتف، وقف مكانه لا يعلم ما يصنع ثم وبخطوات مترددة مشى إلى النافذة.

مد عنقه ينظر إلى المقهى أسفل الدار، حاذر أن يقترب كثيرًا فيظهر عريه وتناهت إلى سمعه الأحاديث، مسترسلة وغاضبة، تموج بانفعال يقترب من حد البكاء، وببطء تشكلت قصة سمير البيطار في عقله متشعبة من خلال الأحاديث، تعرق جبينه، انحنى بجذعه على الحاجز النافذة المعدني فانغمس في شحم بطنه الكبير محدثًا انبعاجة مضحكة لم يشعر بها، ارتعشت يداه الممسكة بالحديد غضبًا، من دون تفكير وجد نفسه يدخل إلى غرفة نومه بحثًا عن ثياب، تذكر للمرة الأولى أنه لم يخلع لباسه الداخلي منذ أيام، مد يده يزيحه ففاحت منه رائحة حمضية فجة، ألقى به إلى زاوية الغرفة وسار عاريًا إلى الحمام واغتسل، ترك نفسه طويلًا تحت الماء البارد، نظف كل ركن بجسده بإتقان، غسل شعره ولحيته النامية بالصابون، وحين خطى خارجًا جاءته قطرات

عرقه باردة ومنعشة على جسده وكأنها حبات نعناع، أخرج أنظف ما وجد من ثياب، قميصًا لبنيًّا له أزرار بيضاء مميزة وبنطالًا جينز قديمًا متسخًا عند الأطراف، وبعد دقائق كان خارج داره.

مشى طويلًا إلى حيث القصر، لم يثر منظره ريبة، كان جسمه طويلًا وممتلئًا، وجهه وردي سرعان ما تألفه، لم يكن له مظهر الشباب الثائر الذي ألفوه، ولا لحاهم الخشنة، فقط شعرات قصيرة تنبت على خذين ممتلئين بلون الورد، وكأنه طفل كبير، وتلك المشية الشبيهة بالدببة والبطن البارز من بنطاله، كل ذلك جعله يقترب دون أن يوقفه أحد حتى بدأت ملامح القصر تبرز أمامه، وحين اقترب من بوابة القصر رأى حارسان أمامه، أحدهما ضخم الجسد، تبرز عضلات ذراعه من تحت قميصه وإن بدا وجهه مريحًا، كان يقضم من تفاحة بدت صغيرة بين أصابعه الضخمة، تركها إلى كرسيه وهو يقف بترقب مقتربًا من زميله النحيل الذي مد ذراعه أمامه موقفًا حمزة وسلاحه مشهر في صدره.

رفع حمزة يديه وفيها طبعات ثلاث كتب له، مغلفة بغطاء شفاف، عناوينها منمقة وقد نقش اسمه تحتها بخط أحمر بارز، نظر إليها الحارس النحيل بلا مبالاة ورفع عينين حادتين إلى حمزة قائلًا: «وبعد؟».

تنحنح حمزة وهو يقترب خطوة للأمام فدفعه الحارس الضخم برفق وهو يقول: «الزم مكانك»، «نعم» أجابه حمزة وهو يتراجع ثم تابع: «أنا مؤلف هذه الكتب الثلاثة، أعلم أن الحاج سمير يهتم بجمع الكتب القيمة ويقدر كاتبيها،

وأنـا ابـن مريمـة، كنـت أطمـع أن يكـون لي نصيـب مـن ذلـك».

سـاخرًا رأى حمـزة النظـرة المنبهـرة عـلى وجـه الحـارس الضخـم، أمـا الآخـر فقـد أخـذ الكتـب مـن يـده في غـير اكـتراث وقـال: «بطاقـة هويتـك»، ناولهـا إيـاه حمـزة، أمسـك بهـا متفحصًـا وهـو يقـارن الاسـم بهـا بالاسـم عـلى الكتـب قبـل أن يقـول أخـيرًا: «انتظـرني هنـا»، وتـرك زميلـه معـه.

«عمي كان يكتب الكتب» قال الحارس الضخم،

«أحقًـا؟! » قالهـا حمـزة بغـير اهتـمام وهـو يحـاول أن يكتـم توتـره،

«نعم، كان ينشرها مع دار نشر اسمها الياسمين، تعرفها؟»

«جيـد» قـال حمـزة باقتضـاب، وقـدم لـه الحـارس نصـف تفاحـة قائـلًا: «تفضـل»،

أجابـه حمـزة دون أن ينـزع نظـره عـن البـاب: «لا أعبـأ بمثـل هـذا الخـراء»، ارتبـك الحـارس وقـال: «التفاحـة خـراء؟؟». «لا.. دار النـشر تلـك» قـال حمـزة.

وخفـض حمـزة رأسـه وهـو يزفـر مفكـرًا فيـما سـيحدث بعـد قليـل غـير عابـئ بنظـرة الحـارس الغاضبـة.

لـو كان الأمـر قـد حـدث في يـوم آخـر لـكان الحـاج سـمير قـد ألقـى بالكتـب وكأنـه كيانـو ريفـز عندمـا ألقـى الإنجيـل أمـام المـلاك في فيلـم كونسـتانتين وهـو يسـب صاحبهـا الـذي جـاء يتسـول بهـا، أو أرسـل حارسـه لـه بألـف دينـار مثـلًا عـلى أقـصى تقديـر كهبـة، لكنـه تلـك الليلـة ورغـم القـوة البائنـة فيـما صنعـه كان مضطربًـا بحـق، يشـعر كـما لـو كان قـد اغتصـب أمـه

مثلًا، هؤلاء الرجال والنساء الذين حبسهم من أجل العمل أصابوه بقلق عظيم ووحشة وكأن كل عالمه والأشياء القليلة التي ما يزال يبجلها قد تداخل في بعضه حتى أن لمحة من ندم قد تخلقت داخله، سأل نفسه بغيظ لم فعلت هذا؟! لم أكن أحتاج كل ذلك! فقط لو كنت عرضت مالًا أكثر لجاء الكثيرون! فليلعن الله الشيطان!

لذلك حين رأى الكتب وعلى أحدها اسم الله المزخرف ووصلته رائحة الأوراق المصقولة كذكرى بعيدة من أيام طفولته رفع رأسه إلى الحارس وسأله باهتمام إن كان من أحضرها هو الكاتب نفسه فهز الحارس رأسه بنعم،

«أحضروه إليَّ» قالها وهو يلتفت إلى خادمه ويأمره أن يجهز القهوة والحلوى..

هكذا وجد حمزة نفسه يدخل إلى القصر..

يقطع الممشى الطويل محاطًا بالحرس وكأنه رئيس..

وتقاطرت عليه نسوة خيالاته الأثيرة من أطراف الممشى، بدأنه رغم انقطاع الإنترنت، بشعورهن المستعارة وصدورهن الكبيرة وكل المساحيق على وجوههن، لكن وحدته كانت تزداد وهو يقطع المسافة بين الأشجار، كن يبتعدن في خوف، كلما اقترب أكثر حاولن إغراءه للابتعاد ولكنه كان مصممًا، نعم، لا تأتين إلا ساعة الضحك، فكر وهو يرفع إصبعه الأوسط من خلف ظهره مشيرًا لمن تبقى منهن فاختفين جميعًا..

حينها فقط شعر به..

من فوقه..

نظرته مثله..

علوية وعظيمة..

لها ملمس ذكَّره بلمسة أمه الأولى له بعد الولادة..

هكذا كان شعور حمزة بالله داخله وهو يمشي داخلًا..

رائحة أشجار السرو مسكُ الليل تملأ أنفه، وحين خطا داخل البهو العظيم غاصت قدماه في السجاد المبسوط، منقوش بالتكعيبات العربية المتداخلة بألوان داكنة، واكتسحته روائح سحرية مختلطة ومرت في طرف عينه امرأة في ثوب أسود ومطرز مشبعة بالفتنة، فتحركت نفسه من جديد وكأنها الإغواء الأخير لكنه أزاح وجهه مجاهدًا ألا ينظر من جديد..

ثم سمع صوته، ناعمًا، مشحونًا بالثقة والراحة..

«مؤلفنا الشاب!».

التفت إليه حمزة، لم تكن المرة الأولى التي يراه فيها،

يذكر تجمع الناس حوله بعد صلوات الجمع، مشرقًا في عباءة مطرزة بالذهب كالتي يراها الآن عليه، له وجه أسمر ممتلئ، بتقاطيع مملة رخوة.

مشى حمزة إليه مقتربًا بينما تابع الحاج: «كنت أحتاج إلى عقل رشيد بهذه القرية أتسامر معه هذه الليلة»، هز حمزة رأسه موافقًا بينما أشار الحاج إلى أريكة واسعة، غطس فيها حين جلس وشعر بالتضاؤل والآخر يجلس على كرسي وثير مذهب الأطراف غير بعيد عنه.

«لم أقرأ الكتب لكن العناوين مثيرة»،

أجابه حمزة وهو يحاول أن يخفي رقعة متسخة ببنطاله بكفه المفتوح،

«هل ستقرؤها؟».

هز الرجل رأسه بابتسامة وقال وهو يمد جسد على كرسيه مسترخيًا» لا أعدك بذلك، وقتي محدود، لكني سعيد أنك أحضرتهم إلي».

«وقتك محدود» أجاب حمزة مؤكدًا وهو يتنهد ناظرًا إلى الرجل، وحين وضع طبق الحلوى أمامه إلى جوار فنجان القهوة لم تمتد يده إليها فقال له الحاج متباسطًا في حديثه: «كف عن الخجل يا حمزة، أنا من دعاك إلى مجلسي للحديث».

رفع حمزة رأسه إليه وقال: «لأنك مهموم؟»، للحظة ارتبك الحاج وفنجان قهوته بين يديه وسأل بصوت مكتوم: «ماذا تقصد؟».

أجابه: «ربما أردت أن تتحدث معي لأنك مهموم، كنت لأشعر بذلك لو حبست أبناء بلدتي في غرفة ضيقة بحديقة داري».

ثبت الحاج عينيه عليه، رآه حمزة وهو يبتلع ماء حلقه ويضع فنجانه على الطاولة المزخرفة بالورود أمامه ثم يقول بهدوء: «يا حمزة... يا حمزة.. أنت ابن هذه القرية فعلًا، بك نفس سذاجتهم، هل تؤنبني أنا على فعل اقترفته؟».

«نعم».

«لكن مثلك لا يمكن أن يلوم مثلي، كان الأحرى بك أن

تنشغل بغسل بنطالك القديم».

«أعلم ذلك» أجابه بصوت مبحوح وأكمل: «مثلي يقتل من هو مثلك»، قالها وهو يرفع ذراعه على امتدادها بوجه الحاج سمير شاهرًا سلاح أبيه القديم وتذكَّر بقلق أنه لم يتأكد حتى من حشوه وانحشر نفسه وهو يضغط الزناد بإصبعه بتصميم خائف يشوبه حب استطلاع بخصوص وجود طلقات منتظرًا سماع التكة الخائبة لمسدس فارغ، لكن صوت زلزلة عظيمة دوى في البهو المهيب والحاج يتراجع في كرسيه بضعضعة مفاجئة وبقعة داكنة تتكون في موضع قلبه، وبوعي مندهش نظر حمزة بامتعاض إلى قطرات الدم التي لوثت كتبه بخط متعرج لا نهاية له وبدلًا من أن يغمض عينيه بانتظار حتفه على يد الحرس وجدهما تتسعان بانفعال، وهو يسمع صرخة امرأة ملتاعة في العلية تبعتها أصوت تهشيم وصيحات غضب.

وحين دخل الثوار الهائجين توقفوا برهبة مع استحالة حدوث ذلك في خضم كل هذا الانفعال، وهم ينظرون حمزة ويده الممسكة بالسلاح ما تزال تشير إلى جسد الحاج الميت أمامه.

الآن يلمح حمزة المئذنة المكسورة وهو يصل إلى وسط مريمة، لم يستطع تحمل النظر إليها فأشاح ببصره سريعًا وهو يبتعد في حارة جانبية ضيقة، اليوم لم يعد حمزة ما كان عليه منذ سنين، اعتدل جسده واستقام وتبدت عظمة بنيانه، توقف عن مشاهدة ما كان يشاهد، أحبط منه وتملكه شعور بالغثيان يمتد من أسفل بطنه حتى أعلى عنقه كلما فكر فيه، ورغم عودة الإنترنت بعدها وانقطاعه عدة مرات بالهضبة قبل أن تنفصل نهائيًّا عن العالم مع توقف كل الاتصالات بها، إلا أنه لم يحاول أن يخوض تجربة المشاهدة مرة ثانية، وببطء تراجعت أسماء نسائه وتصاويرها إلى خلفية عقله، بالبدء اختلطت أسماؤهم ثم أصبح عاجزًا عن تذكر أيٍّ منها.

ولم يعد يستطيع أن يكون الدب البني الذي يعيش بكهفه المنعزل بعد مقتل الحاج سمير البيطار؛ لأنه تلك الليلة وبعد أن حمله الأهالي طائفين به أرجاء مريمة، هاتفين باسمه وقماش أعلام الثورة المرفرفة يضرب وجهه والمصاحف المرفوعة تجاور رأسه، ينظر لها بدهشة ثم يرفع نظره للسماء، في تلك الليلة اجتمع ثوار مريمة المتنازعين، أولئك الذين أعيتهم خلافاتهم والقتال الدائر بينهم، اجتمع الزراع وأبناء العائلات العريقة ومشايخ المساجد وكل من له كلمة بمريمة واتفقوا بما عدوه وحيًا علويًّا بأن يكون حمزة المجهول هو عمدة هذه القرية، ليكن هو طالوت الجديد.

كانت الدار حيث تم وضع حسن تقترب مع خطواته الواسعة، ميزها من كثرة الشباب حولها، حاذر أن يتعثر

في قوالب القرميد تحت قدميه، وصلته أحاديثهم المتداخلة ودخان تبغهم وهم يتبادلون السجائر الملفوفة يدويًّا، وقفاتهم مغرورة وأسلحتهم خلف ظهورهم، اعتدلوا وهو يخطوا وسطهم في غير اكتراث حقيقي، كان يعلم أنه لا سلطة له بالخوف في هذه القرية، مد يده يلتقط عقب سجائر من فم أقربهم وألقاه أرضًا أمام نظرته المعترضة ثم نظر إلى آخر ومد يده يلتقط سيجاره ويحطمه في كفه العملاق قبل أن يلتفت إلى آخر تراجع مثل طفل شقي، فيقترب من زميله الآخر ويخطف ما بفمه،

وفي ثوانٍ تحولت الوقفة المعتدة بالنفس إلى حركات هروب مضحكة مثل رقص غير متقن وتوارت رائحة القوة الذكورية الواثقة والشباب يتقافز وينحني محاولًا الحفاظ على سجائره الشحيحة التي أخرجت احتفالًا بحصولهم على أسير نظامي، تخلخل المشهد بسخرية مضحكة يحبها حمزة الذي قال وهو يقف بينهم مستعدًّا لدخول الدار: «هل تظنون أني أفعل ذلك لأني أريدكم أن تكونوا أصحاء؟! ما فعلته إلا لأنه مسلٍّ»، والتفت إلى شاب وحيد استطاع أن يقف بعيدًا محتفظًا بسيجارته وقال مشيرًا له: «قد مللت، لن آخذها منك، تستطيع أن تموت مختنقًا بدخانك»، قالها وهو يلتفت مغادرًا، تاركًا الشاب يحاول الضحك بتوتر حتى أنه تنفس الصعداء حين سرق زميله سيجارته من فمه.

ودفع حمزة الباب ودلف..

في النور الرومانسي الذي أشاعته الشمعات الموقدة رأى قدميه وذراعيه وهما تتحركان أمامه في الظلام فشعر أنه

أسطوري، وتوقفت الرجال القليلة التي تحرس الداخل له باحترام، كانوا من النخبة المقاتلة بمريمة، هز رأسه وهو يرفع برطمان الشاي بالجنزبيل ويرشف منه؛ لأن آلام بطنه المزمنة بدأت تتفاقم مرة أخرى، وانفرجت شفتاه وهو يضيق عينيه يستطلع الظل المربوط إلى الأرض،

موثق عند المعصم والكعب، منحنيًا على نفسه ورأسه مدفونة بين فخذيه، شعره الطويل ساقط للأمام وأسفله بقعة داكنة لم يميز حمزة إن كانت بولًا أم دمًا، وضع برطمانه على أقرب الكراسي له واقترب أكثر، ميز رائحة دم حديدية، مد يده إلى الشعر ورفعه ببطء ابتلع ماء حلقه بقلق ووجه حسن الشاحب بشفتيه اللذين غاب لونهما تمامًا يتبدى أمامه، كان في غيبوبته الخاصة.

«أخبرتهم ألف مرة أنه يجب أن يعالج أولًا»،

اندهش وهو يسمع الصوت الأنثوي، رغم طول المدة منذ آخر لقاء ميزه من فوره ورفع رأسه ملتفتًا إليها «دميانة!»،

هزت المرأة رأسها بهدوء وهمست: «نعم يا ابن عم»،

ابتعد حمزة عن حسن خطوات مقتربًا وقال: «حلمت بأولادك منذ أيام»،

أشاحت دميانة بنظرها عنه وامتلأت عيناها بدمع مكتوم دون أن تجيبه.

«أين هم؟» سألها فالتفت إليه، وارتعشت شفاه وهو يرى النظرة فيهما، بحث عن أقرب مقعد إليه وجلس واضعًا

برطمانه بجواره.

أشار إليه ببطء وهمس «هو من فعلها؟».

«لا».

«كيف جاء إلى هنا؟».

نظرت إلى حسن وقالت: «قصة طويلة يا ابن عمي، سأحكيها لك كاملة، لكنه سيموت إن تركته هكذا»

«وهل عليَّ إنقاذ حياته؟».

صمتت طويلًا قبل أن تجيب: «نعم».

«لست من أحدث به هذه الجروح».

«لا، أصيب بها وهو يحاول إنقاذي».

«أنقذك ممن؟».

«أحد المجانين الهاربين على ما أعتقد»، أجابته دميانة وهي تمسح جبينها والتفت حمزة إلى حسن مرة أخرى وللحظة شعر وكأن شعره المبعثر حول رأسه طاقة نور، فالتفت إلى الرجال وقال: «احملوه سريعًا إلى عبد الله بالساحة».

كان الرضيع يشاهد يارا وهي تبني في الرمل بينما تصف له بصوتها الطفولي ما تفعل: «هذا قصر الأميرة، لم يسمع أحد عنها وجاءت من زمن بعيد جدًّا من أرض مكة بعد أن أعطاها الله قوة سحرية، فصنعت كل الأماكن التي تراها الآن هنا يا إسماعيل» قالتها وهي تشير إلى تكتلات رملية في الطين بلا شكل محدد، لكن الصغير فتح عينيه بانبهار وهو ينظر إليها وتابعت هي: «أرادت أشجارًا كثيرة وورودًا ونحلات في أرض لا ماء فيها، فجعلت الأرض تتفجر بأنهار جديدة كي تكون الحدائق ممكنة، واختارت أسماء جميلة لتلك الأنهار»، حفرت بيدها في الطين أخدودًا ممتدًا «هذا النهر الأول اسمه كوزمو»، ثم حفرت واحدًا جديدًا امتد حتى قاطع الأخدود الأول «وهذا رمانة»، لامس الرضيع بإصبعه الصغير نهرها وهو يحاول أن ينطق بالاسم «أوزمو»، نظرت له ضاحكة وهي تقول مصححة: «كوزمو يا إسماعيل»، ثم تناثر الرمل في كل مكان بانفجار صغير وسيف محمد الخشبي يخترقه وهو يصرخ بحماسة «هجوووم»! تعالى ضحك الصغير ووجهه يتلطخ بندف الطين، وتوقفت يارا غاضبة وهي تصرخ في أخيها الذي تراجع للخلف وعلى وجهه ابتسامة تذبل.

في تلك اللحظة سمع جميع من بالساحة أصوات خطوات الرجال، الأطفال وعبد الله، والقطة التي كانت تلعق رضيعها بتراخ فاعتدلت بجسدها متأهبة وهي تغطيه برجلها، ودخل الساحة حمزة نفسه ومن خلفه رجال يحملون حسن حملًا، كان ما يزال غائبًا، تتدلى رأسه بين أذرعهم وفي ضوء الشمس

لمعت دماؤه المتجلطة التي ما تزال ترتوي بأخرى طازجة، وقد فاحت رائحتها حتى وصلت أنف عبد الله، لمحه محمد فامتعض وجهه وانقبض صدره وأسرع يخبئ سيفه وراء ظهره وهو يتراجع مختبئًا بينما عبد الله يتقدم باتجاه الرجال ومن دون كلمات ينكفئ على حسن متفحصًا...

«ما هذا؟!» همس بصوت مبحوح وهو يرفع رأسه إلى حمزة،

«أسير».

«أسير؟!»، ابتسم حمزة بسخرية وهو يقول: «نعم! أسير، رهينة، هوستاج يا دكتور، ويهمني الحفاظ على حياته من أجل الأيام القادمة»،

«جندي نظامي؟».

«وهل يؤسر غيرهم؟» أجابه حمزة، واضطربت عينا عبد الله وهو ينظر إلى حسن، اختمر غضب حار في صدره وتثاقلت أنفاسه، للحظة تبدت أمامه الكعبة منقوشة على كتف امرأته، لاحظه حمزة وكان يعرف قصته فاقترب منه وأخفض صوته قائلا: «أنت الطبيب الوحيد بهذه القرية، لو كنت لا تريد علاجه أخبرني الآن حتى يستطيع أهلنا الاستمتاع بالفتك به، وفيه بعض من روح قبل أن يصبح جيفة لا تنفع»، نظر عبد الله إليه بانفعال، لم يفهم إن كان مازحًا أو جادًّا فيما يقول، عض شفتيه وهو يلتفت إلى حسن من جديد وقال بصوت هادئ: «بل اتركه معي وسأعتني به».

«نضعه بأحد الخيمتين؟» سأله حمزة وهو يشير إلى خيام

نومهم فهز عبد الله رأسه رفضًا،

«سيلوث أماكن نوم الأطفال بدمه»، وتلفت حمزة حوله وهو يقول: «لا أرى مكانًا يصلح بساحتك هذه»، ثم تسمر نظره على المئذنة المنهدمة، شابه شجن قديم وهو ينظر إلى نفسه وهو يدخلها طفلًا ويده في يد أبيه، يصعدان سلالمها معًا، ومن أعلى شرفاتها يشاهدون مريمة كاملة ومن حولها الغابات وصوت الطير موسيقى المشهد، خفض رأسه لحظة ثم رفع يده مشيرًا إليها وهو يأمر رجال: «اربطوه بهلال هذه المئذنة التي حطمها أصحابه، لا توجد شمس هذه الأيام ولن تكون هناك مشكلة».

وبينما يبتعد محاطًا بالرجال في قداسة مهيبة التفت إلى عبد الله وصاح: «أرسل من يخبرني إن استفاق».

عندما عبرنا من جوار الرجال الخائفين، أعمق في البحر، على ظهر مركبنا الصغير، كانت الحكاية الأولى ما تزال تمزقني، شعرت ببرد يتخللني وللحظة استوحشت بقائي هنا من دون أبي، حتى وإن كان إبراهيم بن محمد إلى جواري.

إبراهيم الذي نظر لي بهدوء وهز رأسه قائلًا: «أنا أيضًا أستوحش من دون أبي»،

وعند الأفق حلق حوت من باطن البحر حتى لامس السحاب والماء يتساقط منه كالمطر ورأيته وهو يتغير إلى طائر عملاق ديناصوري ارتفع حتى اقترب من القمر فتحول إلى وجه رجل جميل لم أعرفه، لكنه ابتسم نحونا فضحك إبراهيم وهو ينظر إليه وضحكت لضحكه، التفت لي وقال بسعادة: «هل تعلمين أن حكاية الكلمات موصولة بالأب وابنته؟»، نظرت إليه في غير فهم فقال من جديد: «دعيني أخبرك بحكايتك الثانية»...

الحكاية الثانية

يُحكى أن الإنسان عندما كان ما يزال يعيش عند الله، كان الله عز وجل قد علمه اللغة، لا نعرف أي لغة، لكن كل الكلمات والصور والأشكال كانت بعقله موصولة برسوم حروف واضحة ومستقرة، حفظها آدم كما هي لأنه لم يكن قد رأى كل الأشياء بعد...

بعدها، حين نزل الإنسان إلى الأرض، وكثر وازداد عدده، تفرق الأبناء؛ لأن آدم نصحهم بذلك خوفًا من أن ينظر أخ إلى أخيه ويحسده ومن ثم يقتله كما فعل قابيل مع هابيل..

وعمرت الأرض في أكثر من مكان، وجد بعضهم أنفسهم في أماكن مقفرة استدعتهم أن يعملوا طوال النهار، وبعضًا من الليل، رجالًا ونساءً وأطفالًا كذلك..

«لم أعمل يومًا»، قالت زهوة بسعادة، فنظر إليها إبراهيم وقال بلطف: «أكنت تستيقظين في وقت محدد؟».

«نعم، من أجل المدرسة».

«إذن فقد كنت تعملين يا صديقتي»..

احتاج هؤلاء الذين يعملون ليل نهار إلى الكلام الذي علمه لهم آدم كثيرًا، كانوا يتحدثون طوال الوقت، وجدوا في ذلك السلوى عن آلامهم، حتى أنهم في ذلك الزمن البعيد استطاعوا أن يجعلوا الكلام ملحنًا بقواف مرتبة وأنيقة، فكان ذلك أول ما كان من أمر الغناء...

لكـن آخريـن انطلقـوا إلى أماكـن كالجنـان، كان كل شيء في متناولهـم، يريـدون الأكل فيمـدون أيديهـم ملتقطـين العنـب وحبـات التـوت والتفـاح، يعطشـون فيمشـون خطـوات إلى النهـر ويمـدون أيديهـم شـاربين، انطلـق أخ وأختـه مـن بـين هـؤلاء مبتعديـن أكثـر فوصلـوا أرضًـا بـلا حيوانـات مفترسـة، فقـط الحـمام والقطـط الأليفـة، شـعروا أنهـم وصلـوا نعيـم الجنـة نفسـه الـذي حكـى عنـه جدهـم آدم، ولأنهـم أحبـوا بعضهـم بصـدق فلـم يحتاجـوا إلى إيضـاح مشـاعرهم بالـكلام، ولأن النعيـم كان سـائدًا حيـث عاشـوا فلـم يحتاجـوا إلا إلى الابتسـام، حتـى مـع مولـد طفلتهـم الأولى لم يشـعروا بأهميـة للاسـم، تركوهـا تمـرح أمـام أعينهـم وهـم يرقبونهـا صامتـين.

ومرت ثلاث أعوام تامة على تلك الحال...

حتـى جـاء يـوم حـضر فيـه قابيـل إلى أرضهـم ومعـه رجـال آخـرون، كانـوا يحملـون فـروع الأشـجار العظيمـة والصخـور متوعديـن، طلـب قابيـل مـن الرجـل وزوجتـه أن يجمعـا المحصول ويـتركا الطفلـة ويغـادروا المـكان، أمهلهـم ثـلاث مغـارب للشـمس كـي يجمعـوا كل حبـة تـوت وكل قطفـة عنـب وكل الخـضراوات الملونـة والنعنـاع الـبري والتفـاح وبقايـا الـدوم.

بـكا الرجـل وامرأتـه طويـلًا بهـذه الليلـة، كان قابيـل قـد ضربه حـين لم يفهـم مـا قالـه لـه، أرادا أن يتحدثـا معًـا عـما حـدث ومـا سـيفعلانه، لكنهـما وجـدا أنهـما قـد نسـيا الـكلام، فكـر الرجـل بالكتابـة فلـم يتذكـر سـوى خطًّـا مسـتقيمًا لـه نطـق آآ، لا شيء غـير ذلـك..

لكنـه اسـتطاع أن يرسـم لامرأتـه عـلى الرمـل شـكل رجـل

وامرأته يتحركان وكان هذا ما فكرت فيه أيضًا، جمعَا بعض الطعام، وضعوا ماءً في الجلود وانطلقوا في الصباح التالي هاربين من جنتهم..

انطلقوا في رحلة بعيدة على حدود بحر لا اسم له بعد، مثلنا استطاعا أن يريا أسماك البحر وهي تتقافز، الحق أن تلك الأسماك الكبيرة لم تكن تحتاج كل ذلك القفز لكن مرأى الإنسان أبهرها ولم تكن قد رأت من قبل إلا ما يشبه القرود، لكن تلك الخطوة الساكنة والنظرة الحزينة المتألمة لم تصل لهم من قبل، عن طيب خاطر انزاحت أسماك إلى الشاطئ ملقية نفسها على رمله وهمست بلغتها التي لا نفهمها «كلني لتعيش»..

أكل الرجل وامرأته والطفلة، أكملوا رحلتهم على الشاطئ الممتد، وكان ما يشغل الرجل طوال الطريق مأساة اللغة، لم يستطع أن ينسى النظرة المستنكرة لقابيل نفسه حين لم يستطع أن يتحدث، ظل مفكرًا بها طوال الليل، متأملًا النجوم وتموجات البحر والدخان البعيد والسحب العلوية.. ثم أتى يوم مرضت فيه زوجته، كانت المرة الأولى، كانت عيناها حمراوتان، بدت متعبة وكأنها لم تنم، مصادفة كان قد مس رأسها وهو يناولها الطفلة، شعر بحرارتها، وجد حلقها ملتهبًا حين نظر داخل فمها لما أشارت إليه بإصبعها، استشعر قلبه تشاؤمًا لم يفهمه، ظل قريبًا منها ذلك اليوم وفي الصباح التالي كان يحفر الأرض وهو يبكي بلا توقف كالأطفال ليدفنها..

وأصبح وحده مع طفلته..

ابتعد عن البحر؛ لأنه ظنه سبب موتها..

اضطربت أحشاؤه وهو ينظر إلى ابنته بلا كلام..

لم يستطع النوم أيامًا متتابعة..

زهد في الطعام وغابت عن وجهه الابتسامة الخالدة، وفي ليلة مطيرة وفي قلب الألم قرر أن يخلق اللغة..

استخدم نقوشًا مما تذكره، وأخرى مما رآه في رحلته، وثالثة مما يشعر به..

فتح فمه آلاف المرات، حرك لسانه، قلد أصوات الحيوانات وسجل ما يصنع على أرض طينية جفت باليوم التالي بما نقش عليها حين توقف المطر..

اختار أن يكون الرمز الأول جسد امرأته واقفًا وفوقه رأسها..

وليكن الرمز التالي منظرها وهي نائمة..

ليكن أحد الرموز جسده ومن فوقه ابنته حلين يلقي بها الهواء ملاعبًا، وآخر على شكل القمر، وشكل السمكة، وشكل الموجة..

وليكتب رموز لغة أبيه التي تذكر بعضها، أولها كان رمز إنسان انثنى ظهره ورأسه ما يزال مرفوعًا.

كان يكتب الحروف ويصنع الأصوات؛ لأنه خاف أن يموت فيترك ابنته بلا شيء، بلا لغة، بلا حكايات عن أمها وعنه، أراد لزوجته أن تخلد بعقل الطفلة، عقلها الذي بدا وكأنه قد خلق من أجل تلك الرموز، فكانت لا تكف عن كتابتها ومحاولة النطق بها بلهجة أبهجته حتى أصبح لعبهما الأثير..

وحين تكونت عنده ثلاث كتل طينية قد نقش عليها لغته، فكر في كيفية حملها والسفر بها، وكمعجزة خرج أمامه من خلف الصخور حيوان غريب، بدا وكأنه قد خلق من أجل أن يُمتطى ظهره، الحيوان نفسه اقترب منه بخجل ووقف أمامه بصبر منتظر حتى أن الرجل ضحك والريح تتخلل لحيته المهملة، حمل الكتل بحرص، مسح دمعًا من عينيه وتمنى لو كانت امرأته إلى جواره..

قرر أن يجرب وضع طفلته على ظهر الحيوان مع الكتل، فحملها الحيوان راضيًا وتحرك ببطء إلى جواره..

يحمل لغته، اللغة التي سيضيف إليها رمزًا جديدًا من أجل ذلك الحيوان الذي أحبه، فيرسمه على شكل مقدمته ويجعل له الصوت حاا..

اللغة التي كانت أولى كلماتها وبأعظم تشكيل من الرموز وأجمله كلمة «أفتقدك».. مرمزة بقمر تجاوره سمكة طائرة وجسد امرأة واقفة...

من أجل شرف الطفل،

هكذا بدأت المعركة،

وهـذا مـا عرفـه العميـد ويـده مغموسـة في دم الأسرى معذبًـا حتـى نطقـوا بالخبر،

حينها فقط توقف عن التعذيب،

وفي صباح بارد جمع جميع أفراد فرقته في طابور عرض،

وقفـوا أمامـه في صـف طويـل، بثيـاب عسـكرية كاملـة، مـن بدايـة الحـارة تجـاوروا، التـف الصـف مـع تعرجاتهـا عابـرًا بثلاث حـارات متجـاورة، مـرت سـاعة واثنتـين وهـم وقـوف حتـى قـرر العميـد الخـروج إليهـم، مشـى مـن أمامهـم دون أن ينطـق كلمـة، لم ينظـر إلى أكثرهـم إلا لمحًـا، بـدى مهمومًـا، خطواتـه ثقيلـة، ذراعـاه معقوفتـان خلـف ظهـره وشـفتاه مزمومتـان.

جعلـت الأمطـار الأرض الطينيـة زلقـة، بللـت ثيـاب الرجـال الذيـن كان كثير منهـم مريضًـا بالفعـل، لم ينفـر مـن رائحـة العرق المعتـق التـي فاحـت مـن أكثرهـم ولم يهتـم للحاهـم المهملـة، لكنـه تقـزز مـن صـوت السـعال الـذي سـمعه مـن أكثـر مـن واحـد وهـو يمـر وسـطهم ... مـا أطـول هـذا الصـف وأشـد قتامتـه.. فكـر وهـو يرفـع رأسـه إلى نهايتـه فلمحـه!

الوحيد الذي لا يضع غطاء رأسه العسكري،

تسـارعت خطواتـه وهـو يتجـه إليـه، ضربـت دفقـة ريـح شـديدة وجهـه فدمعت عينـاه وأسرع يمسـحها قبـل أن يـراه أحد. «أنـت» صـاح وهـو يشـير إليـه، «اخـرج مـن هـذا الصـف»، كان

صوتـه متقطعًـا مـن فـرط انفعالـه وهـو يـرى الرجـل يتقـدم، لمـح ارتعاشـة يـده عـلى السـلاح وهـو يتقـدم إليـه، رفـع رأسـه إليـه وقـال: «أيـن قبعتـك العسـكرية أيهـا الجنـدي؟»، «نسـيتها بخيمتـي أيهـا القائـد» أجابـه بهـدوء وإن رأى العميـد كيـف يحـاول أن يتجنـب النظـر إليـه.

«عـوني» نـادى العميـد عـلى مسـاعده، «اذهـب معـه إلى خيمتـه ولا تتركـه لحظـة حتـى يعـود بقبعتـه»، قالهـا وهـو يتأملـه مـن جديـد ويضيـف: «إن كانـت هنـاك».

قبـل غـروب شـمس ذلـك اليـوم كان جسـد الجنـدي يتـدلى مـن حبـل غليـظ التـف حـول عنقـه مربوطًـا مـن إحـدى أشـجار الهضبـة.

وكان صمت كئيب يلف كل الفرقة.

وعـلى مشـارف الهضبـة الصغـرى المطلـة عـلى مريمـة وقـف العميـد ينهـج وجسـده يتعـرق، بعـد أن شـنق الخائـن، ارتـدى ثوبـه الريـاضي وانطلـق في جـري لم يتوقـف منـذ سـاعتين، دار حـول مريمـة وأغانيـه تـتردد في سـماعة أذنـه، محاولـة انتزاعـه مـن حالـة الكآبـة التـي دخلهـا منـذ سـمع مـن الأسـير لم بـدأ هـذا القتـال.

لم يكـن الجنـدي الأول الـذي يقتلـه في هـذه الحـرب، لكـن الخيانـة لم تكـن أبـدا بهـذه القـذارة مـن قبـل، هـذا الوجـه الشـبيه بطاعـون مميـت لم يظهـر لـه سـوى اليـوم؛ لذلـك وجـب القتـل بهـذه الطريقـة البشـعة.

ما أشد قتامة هذه الأيام وما أمر طعم العيش بها،

كان يعلـم مـا هـو قـادم، وصلتـه رسـائل القيـادة وعـرف رأيهـم في الأمـر كلـه.

ستُبَاد هذه القرية، ستحترق بمن فيها..

سـتعود الحـرب إليهـا بهولهـا ووحشـيتها، كإنـذار أخـير لـكل مـن يحـن إلى الأيـام القديمـة، لـن تهتـم القيـادة بالجريمـة التـي اسـتدعت المعركـة الأخـيرة، مـا يهـم في طفـل مغتصـب في سـنوات مـات فيهـا الملايـين بـلا سـبب؟ ومـا يمنـع القتـل لهـؤلاء إن كان فعلـه أسـهل مـن السـلام؟

فلتـضرب الطائـرات، دائـماً البدايـة معهـا، تـدك القلـوب قبـل الـدور، تحطـم الأمـل وتقتـل أي شـعور بالقـوة، ثـم يدخـل الجنـود فينزعـون مـا تبقـى مـن حيـاة في أي نفـس.

وصلته من سماعات أذنه أغنية مجنونة اسمها «مونتاج»،

فلنأكل الأشياء التي قتلناها

دائـماً مـا توافقـت دقـات قلبـه مـع لحنهـا في كل مـرة يسـمعها، لكـن اليـوم، الآن، كان قلبـه يـدق منفصـلاً عنهـا.

قلبـه الـذي أراحـه لسـنين، بمشـاعر ميتـة وبـلا إحسـاس حتـى أنـه نـسي وجـوده، يسـمع الآن دقـات خافتـة فيـه، حتـى بعـد أن رفـع مسـتوى شـدة الصـوت إلى أقصـاه.

خافِتـة للغايـة وكأنهـا تولـد الآن فقـط ومـا تـزال تحـاول أن تنبـض بلحـن جديـد عليـه، يتذكـره لأنـه شـعر بـه مـن قبـل حـين كان مـا يـزال مؤمنـاً، يدعـو الله أن ينجـح عـلاج زوجتـه وتنجـو.

«السرطان».

دائماً هو ...

الكلمة المقيتة الملعونة..

السرطان هو ما نعت به القائد بالعاصمة هاتين الهضبتين..

لا علاج له..

سيظل يتمدد إن لم نقتله..

لكنه لا يجد الحماسة الآن، تلك الجذوة الساخنة بقلبه حين تقترب ساعة معركة الحسم، ينظر لمريمة بحزن لا يفهم سببه، وكأنها صديقة قديمة أو أرض حلم لا يريدها أن تنمحي، لماذا؟ لا يعرف..

ربما كانت الطريقة التي تغرب بها الشمس على هذه القرية في نهاية كل يوم، بخيوط ملونة باهتة وكأنها تبجلها، أو الطيور التي تدور بلا توقف حول مركزها وكأنها تطوف، ربما كانت قدرته على القتل قد خبت...

مسح يده المتعرقة في ثوبه الرياضي، مد يده إلى جيبه وأخرج صورة الطفلة مرة أخرى..

ارتعش وهو يتأمل عينيها طويلًا في الصورة المغلفة بثلاث طبقات شفافة لازقة، دمعت عيناه وشعر ببرودة افتقدها لو كان قد شعر بها مؤمن لقال لنفسه قد مس الله قلبي الآن، برودة مثلجة سرت في خطوط طويلة من أسفل رقبته، باهتة مثل خدر خفيف واشتعلت عند قلبه، وكأن صدره يتجمد ثم يسيل حارًّا في لحظات متتابعة.

كل شيء بوجه الطفلة الجميلة هذا قد تغير حين أصبحت زوجته...

إلا عينيها، ظلت كما هي بهذه الصورة تمامًا حتى اللحظة

الأخيرة التي أغمضها فيها لها ورفع فكها السفلي كي لا يتدلى لسانها خارج فمها..

وجد نفسه يتساءل..

كم عمر ابنة حسن؟

عامان مثلها بهذه الصورة أم أكبر؟

افتقده..

تمنى لو يستطيع أن يعرف إن كان على قيد الحياة أم لا، وهل استطاعت خطته المتخيلة مع ربه أن تؤتي أكلها، أم أنه مثله الآن... لا يؤمن.

وبعيدًا عنه، بعد المنحدر الرهيب والأحراش الوحشية والجسر المحطم والبيوت المهجورة التي تجمعت عندها برك الماء الراكدة، وحتى الأحياء التي ما زالت تضج بحياة عند منتصف مريمة، كان علي يسأل نفسه الأسئلة نفسها وهو يعي نفسه للمرة الأولى منذ غاب..

تناهى إلى سمعه زقزقة العصافير واحتضنته لمسة دافئة من الشمس الصاعدة لكنه لم يفتح عينيه، لا يريد أن يرى سوى أسيرته، لا يريد سوى أن يطمئن على أن مهمته قد أنجزت.

تنهد بألم، فتح عينيه ببطء من غير رغبة ثم ضيقهما بسرعة متفاجئة وضوء الشمس المنعكس من هلال المئذنة يضربه، لم يفهم ما رآه، نظر إليه طويلًا حتى دمعت عيناه من الألم، وخفض رأسه فرأى القطع القماشية النظيفة التي تلتف حول خصره وأعلى فخذه، بدا وكأن جسده قد غسل أيضًا، لا بقع طين على ذراعيه ووجهه، حاول أن يتحرك فكاد أن

يتعثـر بالحبـل الـذي لـف حـول كعبيـه مقيـدًا إلى جسـم الهـلال نفسـه، ملفوفًـا حولـه عـدة مـرات..

وأغلق عينه من جديد...

تـردد في عقلـه صـوت زوجتـه، وكأنـه صـدى سـيتكرر إلى مـا لا نهايـة،

حديث الطبيب لها..

ستخبو الأعضاء، أعضاء جسد زهوة، واحدًا بعد الآخر..

العينيـان الجميلتـان اللتـان تسـحرناه سـتعتمان حـين يفقـد الـدم قدرتـه عـلى إعالـة الشـبكية..

والأطـراف سـتصرخ بـالألم فتتوقـف عـن تحريكهـا وكل عضـو داخـل جسـمها سـيعجز عـن القيـام بـما خلـق مـن أجلـه..

زفر بمرارة ونزل دمع ساخن على خده..

وميـزت أذنـاه صـوت خطـوات مـترددة، تمـشي وتنتظـر وكأنها تهـم بالعـودة، ثـم تعـاود الكـرة من جديـد. فتـح عينيـه ورآه.

عبد الله يقف أمامه بصمت..

بيـده السـيف الخشـبي، ذلـك الـذي يحملـه معـه محمـد دائـمًا وفي عينيـه نظـرة مشوشـة، اعتـدل حسـن وهـو يتذكـر حلمـه بغصـن الشـجرة، مـا أشـبهه بـه، لاحـظ بانفعـال أن يـد عبـد الله الممسـكة بالسـيف ترتعـش..

اقـترب منـه، بصـوت متهـدج همـس «أتحـب منظـر المئذنـة الآن؟»،

وارتفعـت ذراعـه بالقطعـة الخشـبية، راقبتهـا عينـا حسـن وهـي ترتفـع للأعـلى حتـى لامسـت الهـلال، ثـم هـوت للأسـفل

باتجاه وجهه...

وصفرت أذناه،

انبعث احتراق وحشي بقمة رأسه، شعر بالدم يسيل بطيئًا من منبت شعره حتى لامس أطراف عينيه، أغلقهما فانضغط الدم بينهما وحين فتحهما ثانية كانت الحمرة تغطي كل شيء...

وجاءت الضربة الثانية على خده الذي نبض بألم غير محتمل..

اتبعتها ضربات على كل جسده..

وصوت عبد الله المتقطع يأتيه لاهثًا..

«من أجل أولادي.. من أجلهم أيها الفجرة!»، ورآه حسن والدمع ينفجر في عينيه باكيًا، بكى مثله، ليس من ألم وإنما بمرارة كل الأيام الماضية، بمرارة أتون الحرب التي أدخل فيها، بمرارة القتل الغاضب ودماء القتلى ومشاهد المدن المدمرة وكأنها حقول مقابر، بمرارة ما حدث لابنته..

وظهر أمامه زعيمنا، قد ثنى جذعه وانحنى وهو يتغوط على أرض الهضبة، فبدا مظهره الذي طالما عظموه بأعيننا حقيرًا إلى أقصى حد، بلباسه العسكري الطافح بالغباء وعضلات جسده التي كستها الدهون. أغلق عينيه وهو يعض شفتيه، ثم فجأة سكت الضرب وسمع صوت تمزيق قميصه من عند الكتف، سمعه خيطًا بعد خيط وكأنه يميز انشقاق كل سنتيمتر منه، فتح عينيه بجَزَع ومن بين الحمرة فيهما رأى السكين، لم يكن يلتمع بانعكاس نور، كان منطفئًا وباهتًا وهو يقترب من كتفه العاري وينغرس حافرًا في جسده، كان عبد

الله يفعلها وكأنه النبي إبراهيم مع ابنه، بكى والجلد يُشَقُّ ولامس دمُ رأسه لسانه وهو ينظر للوشم الذي يحفر فيه..

كان عبد الله يحفر الكعبة.. الكعبة المقدسة التي انمحت مع زوجته تحت التراب والحجارة، تظهر من جديد في جلد الأسير، مضرجة بدمه الذي أعادها للحياة، مبقية ذكراها للأبد في قلوب الذين قتلوها..

«هذه من أجل زوجتي» قالها عبد الله وصوته يتقطع بالبكاء..

ظن حينها أنه بما فعل سينسى صورة كتف امرأته وعليها النقش ولو إلى حين،

لكنه ظل يراه في كل شيء حوله بعدها كرمز لوجوده هو نفسه،

وحين غادر وهو يمسح يده الملوثة في قميصه وصوت نحيبه ما يزال مسموعًا، كان حسن يغرق ببطء في نوم حزين، بدمع جاف كرضيع بكى أمًّا غير موجودة حتى فقد قدرته على الاستمرا ر، وكان آخر ما سمعه صوت محمد وهو يصيح معترضًا بصوت نائم يحلم: «قلت لك يا أمي إني لن أعطي أي إنسان سيفي».

بإلهام غامض فتح محمود عينيه واعتدل في سريره، تثاءب طويلًا وهو يمسح شعره مرات وصوت زوجته يصله لطيفًا من الصالة الصغيرة وهي تداعب رضيعتهم، دائمًا يستيقظ فيجدها معه، تحرص ألا توقظه حينما تسبقه رغم أنه لم يعد يعمل بانتظام.

ظل يعمل حتى بعد أن توقفت الحكومة عن دفع راتبه، تملك الثوار مريمة فدفعوا له أقل مما كان يتحصل عليه لشهور، ثم اشتد الحصار واختفى المال وأصبحت الهضبة تعيش من دون سلطة فعلية، فانقطع عن عمله القديم..

إلا بأوقات متقطعة، بعد صلوات الجمعة غالبًا، حين يتأثر بموعظة أو آيات قرآن فيجد نفسه يفعل الشيء الوحيد الذي لا يستطيع سواه أن يقوم به، يفتح البالوعات الرئيسية بالقرية، ينزلها بحثًا عن سدات يطهرها، يتأكد من تدفق المياه والقذارة فيها من أنحاء الهضبة في مسارات متقاطعة تنتهي في أبعد نقاط الأحراش.

حين توقف زملاؤه عن العمل، قال الجميع بأن نظام الصرف بهذه القرية سيقتل الجميع بالمرض، ستتعطل الشبكة وستغرق الهضبة في وحلها الملوث بعد أن تنفجر المواسير بالشوارع دافعة القذارة، وتنضح الحمامات بالمنازل وتفيض مواضئ المساجد بالبول.

لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، هو نفسه لا يفهم السبب، لم تكن أعماله تكفي لصيانة الشبكة العتيقة، لكنها ظلت تعمل ملقية الصرف بعيدًا عن القرية التي ظلت حتى في أحلك

أوقـات القصـف نظيفـة.

لكـن اليـوم ليـس جمعـة، ولم يقـرأ قرآنًـا بعـد، لكنـه وجـد نفسـه يمـشي إلى خزانـة ملابسـه مسـتدلًّا بضـوء الشـمس الداخـل مـن نافـذة غرفتـه، يفتحهـا ويخـرج ثيابـه القديمـة، بدلـة عملـه الحمـراء بخطوطهـا الفوسـفورية التـي ترسـم أبعـاد جسـمه في الظـلام، كانـت زوجتـه وحتـى اليـوم تغسـلها لـه كل مـرة بعـد عودتـه، تسـاعده في خلعهـا ثـم تفردهـا متفحصـة، ترقـع أجزاءهـا الممزقـة وتسـخن المكـواة عـلى النـار لفردهـا قبـل أن تضعهـا مـن جديـد بالخزانـة.

وكان محمـود يعـرف أن رجـالًا أعظـم منـه، ببـدلات باهظـة أنيقـة لـن يرتـدي مثلهـا يومًـا، لا يحلمـون بعـشر هـذا الاهتـمام الـذي يتلقـاه في كل لحظـة بحياتـه معهـا مـن دون مقابـل سـوى الحـب.

لذلـك حـين يحتضنهـا ليـلًا، يكـون مدفوعًـا بالعرفـان والسـعادة الراضيـة أكثـر مـن اندفاعـه بالرغبـة الخالصـة، ورغـم كل الأغـاني التـي مـا يـزال يتذكرهـا عـلى دقـات إيقـاع راقـص تـتردد فيـه كلمـة «حـب» ثـلاث مـرات متتابعـة بصـوت مبحـوح رشـيق، إلا أنـه يعلـم أنـه لا حـب مثـل ذلـك الحـب الـذي يشـعر بـه معهـا والـذي لـن يتكلـم عنـه أحـد.

توقفـت زوجتـه عـن إطعـام رضيعهـا وهـي تنظـر إليـه مرتديًـا ثـوب عملـه القديـم، همسـت وهـي تبتسـم «حقًّـا؟!»، ابتسـم في حـيرة وهـز رأسـه وهـو يرتـدي حـذاءه ذا الرقبـة الطويلـة.

سـيمر عـلى مخـزن القريـة المهجـور ويخـرج عمـوده المعـدني المـرن الـذي ينظـف بـه القـذارة العالقـة متفحصًـا البالوعـات

الرئيسية حتى يتعب ويعود داره.

كان يعمل بشكل متقطع في مهن كثيرة، سباك تحت الطلب، أو حامل طوب من أجل إعادة البناء، وحلواني بمخبز أبو ظريف بمواسم رمضان والأعياد، وبمعجزة ما لم ينقطع الطعام عن داره يومًا ولم يجف حليب صدر امرأته من الجوع والتوتر مثل نساء كثيرة بهذه القرية.

انطلق قاطعًا الطرق المتربة، استمتع بحرارة الشمس النادرة بهذه الأيام على جسده مختلطة بالهواء البارد، مزيج أسعده حتى أنه فكر أن يعود ويحضر زوجته والأطفال للتنزه لكن هاتفًا داخليًّا طلب منه أن يستمر.

عكره حزن وهو يراقب الناس بطرقات مريمة، الكل متعب ومحطم بشكل ما، الهزال عام في الجميع، أحزنه أنه غير بعيد يعيش آخرون، نائمين على جوانبهم، يشاهدون التلفاز بدعة ويطعمون حيواناتهم بطعام لو وجد هنا لأكل الأطفال منه عن طيب خاطر، وإذا كانت الطير ترانا هنا في رحلتها فوق البلاد، فلا بد أن هؤلاء الناس كذلك يروننا ويعلمون بحالنا.

على الرغم من ذلك ظل راضيًا باليوم وبشكل غير مفهوم، استطاع في دهشة أن يرى جَمالًا مستترًا في كل خطوة يخطوها، وكنبي تم تبشيره بنبوة ابنه من بعده نظر إلى الناس من حوله والأطفال بنظرة اطمئنان، كل شيء سيكون بخير، هو واثق من ذلك، وهذه الأجساد النخرة المريضة والأعين الفائضة بدمع الذكريات التي تتأوه عندما ينغلق عليها باب دارها مستترة بالظلمة، سوف تضحك، سوف تغني

وستسـود، لـن يسـتمر كل ذلـك..

هكـذا فكـر وصـوت طـير محلـق يشـق السـماء وكأنها تـصرخ بفـزع،

تمامًـا حـين وصـل إلى البالوعـة الرئيسـية بمركـز القريـة غـير بعيـد عـن مسـجد صخـر،

وقـف ينظـر بتسـاؤل إلى غطائهـا المنـزوع عنهـا وهـو يـرى مـا يشـبه نـورًا خافتًـا ينبـض مـن باطنهـا.

ثـم سـمع صـوت اخـتراق يشـق السـماء وصرخـات هلعـة، اقشـعر جلـده وهـو يتذكـر أيـام القصـف ورفـع رأسـه للسـماء بعينـين مفتوحتـين ذعـرًا فـرأى الطائـرة..

وبـداره، كان مجـدي ينظـر مـن نافـذة غرفتـه محـاولًا إيجـاد طريقـة يسـتطيع معهـا إقنـاع زوجتـه بـترك صفيـة لتذهـب معـه إلى السـاحة، سـمع أزيـز هاتفـه متواصـلًا وكأنـه اتصـال، ارتعـش وهـو يجـري إلى خزانتـه، فتحهـا عـن آخرهـا وانحنـى عـلى قدميـه ملتقطًـا، طبـع كلمـة المـرور واتسـعت عينـاه وهـو يقـرأ الرسـالة التـي أرسـلت عـشرات المـرات ليتأكـد وصولهـا، «ابتعـد عـن وسـط الهضبـة»، قرأهـا مـرة ثانيـة محـاولًا أن يسـتوعب، ثـم صرخ وهـو يجـري نحـو بـاب غرفتـه «السـاحة!!»..

وظهـر المقـذوف الأول بالسـماء، رآه محمـود وهـو يسـقط بعبثيـة قاتمـة، أسـود غليـظ الشـكل، يتأرجـح هابطًـا بغبـاء شـديد، يـدور متقلبًـا وهـو يقـترب في حركـة بطيئـة وجـد خلالهـا محمـود الوقـت لكـي يذكـر أهلـه، ويخمـن أن المقـذوف سيسـقط بهـذا المسـار بعيـدًا عنهـم.

شعر باهتزاز الأرض قبل أن يأتيه صوت تكة خافتة تبعها انفجار عظيم..

دوووف...

مختلطة بصوت الاحتراق والتهشم، مدفوعة بالأجساد المنصهرة، معظمة بالبكاء والصراخ المستجير.

ما الذي ذكر أولاد الحرام بنا، وكانوا قد نسونا منذ أيام قصف المسجد؟!

«اهرب تنجو» هكذا فكر، لكنه من دون وعي وجد نفسه ينطلق للساحة القريبة وعيناه شاخصة للسماء حتى أنه كاد أن يسقط مرات وهو يتابع الطائرة تطوف من فوقهم، دفع بيده في حوائط البيوت محاولًا أن يحفظ اتزانه بالطريق الذي قطعه عشرات المرات مع زوجته من أجل إرضاع إسماعيل أو إهداء الحلوى، كان كلما اقترب ازداد الدخان الإسمنتي، شم رائحة الاحتراق مختلطة برائحة بازلاء مطبوخة بدار قريبة، وأصابه ذعر من أن تكون المئذنة قد سقطت تمامًا وكأن الله ينفض يده منا للأبد...

لكنه لمحها قبل أن تنفتح أمامه الساحة كاملة ويرى أهلها وصوت المقاتلة يتعاظم أعلاه، رأى الطفلين وهما يبكيان بذعر، محمد بسيفه الخشبي وأخته وإلى جوارهم الرضيع إسماعيل ينظر للسماء في غير فهم لكن عيناه تلمع بنظرة غاضبة كالكبار، أسر مرآه بهذا الحال قلبه فدق دقات متتابعة بغير لحن منتظم، وكأنه خارج من صدره، ورأى عبد الله يجري من نهاية الساحة وهو يصيح فيهم أن يقتربوا منه..

جـرى محمـود نحوهـم، تلقـف الصغـير مـن دون انتظـار فلاصـق خـده أنفـه وللحظـة شـعر أنـه اشـتم رائحـة جلـد زوجته فيـه وهـو يـصرخ في عبـد الله أن «عليـك بالآخريـن واتبعنـي».

ووقـف العميـد عـلى أعـلى تبـة بالصغـرى يرقـب السـماء، مـا أصغـر مريمـة وهـذه الطائـرة تـدور فوقهـا..

هل تجد فيها ما يمكن أن تقصفه؟

وكذلـك رآهـا حسـن الـذي نسـيه الجميـع، رفـع رأسـه إليهـا ورآهـا تطـير فوقـه وكأنهـا قادمـة مـن أجلـه، انفلتـت منـه شـهقة دامعـة وهـو يتشـبث بيـده في طـين الأرض تحتـه ورجـلاه تضربـان فيهـا بـلا أمـل، وظهـر مجـدي... رآه وهـو يقطـع السـاحة الخاليـة مفتشًـا بعينيـه في كل زاويـة فيهـا، دخـل الخيمتـين وهـو لا يكـف عـن النـداء، وصرخ حسـن «أنقـذني!»،

وضاقـت عينـا العميـد وهـو يـرى مقذوفًـا جديـدًا يسـقط مـن الطائـرة، خفـض رأسـه وهـو يمسـح عـلى جبينـه...

وتنـاول مجـدي الخيمـة الصغـيرة، انتزعهـا مـن الأرض بعنـف وهـو يجـري باتجـاه حسـن وألقاهـا عليـه وهـو ينظـر للسـماء فـيرى القذيفـة تقـترب أكثـر، وأظلمـت دنيـا حسـن، للحظـة هيـأ لـه أنـه رأى جنـاح طائـر عظيـم أبيـض إلى جـواره، ثـم أظلـم كل شيء وانفجـرت حواسـه بقـدرة عجائبيـة اسـتطاع معهـا أن يميـز صـوت القذيفـة وهـي تشـق الهـواء للأسـفل، واشـتم رائحـة معـدن صـدئ مثلـما اشـتم عبـد الله ومـن معـه رائحـة مسـكية غامضـة، وهـم يختبئـون داخـل المجـرور الـذي قادهـم إليـه محمـود، تلفـت عبـد الله بحثًـا عـن مصـدره بدهشـة وللحظـة شـك في أن تكـون الرائحـة قادمـة مـن خشـبة محمـد لكنـه نسـى

كل شيء والأرض ترتج تحته فيسقط على وجهه محتضنًا طفله وتضربه رائحة مياه الصرف القميئة...

وفي أرض مكة رأى الشاب المكي محمد رؤيا عجيبة..

رأى العالم من الأعلى..

الشرق الأوسط وما جاوره..

رأى التماعات كومضات باهتة تظهر، ثم ما تلبث أن تختفي في نقط متفرقة بأرضنا..

لكن عينيه ارتبطت بنقطة واحدة..

شعر وكأن قلبه ينبض تمامًا مقيدًا بوقت إضائتها التي استمرت دون أن تنحسر..

اقترب منها مأخوذًا وكأنه يلبي دعوة علوية..

بدهشة ميز النبضة المضيئة..

ميز البناء المكعب الذي يراه كل يوم وسط زحام الطائفين والفنادق التي تطاولت عليه...

مرمريًّا، مكسوًّا بالأبيض، منقوشًا عليه عهود الله بدم الإنسان..

وميز عنده بئرًا لا يعلم عنها شيئًا إلا أهل مريمة..

أمامها وقف عاجزًا ومن خلفه كعبته العتيقة...

كعبته التي رآها وهي تتلون بلون جديد وكأنها كسوة أخرى تتخلق حولها، تتداخل فيها ألوان كعبة مريمة...

وبكى وهو يرى نقوش الدماء تتحول قطرة قطرة إلى رجال ونساء وصبية، بحركات متقطعة وكأنها رقصة على

إيقـاع غـير مسـموع أو نقـوش حكايـة مرسـومة عـلى جـدار مقـبرة مصريـة، تتحـرك مـن جـدار مريمـة إلى كعبـة الله الواحـد ثـم تنطبـع عليهـا..

كل رجل حرف..

كل طفل تشكيلة..

والمرأة زينة حزينة تحيط بالكلمات...

انتهى القصف..

وامتلأت حاراتنا بحطام جديد..

انبلـج كل حـي بصراخـه الخـاص مِـن أجـل مَـن انسـحق تحـت الـركام...

وتقاطر ناس إلى الساحة..

كأنهـم أهـل مكـة والحجيـج بعـد أن قصفهـا الحجـاج با لمنجنيـق ...

دخلت دميانة،

بخطـوات مـترددة، تهتـز بعينيهـا صـور الأشـياء وهـي تقـترب..

النبع.. ما يزال ماؤه يتقاطر من الفوهة ببطء شديد،

السـاحة نفسـها تتصاعـد منهـا أدخنـة كقطـع سـحاب تعلـو ببـطء ومعلـم آخـر يتضـح مشـوهًا مـن خلفهـا،

منـزل مـؤذن الحـارة المهجـور، الشـيخ محمـود زكـي، قـد تهـدم،

بـدا كعمـلاق ضخـم لم يبـق منـه إلا فـم مفتـوح ألقـى كل مـا في جوفـه إلى السـاحة،

مشت فوق الحطام مع الماشين،

لكنها التفت إلى المئذنة..

وضعـت يدهـا عـلى فمهـا تكتـم صرخـة وهـي تـرى القماشـة الداكنـة التـي احترقـت،

ميزت من انبعاجاتها أنه ما يزال هناك،

وعجزت عن أن تكمل المسير..

ومن ناحية المئذنة نفسها دخل عبد الله ومحمود والأطفال،

زفر عبد الله وهو ينظر إلى الساحة، انقبض وهو يتذكر منزله القديم وأولاده تحته،

التفت إلى يساره ينظر إلى محبس أسيره،

كان بخار ينبعث ببطء من حواف القماش المحترق،

اقترب منه، ابتلع ماء حلقه، نظر خلفه ليتأكد أن الأطفال لن يروا،

وسحبها...

فارتطمت عيناه بعيني حسن،

وزفرت دميانة بغير تصديق ونبضة قلب تنفلت منها،

نبضة انفلتت من صدر عبد الله أيضًا،

طويلًا نظر إلى حسن، ارتعش ببرودة متوجسة حين مشى إليه إسماعيل وألقى نفسه على صدره،

تلقفه حسن وأغمض عينيه بشدة وللحظة شعر أنه بخير، كالأيام الخوالي..

سحبه عبد الله وعيناه لا تغدرانه، واقترب منه مجدي وهو ينظر له بدهشة وهمس «قد نجوت!»،

ومن بين الناس مشى شيخ الحلوى،

كانت بعض خصائص الملائكة قد بدأت تعود إليه وهو ما آلمه بقدر ما كان يظن أنه سيسعده..

فاستطاع أثناء سيره أن يرى الساحة في شكل مختلف عما هي عليه الآن، رأى قطعة قماش عملاقة تغطيها، معلقة من أعلى نقطة صلبة بالمأذنة المكسورة، وعماد بيت عبد الله الإسمنتي، وبشرفة دار الشيخ محمود الذي ما تزال باقية رغم تهدم ما حولها.

رأى عليها نقشًا عربيًّا، حاول فك رموزه فآلمته عيناه وكأنه ينظر للشمس،

وخفق قلبه البشري وهو يمر بين أهل مريمة،

احتضن أطفالًا، لامس أكتاف الرجال مواسيًا، نظر للنساء بإشفاق ومسح دمعًا من عينيه.

نطق لسانه باسم الله... وسمع أحد الرجال وهو يدور حول الركام متفحصًا بحيرة وهو يتلو القرآن {وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابًا شديدًا}، فتوقف الشيخ في دهشة وهو يسمع الآية للمرة الأولى وفكر إن كان الله يحبنا نحن البشر لذلك! ولم يعلم أن هذه الآية تتبع آية الحجارة والحديد ببضع أسطر فقط.

مر من جوار النبع، لم ينظر إليه، اقترب من عبد الله..

تلقف منه الرضيع، احتضنه طويلًا،

وهمس لأبيه بما يراه ..

«كعبة امرأتك هي هذه الساحة يا عبد الله».

اعتدل عبد الله بانتباه قلق، نظر إليه وكاد يمد ذراعه ليأخذ ابنه منه وشعور بالغثيان يتملكه حين تذكر النقش من جديد، لكن الشيخ تابع والرضيع ينسلخ من بين ذراعيه:

«رأيـت الملائكـة اليـوم، جـاؤوا بكسـوة كاملـة للسـاحة مثـل كسـوة الكعبـة البيضـاء العتيقـة، مثلـما كسـاها أبـو بكـر وعمـر وعثـمان».

وابتلـع عبـد الله مـاء حلقـه بصعوبـة والصغـير يمـس خـده برفـق دافـئ، رفـع رأسـه للسـماء فتخيل شـكل السـاحة والكسـوة تغطيهـا، والنـاس أسـفلها مسـتظلون بظلهـا العظيـم متذكريـن معجـزة نبـع المـاء والطمأنينـة الربانيـة التـي جـاءت منـه.

ربـما يكـون هـذا مـا يجـب أن يفعلـه مـن أجـل زوجتـه؟ هديتـه الأخـيرة لهـا، أن يخلـق وشـمها عـلى سـاحة الحـارة كلهـا بالقـماش.

وحـين أنـزل رضيعـه الأرض رأى قطتـه تخـرج مـن تحـت ركـن متهـدم وخلفهـا رضيـعٌ يتقافـز، فقـال متعجبًـا بغضبـة: «أنـت بخـير!»، ونظـر إليهـا متأمـلًا وهـي تتلمـس قـدم شـيخ الحلـوى بوجههـا كصديـق قديـم..

«الكعبـة تحمـي مـا تحتهـا يـا عبـد الله» قـال لـه الشـيخ وهـو يغـادر.

في ذلك اليوم ترسخت أسطورة المكان أكثر..

حتى أنه بتلك الليلة، حين سرت نسمة باردة في أرجاء مريمة، جاء حمزة نفسه ملتحفًا برجاله في هالة أسطورية خشنة لم يحاول أن يخفيها هذه المرة؛ لأنه يعلم أن الناس تحتاج أن تراها..

دخل إلى الساحة المظلمة فتوقف عبد الله ومجدي باحترام ينظرانه وهو يقترب..

بمجيئة جاء آخرون، رجاله، أمراء حربه، جيران عبد الله وأصدقاؤه، محمود وزوجته وابنه، وحتى دميانة..

عائلات كثيرة من مريمة أرادت أن تتجاور، وتتقوى بقربها من بعض، بدا وكأن الحرب تقترب منهم لكنها تأتي هذه المرة وإحساس دافئ يلف هذه الهضبة عوضًا عن الخوف..

أو مجاورًا له.

جاؤوا حاملين ما استطاعوا أن يحضروا من طعام..

في حلقات متقاربة جلسوا..

وحكوا الحكايات..

وتكلم عبد الله قائلًا أنه سيخيط ثوبًا يغطي الساحة كلها لتصبح دارًا مفتوحة...

وتبسم صاحب الحلوى لما قال ذلك..

ولما أرادوا السمر غنى منشد القرية..

أغنية قديمة لأحمد شوقي..

نهج البردة...

باللحن الذي غنته به أم كلثوم..

بدأ غناه بطيئًا، شجيًّا ومتأنيًّا..

مثلها تمامًا...

حتى غنى معه طفل من وسط الجلوس،

جاء صوته طفوليًّا عابثًا، نطق الكلمات العظيمة بطريقة بريئة مضحكة..

وحرك شاب أصابعه على أوتار جيتار قديم، نغم عليه لحنًا جديدًا للأغنية القديمة، استوحاه من موسيقى أجنبية عن هذا البلد...

آآآآه يا أحمد

تواريا بجناح الله واستترا

ومن يضم جناح الله لا يضم

آآآآه يا أحمد

لي جاه بتسميتي

وكيف لا يتسامى بالرسول سمي

لحن غربي؟ أضحى الآن عربيًّا.

وطبل رجال بأيديهم على أي شيء أمامهم، الصخور وبقايا الأطباق أو صفقوا ببساطة...

وأصبح الإيقاع الرتيب راقصًا، بلا قيود، شديد الإنسانية إلى درجة إحداث حزن بالقلب..

والتمعت الأعين بدمع مكتوم، كرجال عائلة واحدة

تجاوروا على الكراسي بصالة مظلمة بعد أن ألقوا نظرة وداع على جسد جدتهم الذي غسل من أجل الدفن..

ومشى إسماعيل بخطواته المتعثرة بين الجميع بما يشبه الرقص..

ونظر حمزة لأهل مريمة،

نظر إلى الجميع وابتسم ثم انفلتت منه ضحكة حين رأى الرجال ينشدون معًا،

ورأى الجالسين يصفقون وكأنه لم يحدث موت بالصباح..

واستبشر..

حتى أن ابتسامته لم تغب وهو يرى ابنة عمه دميانة تقترب من المئذنة..

عند الهلال تقف،

أمام حسن الذي يشاهد دون كلام وفي عينيه دمع شجن،

تجلس أمامه، تنظر إليه طويلًا قبل أن تهمس «لماذا؟»،

ويرفع عينيه إليها، ينبض قلبه بأمل ظنه مات هذا الصباح وحرارة الاحتراق تقترب من قماشته، يلمس شفته بلسانه ويجيب بصوت متهدج «من أجل ابنتي»،

ويحمر خداها بانفعال كتمته وهي تسمع قصته...

تتابع قطرات دمع على خديها وتغمض عينيها، فيتمثل لها رضيعها ومن خلفه إخوته..

وهي تمسح دمعًا حاولت ألا يراه أحد.

بدأ العمل بالكسوة في اليوم التالي.

هؤلاء الذين سهروا مع عبد الله من أهل القرية أحضروا قطع الثياب.

لم يكن معظمها قديمًا أو باليًا، لكن كثيرًا منها كانت ثياب الذين رحلوا في أيام الحرب.

البعض تبرع بثياب كان يحتاج إليها، لكنه أراد أن يشارك في خلق كسوة الساحة بها.

وجاء خياطوا مريمة إلى عبد الله،

فتحوا الثياب، خربوا رسمها، جعلوها قطعًا بلا معالم، ربطوها ببعضها، الكم بالكم والساق بالساق، قميص خيط في ثوب صلاة وعباءة امرأة ببدلة عيد طفل مقتول.

بعض تلك الملابس كان ما يزال محتفظًا ببقع الدم عليه، بعضها نقش عليه بحروف غريبة أصر عبد الله أن يطمسها.

هكذا التحمت القطع وزاد حجم القماشة حتى أنهم باليوم الثالث اضطروا أن يطووها أكثر من مرة، وبعد أسبوع اتخذت موضعًا جوار حسن، مطوية بطول يصل إلى منتصف جسده الجالس.

حسن الذي زاره مجدي بتردد في البداية..

ثم استأنس به،

وأمام عيني عبد الله المندهشتان جلب له طعامًا من منزله، وجلس معه يتبادل الأحاديث الطويلة.

أراد مجدي أن يسمع واحتاج حسن أن يحكي عن ألمه،

ومـرت ليـال انحفـرت فيهـا قصـة «زهـوة» في صـدر مجـدي. أصبـح دمعـه شـديد القـرب منـه حتـى أنـه بكـى وهـو يحـاول أن يصـلي مـن جديـد وحـده بليلـة بـاردة.

وشعر بطريقة ما أنه يحمل عدوى مرض حسن نفسه،

يده ملوثة مثله،

يخاف أن تمس بناته،

ملوثة بضغطات متسارعة على أزرار هاتفه السري،

تمنى لو كان يستطيع أن يحكي قصته مثله،

قصـة خطـأ لم يشـعر بأهميـة لـه بالبدايـة، لكنـه الآن يقتلـه كل لحظـة،

ذنـب قديـم يتمنـى أن يمحـوه لكنـه سـيظل يتبعـه حيًّـا، وكأنه ابـن أنجبـه مـن بغـيٍّ في ليلـة زنـا،

لا يمكن الفرار منه أو نسيانه،

وفكـر في حـسرة كيـف اسـتطاع أن يفعـل ذلـك الذنـب مـن قبـل؟.

أين كان قلبه؟.

فكـر في أن قلبـه ذلـك كان مدفونًـا بأحاديـث زوجتـه عـن مـوت بناتـه،

بخوفـه مـن أن يلملـم أشـلاءهن مـن بـين أطـلال بيـت متهـدم،

مدفونًـا تحت ألمـه حـين تـصرخ فيـه امرأتـه أيـن الطعـام؟ أيـن الـدواء؟ وأيـن المـال؟

وكأنهـا شـيطانه الخـاص الـذي جعـل خيانـة مريمـة مقبولـة مـن أجـل ذلـك.

تذكر كلمات الضابط السري المقبضة..

«صالحُ الدولة أهم من الناس الثائرة كالنعاج..

لا تغـتر بكثرتهـم ولا مشـاعرهم؛ لأن هـذه القريـة بالنهايـة قـد تكـون مجـرد قريـة ثموديـة أخـرى تسـتحق الهـلاك».

الوعد بأنه محمي، وكذلك أهل بيته،

بـأن المـال سـيصله دائـمًا، وعنـد النهايـة سـيكون هنـاك ممـر آمـن مـن أجلهـم..

بكى مجدي وهو يتذكر وينظر للرضيع بالساحة في الظلام،

الرضيع الذي لم يتفق اثنان على وصفه،

واحتارت النسوة فيه،

فقالـت واحـدة، مـا أشـد نحولـه وحاجتـه للطعـام وهـي تحـضر أطبـاق الطعـام،

وقالـت أخـرى، مـا أشـد جمالـه وأحسـن خلقتـه، قـد امتـلأ مـن كثـرة الرضـاع،

وأخريـات بكـين حينـما رأوه؛ لأنـه يشـبه أبناءهـن الذيـن ماتـوا..

أسـمر وأشـقر، لـه وجـه مـن أجـل كل زائـر يختلـف عـن الآخـر، ضاحـك ومـلي بالحـزن..

وجـد فيـه كل إنسـان مـا يحتـاج إليـه، ودفـع كل إنسـان إلى أن يفعـل شـيئًا مـن أجلـه،

مثل كعبة كاملة..

لا يدعون الله به، ولا فيه،

لكنهم يدعون الله عنده،

يتذكرونـه بشـجن صـادق افتقـد أكثـر أهـل الأرض الشـعور بـه..

لذلك يزوره مجدي كل ليلة حتى لو صرخت فيه امرأته،

هـي لا تفهـم، لا تفهـم أنـه لا يهـرب مـن طفلتيـه كـما تقـول؛ لأنـه يراهمـا في عينيـه حـين ينظـر إليـه..

يراهمـا في نعمـة وعافيـة، محميتـان بـالله نفسـه الـذي يأخـذ بأيديهـن ويحفظهـن حتـى وإن لم يتوفـر الـدواء عنـد المـرض والطعـام عنـد الجـوع..

ستكونان بخير..

عـلى الرغـم مـن شـيطان امرأتـه الـذي يعـده بالفقـر في كل لحظـة.

هكذا تطهر مجدي..

تصاعد في آيات سورة الفاتحة..

من الأسفل إلى الأعلى..

من المغضوب عليهم والضالين إلى الصراط المستقيم..

ممسكًا بالهاتف الأخير في مريمة،

تتعـرق أصابعـه عـلى أزراره القديمـة، وأمامـه ورقـة كتبـت عليهـا أرقـام منـزل حسـن،

متجاهـلًا رسـائل مكـررة تطلـب أخبـار السـاحة بعـد

القصــف..

يتساءل في حيرة كيف علم النظام بأمرها،

كيـف فهـم أن بدايـة خلـق جديـد تنبـع فيهـا، وكأنهـا أسـطورة تتكـون أو مقـام صالـح يبـدأ النـاس في التوافـد عليـه..

غمرتـه كآبـة وهـو يفكـر أنـه ربـما يكـون هنـاك خونـة مثلـه بمريمــة، ربــما ليـس الوحيـد..

وفكر في أنه لن يطيق الحياة من دون وجود تلك الساحة..

من دون عبد الله وابنه،

أبناء أخته، وحسن..

ومشى مجدي إلى باب غرفته،

ببـطء دفعـه مغلقًـا إيـاه، ثـم أدار المفتـاح فيـه رغـم صيحـة زوجتــه المحتجــة،

جلـس خلفـه مسـندًا ظهـره لـه، وبإصبـع مرتعـش طلـب الرقــم..

رقم دار حسن.

من زاوية رؤية لم ينظر بها من قبل، جلس حمزة ومعه أربعة من أمراء القتال يشاهدون شاشة تعرض أمامهم مريمة كما لم يرها أحد من قبل.

من زاوية طائر، طائر هادئ، يطير بدوي منخفض، يهتز ببطء شديد يكاد يكون غير ملموس، الكاميرا تلتقط بما يشبه المعجزة، صور كل الأشياء من تحتها وهي تبدو من ذلك المنظور مختلفة عن مظهرها الذي اعتادوا عليه..

بدا النظر من خلالها وكأنه يتم بعيني ملاك مقتدر يبسط أجنحة فوق الأرض الفقيرة إلى جوار عظمته..

انطلقت الكامير فوق المساكن الغربية لمريمة حيث يسكنون، مرت بالبيوت المتهدمة وتلك السليمة، بدت كلها كتلة واحدة من الخراب يُستبعد أن يعيش بها أحد، لكنهم يفعلون.

استطاع حمزة رؤية الأسطح المهملة وتلك التي ملئت بالطين، كأنها فدان زراعي أنبت خضروات للمعوزين الذين يعيشون تحته..

ها هي حارة الشيخ شاهين، التاجر ذي الأصول المختلطة، تركية وفلسطينية وحجازية. ترك تجارته حين وصل إلى مريمة، تزوج بها وتصوف، وحين ماتت زوجته شرع في إعادة ترميم الجامع القديم وكان قد هُجر، اختار إعادة بنائه بالصخر وليس الطين كي يبقى، ومن هذا اشتق الجامع اسمه بعد تمامه، يقول القدامى من أهل القرية أن كل عائش فيها رأى نفس المنام ليلة موته، رأوا وكأنهم يخلعون سنًّا من داخل أفواههم، سنٌّ انخلعت ببساطة ومن دون ألم إلا نغزة

سريعة بالصدر وشيء من الكدر والقلق عندما استيقظوا.

ثم ظهرت الأطلال الحزينة لصخر، مبعثرة بنظام كوني، أسوار متهدمة وحجارة بيضاء متناثرة منها، غرف فارغة كان العلماء الزائرون يبيتون فيها، وكذلك ركبان الحج من القرى والهضاب القريبة في أيام ما قبل السفر بالطائرات، كانت هذه الغرف قد أصبحت أماكن لحلقات تحفيظ قرآن قبل الحرب، ثم أصبحت مأوى لمن تهدمت مساكنه بعدها.

مرت على الساحة وفيها الخيمتان، السليمة والمحترقة، وابتسم حمزة وهو يرفع حاجبيه عندما استطاع أن يميز حسن المربوط إلى منارة المسجد المكسورة التي بدت من منظور الطائرة الصغيرة وكأنها إصبع ينحني في وسط تشهد أخير، رأى يارا وهي تركض خلف أخيها ومن خلفها الرضيع بفم مفتوح، وكأنه يصيح بجذل، للحظة تسمر نظره عليه وكاد أن يلتفت للخلف سائلًا طالب الهندسة العبقري الأسمر الذي يمسك بأداة التحكم أن يتوقف، ويستمر فوق هذا الموضع ولو قليلًا، رأى الرضيع الذي كان يبدو نحيلًا، رجلاه نحيفتان لا يمكنك أن تفهم إن كانتا قادرتان على حمله، لا يبدو جسده قادرًا على أن يفعل أكثر من أن يعيش، رآه وهو يركض متحديًا كل القوانين وكل ملحوظاته بخصوصه، يركض وفي كل لحظة تشعر أنه سيفقد توازنه...

«سيقع الآن»، هكذا فكر حمزة لكن الطفل واصل ركضه وسلسال أمه يتراقص على قميصه حتى لامس ظهر يارا، وإلى جوار حمزة كان عاكف، أحد أمراء الحرب وأكثرهم قسوة ينظر إلى المشهد نفسه، يضغط بتوتر على اللحم المندمل لإصبعه المقطوع وينظر الطفل الذي بدا أمامه قويًّا له جسد لا بد أنه سينمو ليكون جسد رجل شديد المراس، رآه وهو

يقترب من الفتاة، وقال لنفسه وهو يبتسم: «الآن يمسك بها ويسقطها أرضًا»، لكن الرضيع لما لمس جسد الطفلة والتفتت إليه، قفز بين ذراعيها محتضنًا إياها، وأفلتت نبضة من قلب عاكف وهو ينظر بدهشة.

وعبرت الطائرة الأطفال، رأى الرجال قطعة القماش التي أصبحت بمساحة تقترب من أرضية شقة كاملة، بألوان متداخلة، قد وحدتها لفحة الشمس الماحية وخيوط غير منتظمة ميز فيها الرجال بتعجب قمصان أصدقاءٍ لهم وآباءَ وأطفالٍ.. للحظة تبدت وجوههم فيها وهي تنظر لهم بصبر متأنٍ.

وأكملت الطائرة مسيرها، عابرة البالوعة الكبيرة؛ حيث اختبأ محمود وعبد الله يوم القصف، والحارات المحيطة بها، والمدرسة القديمة حيث تجمع أطفال قليلون بكتبهم التي تبدو أوراقها كأوراق الملفوف، ومدرسوهم الذين بدو كأشباح حية، عبرتهم إلى الشارع التجاري، بداياته محلات خالية، والمخزن العظيم ما تزال لوحته الرخامية تحمل اسم البيطار بنحت هائل ومزخرف مذكرة إياهم أنه وإن مات فإن أسطورته خالدة،

مرت بمخبز أبو ظريف الذي لم يتوقف يومًا عن العمل رغم أن أربعة ملاك توارثوه في أقل من ستة أشهر ورغم أن الحصول على القمح يشبه المعجزة، ورغم أن الحرب قد قتلت أغلب طقوس رمضان والعيدين...

لكنه ما يزال هنا، يصنع كل الأشياء التي كان يصنعها قبل الحرب حتى أن حمزة شعر برغبة ملحة ومفاجئة في الذهاب إليه الليلة وشراء حلوى أم علي،

لم تخفت رغبته تلك إلا حين ظهر الجسر أمامهم،

مُحطَّمًا بانفجار قصمه من المنتصف، متربًا وكأنه قد مر بألف عاصفة رملية، مهلهلًا وكأنه قد صنع من الورق لا الإسمنت والطوب، ما زالت النقوش التاريخية ظاهرة على بعض أجزائه وما تزال أعمدته الاثنا عشر قائمة،

ثم المزارع...

المساحة الواسعة الخضراء بكل أشجارها وبركها وورودها البرية وقنواتها الجافة وطينها المشقق وجحور الأفاعي ومآوي الكلاب وجراويها وسلال القطف المتروكة ودور الفلاحين المنثورة ومخازن الغلال المفتوحة منذ خلت أو أحرق الهاربون من السجن ما فيها،

وبدأ الميل يظهر، الأشجار تتوارى إلى الأسفل وكأنها تغرق، تتحول عن نظامها إلى شبكة متداخلة من العروش الخضراء والنباتات العشوائية والأفرع المتهدمة، لمسافة طويلة طارت الطنانة، مسافة تقترب من الميلين، هنا أصيب حسن، وهنا تقطعت أجزاء جسده وغاب بينما الرؤيا تتكون في عقله، هز حمزة قدميه بتوتر وهو يضغط على برطمانه المملوء بالشاي، تابع الرجال من حوله أيضًا بانتباه تامٍّ وصمتٍ شاملٍ، حتى أن دخان سجائرهم تباطأ في الهواء، الحزام الأخضرً وهو ينتهي بغابته الكئيبة وأول بيوت الهضبة الصغرى يظهر، دور متناثرة تزداد كلما قطعت المسافة، جلها محطم عن آخره لكن بعضها ما يزال سليمًا وكأن أهله فيه، أحياؤها واسعة؛ لأن الحياة فيها لم تبدأ إلا منذ ثلاثين سنة، وأفلتت شهقة غضب من أحد الرجال وعلم النظام يظهر مرفرفًا، مغرورًا بعظمته وكأن شيئًا لم يكن، وكأن كل الذين قتلوا لم يموتوا وكأن كل المستشفيات والمدارس والمقاهي والمساجد وحلقات العلم وأسوار بيع الكتب والكباري

والمدائن وآثار الأنبياء والذين اتبعوهم والذين اتبعوا من اتبعهم لم يُهدم منها شيء..

كيف تصالحت معه الريح فأورثته لمسة رفرفة أعلام روهان!

لكن كل الأعلام لو وضعت في عكس اتجاه الريح بدت عظيمة ولو كان علم دواود نفسه...

كان أول ما ظهر من تجهيزاتهم المباول، متجاورة في خط مستقيم، لها لون بلاستيكيٌّ أبيض ورخيص، ثم تكتلات الدبابات، استطاعوا أن يروها واحدة بعد الأخرى ويميزوا أنواعها، ثم سيارات حمل الجنود الذين تناثروا بلا نظام في أحواش الدور وعلى المصاطب ونيامًا على فرشات ملقاة على الطين،

استطاعوا تمييز الأسلحة وأماكن التجمع وخطوط السير، الطوابير والمطعم الكبير والتل القريب وخيمة القيادة، الحارات المفتوحة والأخرى المغلقة بحطام البيوت وأماكن المؤونة،

استطاعوا أن يروا الجنود المسؤولة عن الطهي والخيمة الطبية وأتوبيسات النقل..

انكشف أمامهم كل شيء، واضحًا وواعدًا إياهم بنصر تام إن تحركوا...

وكان أول من تحرك هو حمزة الذي توقف قائلًا وعيناه تلمع بشجن «فلنستعد!»، قالها وهو يضحك في إثارة تامة والتفت إلى المهندس الشاب، ثم شده محتضنًا وهو يغالب دمعًا خبأه، بينما الأخير يحاول ألا يفلت جهاز التوجيه من يده.

صوت همهمات متداخلة بالساحة...

رجال ونساء، عائلات كاملة وقفت بالظلام...

حتى حمزة وقف وحده تحت سور الجامع وعيناه لا تغادر مدخل الساحة من جهة حارة شاهين...

وعم صمتٌ حين دخل الشباب وقادتهم...

بهدوء وانسجام،

يمكن أن تسمع نبضات قلوبهم المنفعلة،

يمكن أن ترى سلاحهم، ذلك الذي ورثوه عن جنود النظام الهاربة، وبنهايات مواجهات قديمة أو حتى من أجداد حملته يومًا حين كان مسموحًا للعرب بحمل أسلحتهم الخاصة بالدور مثل بلاد غربية كثيرة اليوم.

واعتدل عبد الله وهو ينظر إليهم، ارتعشت أجفانه ولسع قلبه برد مفاجئ حين ارتفعت زغردة في المكان من امرأة واحدة، تبعتها عشرات من كل امرأة فيه...

وتنهد حمزة وهو يمشي نحوهم...

لكن اسمع...

تلك الزغاريد...

مثل الكلام العنيف تعلو، هي النساء عندما تتوعد، مثل قسم نسوي مخيف، إنا منتقمون، سنقتلكم شر مقتل، مثل تهديد محسوم لا يمكن للمهدِّد به التراجع أو التوبة عن ذنبه من بعده...

هكذا فكر حمزة وهي يجاورهم عابرًا،

وبدا كل شيء في نظره وكأنه يتحرك بتصوير بطيء...

ميز نظرات التصميم،

والخوف،

والضحكات المتوترة،

والدمع الذي يكتمه صاحبه وأمه تحتضنه مودعة وباكية،

ميز رائحة العرق الوردية التي دائمًا ما تفوح من الشهداء،

وتلك اللمعة في أعينهم من لحظة إلى أخرى، لمعة ساهمة وكأن الروح داخله تلتقط إشارة ما بأنها ستعود إلى مصدرها،

دخل بين الشباب، احتضنهم، قبَّل جباههم، ربت على أيديهم وانسكب شايه الدافئ من برطمانه على ملابسهم، مسح على شعورهم وتبادل معهم الأحاديث.

«اللهم إنا عيالك...

هؤلاء بالهضبة الأخرى من جنود عيالك،

لكنهم بغوا علينا، حاصرونا وقتلونا،

وفضلوا جدران دولة متهدمة على قلوب صنعتها بيدك في صدور الناس»،

وخفض رأسه وهو يغالب دمعه وقال: «أما كان ليسعدك لو أن هابيل قد دافع عن نفسه أمام قابيل وقتله؟».

وربت عبد الله على يده،

ناوله صحن حلوى جيء به إلى الساحة مثل كل يوم،

ورغم بساطته التي عرف بها، بدا حمزة أكبر من الحجم الذي طالما وُضع فيه، رغم اختلاجات صوته ومقاطع الحروف التي كثيرًا ما تخرج متعثرة من فمه وكأنه مريض ألزهايمر،

لكنه بدا شديد الصدق،

محبًّا من قلبه، خائفًا على الجميع كأنهم أبناؤه،

لذلك تأثر في حضنه بعض المقاتلين،

دمع بعضهم وجسده يهتز بين ذراعيه،

واقتربت منه الأمهات بصمت،

صافحنه وكأنهن يصدقن على عهود خروج أبنائهن للقتال،

وفكر حمزة أنه ربما كان قابيل يصلي مناجيًا الله بالليل، ربما كان يحتضن رضيعه الذي أنجبه من أخته بعد أن تزوجها، ربما كان يساعد أباه في بعض الأوقات،

لكن الله مقته،

لأنه قتل ابن آدم الآخر الذي كان يحبه،

هكذا منَّى حمزة نفسه،

لأنه منذ خطط للهجوم يتساءل...

مع من يقف الله في هذه المعركة؟

في تلك الليلة تحرك شيخ الحلوى مأمورًا.

قبل الجنود كان هناك ينتظر في الأحراش..

أما محمود فكان آخر ما رآه قبل خروجه هو زوجته وأطفاله، كثير من الرجال مروا على الساحة قبل التحرك بنزعة غامضة للتبرك ولكنه لم يفعل، أراد أن يكون آخر ما يراه من قريته هو أهل داره، هكذا رافقته أنفاس زوجته التي قبلها طويلًا بعد أن غادر منزله، كذا صوتها الرقيق الباكي.

ولما كان الاتفاق على أن يغادر الرجال مريمة متفرقين قبل أن يتجمعوا بنقطة محددة بالهضبة الصغرى استعدادًا للهجوم، فقد كان أمامه ساعة كاملة قبل أن يرى أي أحد.

كان عدد هؤلاء المقاتلين تسعة وأربعين،

على عادة حمزة الذي كان ينفر من الأعداد الكاملة القابلة للقسمة ويميل دومًا إلى إنقاصها وليس زيادتها، من غير المسموح به أن يكونوا واحدًا وخمسين، كان ذلك وسواسه الخاص الذي لم يحاول أن يقاومه، يهمس عقله أن الفرد الذي أنقصه من العدد الكامل، هو رجل كان قد وجب موته لو كان أرسله وهو الآن يحميه،

وتمثل له شيخ الحلوى في صورة صخرة عملاقة جعلته ينحرف عن طريقه مرة بعد مرة في اتجاه رسم من قبل..

وكان الشيخ قد حسب اتجاهه بدقة،

يعد الخطوات..

واحد..

اثنان..

ثلاثة..

ثـم يثبـت والسـواد يكللـه فينحـرف محمـود في الاتجـاه المـراد لـه..

وعنـد أطـراف القريـة نـزل محمـود المنحـدر بسرعـة محـاولًا ألا يسـقط، كان صـوت احتـكاك قدميـه بـالأرض مرتفعًـا وشـعر أنـه سـيفقد توازنـه في أي لحظـة الآن لكنـه اشـتم رائحـة عجيبـة!

رائحــة نعنــاع بــري شــديدة، دفــع قدميــه في الأرض محــاولًا التوقـف، ارتـد جسـده للخلـف بقـوة وسـقط عـلى ظهـره، أخـرج كشـافه وهـو يسـلطه عـلى مـا حولـه، عـلى الأعشـاب الكثـيرة، لمـح بـرازًا متحجـرًا لحيـوان لا يعرفـه، عـبره حتـى سـقط الضـوء عـلى أعـواد النعنـاع، توقـف مأخـوذًا وهـو يبتسـم، بـدت وكأنهـا غابـة مـن أشـجار متقزمـة، مشـى نحوهـا، كانـت رقيقـة جـدًّا، تتمايـل بهـدوء مـع نسـمات الريـح، مـد يـده وقطـف الأوراق، وجدهـا بـاردة تلمـع بالنـدى، أشـعرته رائحتهـا بنشـوة غـير متوقعـة وخلقـت داخلـه بهجـة بـاردة، أخـرج زجاجـة مائـه مـن حقيبتـه الصغـيرة وحـشر الأوراق فيهـا لتختلـط بالمـاء، ثـم مسـح كفيـه بـما تبقـى منهـا واشـتمها وهـو يتابـع طريقـه.

رآه الشيخ يفعل فانصرف عائدًا..

وفكر محمود أنه كان من الخير أن ذهب كل رجل منفردًا،

والحق أنه كان كذلك،

لأنــه بزمننــا هــذا، كانــت قلــوب المحاربــين بفريــق واحــد

تنبض بأحلام شتى، مختلفة وأحيانًا متعارضة..

كأن هذه الأحلام لن تجتمع متجاورة إلا حين تصرخ السماء باسم مهدينا في زحمة الحجيج،

هكذا كان كل رجل من التسعة وأربعين يحارب من أجل شيء مختلف، عظيم بالنسبة له، باهت لغيره، شيء يفكر فيه الآن وهو يخطو وحده في الظلام وكأنها المراجعة الأخيرة،

محمود...

كان يتحرك من أجل أن يقتل كابوسه...

ذلك الذي أيقظه كل ليلة لشهور وهو ينهج برعب كطفل وحيد بسريره،

صوت أقدام الرجال وهم يدخلون داره،

يعبثون بكل ما فيها وما أقله،

يقيدونه شالين حركته ويضربون الصغيرة مبعدين إياها،

وبالنهاية يجدون زوجته،

مرتدية زيه الرسمي بأطرافه الفسفورية وكأنه رداء عفة،

ضيق على جسدها الذي تفوح منه رائحة عنبر آخاذ،

يقتربون منها ويبدأ الصراخ الذي لا يتوقف إلا بصرخته هو عندما يستيقظ.

عاكف قائد المجموعة الذي فقد إصبعه كان يقاتل من أجل الانتقام فقط لا غير، ليس عنده أمل في انتصار أو حلم بعيد أو دولة جديدة تبنى على أشلاء هذه الميتة، لا يعلم كيف يمكن أن يحدث ذلك ويبدو أمامه غير معقول

إلى درجـة الاسـتحالة، هـذا البلـد قـد تفتـت، مثـل كتلـة طـين جافـة داس عليهـا أحدهـم بحذائـه فحولهـا إلى تـراب، كل ذرة منـه منفصلـة عـن الأخـرى، مـا يمكـن أن يجمـع كل ذلـك؟!

ماء المطر!!

فكـر بدهشـة وهـو يفتـح عينيـه متعجبًـا وقـد سـمع الجـواب للمـرة الأولى، ليـس بأذنـه وإنـما بمسـام جلـده التـي ارتطمـت بهـا القطـرات بتتابـع عجيـب شـبه موسـيقي، توقـف محلـه وعينـاه تلمـع بدمـع مكتـوم مـا لبـث أن أطلقـه مـع زفـرة شـاكرة، وهـو يحمـل سـلاحه بقـوة أكـبر مـن تلـك التـي خـرج بهـا.

مـن بـين الرجـال مـن كانـت أهدافـه تافهـة في أعـين الـكل ومضحكـة، ولذلـك لم ينطقـوا بهـا يومًـا حتـى إلى زوجاتهـم، سـالم الـذي يعتقـد أنـه حـين يعـم السـلام ويسـود العـدل ويغتنـي النـاس سـتتمكن الحيوانـات مـن أن تعيـش سـعيدة وهـو كل مـا يريـده..

كان يعتنـي بأكثـر مـن أربعـين قطـة وعـشرة كلاب بفنـاء داره، يعيشـون معًـا بانسـجام تـام لا يضطـرب إلا بمواسـم الـزواج، يخـرج إليهـم بالطعـام ثـلاث مـرات، يطبـخ لهـم مـا يمكنـه أن يجـده مـن بواقـي البيـض المعجـون بالخبـز القديـم المبلـل كـي يخفـف مـن جفافـه، جبـن فاسـد أو اقـترب مـن ذلـك، هريـس البطاطـا والعظـام المطحونـة، أو أي شيء آخـر، يـترك الطعـام الجيـد، وهـو نـادر، مـن أجـل المواليـد الجـدد والقطـط والـكلاب الحوامـل.

كان حلمـه الـذي لـو سـمعه آخـر لـضرب قفـاه سـاخرًا، أن تكـون بلـده مـوسرة وآمنـة إلى الحـد الـذي توضـع فيـه بيـوت

الحيوانـات وطعامهـا بالشـوارع، مثلـما رأى في زيارتـه لإسـطنبول قبـل انـدلاع الحـرب.

لا يجـده سـخيفًا، ألم يتكلـم النبـي نفسـه عـن شيء يشـبه ذلـك حـين يسـود العـدل الأرض؟

هنــاك الحالمــون بالوحــدة، بدولــة عظيمــة واحــدة تتوحــد فيهـا الشـعوب؛ لتلغـي كلمـة شـعب وتكـون كلمـة أمـة، تصبـح عملاقًـا محصنًـا لا يمكـن جرحـه أو ابتـلاع خيراتـه كـما يحـدث الآن،

يقولون إنه ممكن..

وأن الناس بالأصل قريبة، فقط تفصلها الحدود،

يسـتدلون بـالألم الـذي يحـرق قلـوب العـرب والمسـلمين في كل البـلاد مـن أجـل أنـاس لم يروهـم يومًـا، وكأنهـم إخـوة بالـدم بأقطـار متباعـدة، يصرخـون في حكامهـم الكبـار في كل مـرة، يطلـب منهـم فيهـا أن ينسـوا أيـام المـاضي ويهادنـوا، يحلمـون في العـشر الأواخـر مـن رمضـان حـين تقـل سـاعات نومهـم مـع صلـوات التهجـد بقبـة الصخـرة وإلى جوارهـا يقـف النبـي، وتنتصـب الشـعرات عـلى أذرعهـم حـين يـرون القتـال مسـتعرًا مـن أجـل التحريـر...

تحـت كل هـذا الطـين هنـاك خلـق ينتظـر اللحظـة لينقـض؛ ليتحقـق حلـم النبـي القديـم المـزروع فينـا بالجينـات، وكأننـا كلنـا أشراف، ممـدودة أذرعنـا وفي نهايتهـا أصابعنـا الوسـطى مشـهرة بوجـوه الساسـة وأصحـاب الـرأي والمفكريـن والغـرب...

هكذا نحن...

وإن نسيت، تذكر أيام احتلال الحرم، بعز أيام آل سعود، حين صاح صائح أن محمد بن عبد الله القحطاني، صاحب الوجه القريب برسوم المسيح نفسه، اليتيم الهادئ، هو المهدي المنتظر، فصاح الحجيج من أنحاء الأرض أنْ الله أكبر!.

لذا يبغضنا حكامنا...

و نبغضهم.

حلم هؤلاء الشباب بدولتهم تلك على الطريقة العثمانية، أو العباسية أو العمرية، بناها كل واحد فيهم بخياله بطريقة ما، حتى أنه تخيل طراز البناء وفلسفة الملابس، حتى حكومة النظام نفسها خلقت حلمًا على الطريقة العلوية أو النصيرية أو القومية أو أي طريقة أخرى؛ ليتمكن رجالها من سفك الدم بلا ندم.

تسعة وأربعون حلمًا..

يسلكون بين الأشجار في الغابة المظلمة، يسمعون هسيس الحيوانات ودبيب القوارض، غافلين عن زحف الأفاعي المعلقة بالأغصان وهي ترمقهم بهدوء.

همس بآيات قرآنية...

وأناشيد قديمة من أيام معارك المسلمين مع الروس بالشيشان،

ومقاطع غنائية...

سنخوض معاركنا معهم؟

نعم وغيرها...

تراها مضحكة إلى حد ما؟

ذكرتك بالمقاطع الساخرة من تنظيم الدولة ومن شابهه؟

لكنها استجلبت الدمع لمن غناها الليلة،

قلبه يرتجف، ألا تشعر بذلك؟ وقلبك نائم..

كانت نقطة التجمع قد شرحت لهم بالتفصيل، أمام مخزن غلال بوسط حارة مهجورة قريبة من أطراف الغابة.

سيكون على الواصلين قبل الموعد الاختباء بالدور الخالية القريبة حتى تحين اللحظة.

كان محمود من أواخر الواصلين؛ لذلك انطلق مسرعًا إلى الحارة التي اتفقوا على الاجتماع فيها، ظنوا حين تحركوا أن هذه الليلة ستكون مضاءة بنور بدر كامل إلا أن السحب وأمطارها غيبته.

ومس محمود سلاحه، كان مسدسًا قديمًا من نوع «رابي» الإسباني، به خمس طلقات وخزانة أخرى، سيملؤها به على أن يحصل على سلاح أحد القتلى من الجانب الآخر بأسرع ما يستطيع، وكذا كان سلاح الأغلب بهذه المجموعة إلا القادة الذين تسلحوا ببنادق آلية قليل منها حديث.

وظهرت الوجوه التي يألفها تباعًا،

واحد..

اثنان..

ثلاثة..

غمرهم ضوء قمر شحيح فجعل وجوههم تبدو خالدة، في صور أجمل مما رآهم بها محمود طوال معرفته بهم،

ابتسم وهم يتقاربون محيين،

وغمرته إثارة طفولية،

مثـل الأيـام القديمـة حـين كان فريـق كـرة القـدم يجتمـع بالملعـب الصغـير بأطـراف مريمـة قبـل المبـاراة النهائيـة بالـدورة الرمضانيــة،

قلوب مرتجفة وأعين متوترة وأرواح متحمسة،

وصل التسعة وأربعون رجلًا كاملين، كما أراد حمزة،

تقـدم عاكـف حتـى وقـف بالمتصـف، تجنـب النظـر في الأعـين، خفـض رأسـه وهـو يتلـو آيـات سـورة الفاتحـة، بصـوت هامـس مـا لبـث أن انضـم إليـه الثمانيـة وأربعـون الباقيـون...

وارتجـف صـوت محمـود والأيـات تنقطـع بصـوت موتـور شـاحنة عمـلاق يهـدر، ونورهـا يسـطع معريًـا إياهـم، ملقيًـا بظلالهـم للطـرف الآخـر للحـارة...

توقـف الهمـس إلا مـن قلـة مـن رجـال ارتفعـت نـبرة صوتهـم وهـم يختمـون السـورة،

والتفت محمود بدهشة ينظر ناحية الصوت،

لم تقـدر عينـاه المذعورتـان والنـور القـوي يضربهـما أن تميـزا إن كانـت ناقلـة جنـود أو سـيارة تحميـل أو دبابـة،

لكـن الرجـال الذيـن يتلفتـون حولهـم بغضـب جـزع والمعركـة تبـدأ غـير مـا توقعـوا فهمـوا أنهـا قـد سـدت الحـارة مـن مدخلهـا الخلفي،

أطلقـوا الرصـاص نحوهـا، انتظـر بعضهـم متسـمرين وأيديهم متأهبـة كـي لا تنفـذ الذخـيرة مـرة واحـدة.

عـدة طلقـات متقطعـة التحمـت بصـوت انكسـار زجـاج

وانبعـــاج معـــدن،

ثم أمطروا بفيض من رصاص،

طلقات متتابعة، صائبة، مطلقة بعناية تحمل أسماء موتاها،

والتفت محمود بعينين دامعتين،

كانت الأشياء حوله تتحرك ببطء جنائزي،

استطاع أن يرى الطلقات وهي تشق الهواء،

رأى قطـرات الـدم الداكـن وهـي تتطايـر في الهـواء مـن دمـاغ زميلـه مفسـحة مكانهـا للحديـد،

رفـع رأسـه وهـو يسـمع الضحـكات مـن الأعـلى ورأى للمـرة الأولى جنـود النظـام في الظـلام وهـم يطلقـون الرصـاص مـن فوقهـم محتمـين بأسـوار الأسـطح،

ورجـال مريمـة تطلـق الرصـاص في كل اتجـاه بحـيرة مذعـورة وكأنهـا تصطـاد المطـر،

مسح الدمع من عينيه ليرَ أوضح،

مـد ذراعـه للأعـلى ولـوى عنقـه إلى آخـره، وبـلا خـوف أطلـق الرصاص،

وصلـه صـوت الأنـة وصفـر الهـواء في أذنيـه وهـو يرى الجسـد السـاقط مـن الأعـلى محطـمًا معـه أحـد الرجال بالأسـفل.

فعـل مثـل محمـود كثـيرون، بـدأوا ينظـرون مـا يطلقـون عليـه الرصـاص، جـرى آخـرون محتمـين بأسـوار الـدور، حاولـوا فتـح أبوابهـا فوجدوهـا موصـدة.

وانتـــشر الرصـــاص متبـــادلًا، مشـــمولًا بالـــصراخ والعويـــل

والسـباب وكأنهـا خلفيـة دراميـة للمـوت العبثـي...

هنـاك أمـل للنجـاة، فكـر عاكـف، بانقضـاء الأمـر والهـرب، لكـن الانتصـار مسـتبعد،

فقط لو أرسل الله ملائكته،

وأضيئـت الحـارة بنـور عظيـم أصفـر، حتـى أن الجميـع ضيـق عينيـه للحظـة رغـم الذعـر، ثـم ظهـرت الدبابـة الكبـيرة بمدخـل الحـارة الآخـر، وقبـل أن يسـتوعبوا، انطلقـت بالسرعـة القصـوى، كجـدار كامـل ينـزاح أو وحـش أسـطوري مسـعور، فارمـة كل شيء بطريقهـا حتـى أن محمـود تمكـن وهـو عـلى وشـك التقيـوء مـن سـماع صـوت تكسـير العظـام واختراقهـا للحـم وهـي تتخـذ أوضاعـًا غـير معقولـة داخـل أجسـاد الرجـال، وكانـت لحظتـه هـو حـين تراجـع خطـوات للخلـف مطلقـًا عليهـا الرصـاص وهـو يتسـاءل بتعجـب كيـف لم يفـرغ مسدسـه طـوال هـذا الوقـت؟! ربـما هـو فـارغ بالفعـل...

وغمـره صـوت معـدني هـادر وريـح سـاخنة مغلفـة برائحـة وقـود محـترق وضـوء باهـر مختلـط بلـون الجنازيـر الأسـود وهـي تدفعـه للخلـف ملصقـة إيـاه بالحائـط ثـم تخـترق معدتـه بصـوت نجـس...

وجـد نفسـه يرتفـع للأعـلى ويـدور معهـا الـدورة كاملـة، للحظـة تذكـر أيـام طفولتـه والأرجوحـة، وهـو ينهـرس في الحائط والجنازيـر، وفي دفقـة غامضـة شـعر أنـه وجسـده لم يعـودا كيانـًا واحـدًا ورأسـه تنقلـب للأسـفل فـيرى كل إنـش مـن قوالـب الطـوب التـي تلطخـت بدمـه والجنزيـر يختتـم دورتـه معـه تـاركًا إيـاه وقـد انتهـك جسـده في مواضـع لا يعـرف عنهـا شـيئًا الآن.

كانت الصرخات من حوله تتباطأ، تضمحل بسرعة، الصياح يتلاشى، فقط سمع من بُعدٍ سبة واحدة «فليلعن الله آباءكم!» ثم سكن كل شيء حتى أن صوت الطلقات اندمج مع قطرات المطر التي تغسل وجهه، كانت أنفاسه تخبو لكنها تتخذ شكلًا لطيفًا وكأنها هبات مباركة من ريح غربية، ريح شعرت بها زوجته وهي تقف بالساحة مع المنتظرين، فدمعت عيناها وهي تدعو الله مستبشرة بنصر قريب وعودة سالمة بينما أعلام الثورة القديمة ترفرف فوق رأسها.

وجاء العميد وقد سكن كل شيء،

مشى بالحارة منتصبًا وهو ينظر آثار انتصاره الجديد،

يتفحص من بقي، يتأكد من موت الجميع برصاصات رحمة،

مزهوًا بما خطط له وأتمه رجاله،

في غير اكتراث مر بالجثث الممزقة، لم يتأثر لمنظر اللحم المخترق والأطراف المقطعة،

لم يحاذر لمسها إلا اتقاءً للعدوى،

وارتسمت على وجهه ابتسامة مريرة وهو ينظر الموتى، فكر «من يمكن أن يعتقد في إلهٍ وهو ينظر إلى كل هذا التشوه؟».

وتوقف عند جسد محمود،

كان ظهره له ووجهه لحائط دار قديمة، نفس الدار التي حبس فيها حسن من قبل حين أخرجه، حسن الذي كان

العميـد يبحـث عـن وجهـه سرًّا فيمـن قُتـل، انحنـى جـوار الجسـد وهـو يسـتعد بسـلاحه حـين ميز أنـه مـا يـزال يتنفـس ببـطء، بـدا وكأنـه رجـل يخبـئ أمـره متظاهـرًا بالمـوت، أمسـك بالكتـف وأداره واقشـعر والجسـد ينقلـب لـه، أمعـاؤه للخـارج وعظـام صـدره بـارزة مـن لحمـه وذراعـاه وسـاقاه معوجـة بأشـكال عبثيـة، انفرجـت شـفتاه وهـو ينظـر بعينـين تتسـعان إلى عينـي محمـود تتحـركان، وشـفتاه تنفرجـان بابتسـامة غـير معقولـة، احمـر وجهـه انفعـالًا وهـو يكبـح نفسـه ألا تتأثـر وسـأل بصـوت مبحـوح كرجـل مخـدر: «مـاذا تـرى؟».

«لا شيء» همـس محمـود بصـوت سـليم، وابتلـع مـاء حلقـه وأكمـل: «أفكـر الآن...» أكمـل.

«تفكر فيما ستقوله لله؟»،

هـز رأسـه نفيًـا، أغمـض عينيـه واتسـعت ابتسـامته وضـج فمـه بدفقـة دم، فخـرج صوتـه متحشرجًـا وهـو يقـول: «أفكـر فيـما سـيقوله الله لي...»،

وارتجـف جسـد العميـد، امتـلأت عينـاه بدمـع لحظـي وهـو يقـول مغالبًـا تهدجـه: «مـاذا سـيقول الله لـك؟»،

وارتحلـت عينـا محمـود في نفـق الموت وهـو يهمس «هششـش»، قالهـا طويلـة، مرتاحـة وسـعيدة، وكأنـه يسـمع أعـذب غنـاء، وفتـح العميـد عينيـه بدهشـة وهـو يشـم رائحـة النعنـاع التـي تصاعـدات مـن محمـود حتـى أنـه سـأل نفسـه بخـوف إن كانـت هـذه هـي رائحـة الجنـة؟!

حزنت مريمة..

كلها..

ليس الناس فقط، لكن السماء نفسها وحتى نهاية ما رأيت هناك، غيمت فلم يعد نور الشمس يدخلها، وازدادت البنايات القديمة قتامة.

ليس للموت فقط حزنوا، إنما للخيانة.

وعند حارة هادئة، لم يصبها دمار كبير، ما تزال أبنيتها متماسكة في صف واحد، وقفت طفلة وحدها...

أصرت أن تخرج هذا الصباح رغم بكاء أمها طوال الليل..

ربما لذلك خرجت بالأساس،

شعرها طويل يلامس أغلب ظهرها، تهتم أمها به كثيرًا، ترتدي فستانًا على غير العادة، ألحت من أجل أن تخرج به اليوم رغم أن أمها تحافظ عليه من أجل الأيام المميزة، لكن ما المميز الذي يمكن أن يكون بعد موت الزوج؟

وقفت الطفلة وحدها..

على غرار العادة قفزت..

لم تشعر بشيء،

ربما لو قفزت إلى هدف أبعد؟

قفزت من جديد..

لا شيء.. حاولت عبثًا أن تبث بعض متعة في روحها، لكنها شعرت أنها ثقيلة جدًّا..

ومظلمة..

توقفت، خفضت رأسها في حيرة حزينة، واستسلمت..

ودمع مجدي وهو ينظر إليها من نافذة غرفته،

اشتدت قبضته على الإفريز،

زفر وهو يسمع صوت اهتزاز هاتفه،

انتهى كل شيء بالنسبة له، لا بد أنهم قد فهموا ذلك، لم يجب على رسائلهم الأخيرة، ولم يرسل إليهم بخصوص عملية الليلة الماضية لكنهم عرفوا على كل حال.

هناك من يخون غيره،

ما أشد بأس الشيطان في أيامنا هذه! يحارب وكأنها فرصته الأخيرة،

ماذا يريدون منه بعد أن خذلهم طوال المدة الماضية؟

أخرج هاتفه وفتحه...

جاءته الرسالة بلغة لم يفهمها...

"Vaarwel"، حدق بها طويلًا، لم يفهم أنها كانت الدعابة الأخيرة للضابط المسؤول عنه، ذلك الذي تخيله دائمًا غربيًّا وهو كذلك.

يودعه ساخرًا، بكلمة ما أكثر ما قيلت في الحرب العالمية الثانية بين الجنود قبل الوفاة،

«وداعًا»،

ورغم أنه لم يفهم، إلا أنه شعر، أخبره الله..

لذلك وضع هاتفه على سريره بغير اهتمام، فتح باب

غرفتـه وخـرج،

رأى زوجتـه وهـي تقـف منحنيـة الظهـر بمطبخهـا، مـا أشـد مـا نحلـت؟!

ترقرقت داخل عينيه دمعة وهو ينظر إليها،

وللمرة الأولى منذ زمن طويل،

أشفق..

تذكر وعوده القديمة قبل الزواج،

بيت سعيد،

حياة مطمئنة،

سيارة للتنقل، ورحلة للبحر عند الخلاف..

وعدهـا أنـه سـيأخذها حـين الغضـب أو الحـزن إلى الشـاطئ مـن دون كلـمات، يجلسـان هنـاك ويرقبـان المـوج حتـى تهـدأ،

آمنـت أنـه أكثـر الرجـال تميـزًا، أنـه مختلـف عـن كل مَـن سـواه،

اختارته بقلبها صادقة بذلك الوقت،

لكن الآن انظر..

وأنت تدخل المطبخ،

فترى الصدأ يغطي الدواليب المعدنية،

شح الطعام،

تراها وهي متهدمة..

في هندامهـا، في شـعرها الـذي أهملتـه رغـم أن شـعر بناتهـا مـا يـزال خلابـا، تعتنـي بـه دون توقـف،

في ملابسها التي مزقت في أكثر من موضع ولم تفكر أن ترتقها،

ربما بالنهاية..

هي مسكينة.

قد خُذلت كل أحلامها بطريقة ما، تقاتل دون توقف من أجل القليل الذي يمكن أن تقول إنها تملكه.

اقترب منها، من دون كلمات احتضنها، قبل رأسها فسقط من قلبه كل غضب قديم منها وانمحت البغضاء منه.

والحق أنه كان المسكين؛ لأنها آلمته حقًّا طوال سنوات..

لكن الله كان يطهره بحساب دقيق مرتبط بموعد موته،

دفعته المرأته بعيدًا كعادتها لكنها حين رأت نظرته انتبهت بحيرة،

حتى أنها كادت أن تنادي عليه وهو يخرج للطفلتين،

يغمض عينيه للحظة وهو يبصر ملابسهم الفقيرة، والتراب الذي يغمسون أيديهم فيه،

وينزل دمعه بغزارة،

يدوي صوت انكسار باب داره بغرفة الجلوس،

يفتح عينيه عن آخرهما بدهشة،

وهو يرى المسلحين يدخلونها عنوة، يدوسون بساطها البسيط بأقدام ملطخة بالطين،

وصفية تقف برعب وتلتفت إليه مستنجدة، لكنه حين أراد أن يقترب منها كُبلت حركته بأيدي الرجال الذين

أحاطـوا بـه،

وبكت الطفلتان بذعر حين بدأت الأم بالصراخ،

أشـار لهـا آمـر المجموعـة بكفـه أن اهـدأي بينـما رجالـه يعبثـون بأغـراض الـدار القليلة..

لم يطل الأمر أكثر من دقائق،

بعدهــا خــرج أحــد الرجــال والهاتــف بيــده، فرفــع القائــد عينــين متســعتين بغضــب غــير مصــدق إلى مجــدي،

وركضــت صفيــة بــين الرجــال إلى أبيهــا، وصلتــه، لمســت رجــلاه محتضنــة، أراد أن يمــس رأســها فلــم يســتطع، بصــوت متهــدج قــال بسرعــة: «يــا حبيبتــي لا تبكــي، هــؤلاء أصدقــاء أبيـك، نحـن نلعـب الآن»، رفعـت رأسـها إليـه، فابتسـم بصـدق وهــو يهــز رأســه لهــا، ودفُــع دفعًــا للخــارج وهــم يبعدونهــا عنــه، وعنــد بــاب داره أراد أن يلتفــت لينظــر الرضيعــة لكنــه لم يســتطع أن يميزهــا بــين أجســاد الرجــال.

أخرج من داره،

مدفوعًا ومحاطًا بالرجال،

توقف كل من رآه،

سُب وضُرب،

ألقيت عليه الحجارة حتى أن من يرافقه نزف،

تعثر مرات،

تمزقــت ثيابــه، نزفــت ركبتــاه، خفــض رأســه ولم يرفعــه، كــره منظــر حذائــه الأســود المهــترئ، دق قلبــه بقــوة وهــو يفكــر في ابنتيــه، لم يغيبَــا عــن ذهنــه لحظــة حتــى أنــه لم يشــعر بــشيء ممــا

يمـر بـه، بـدا وكأنـه ارتفـع عـن جسـده في حالـة وعـي علـوي مدهشــة.

لو كنت رأيته من أعلى مثلما يرى نفسه الآن،

بطائرة مثل الطنانة التي دارت فوق مريمة،

لحزنت من أجله مهما كان ما فعل،

هكـذا رأتـه صفيـة التـي عصـت أمـر أمهـا الملتاعـة وفتحـت النافـذة بقـوة ونظـرت..

ومرت به الحارات سريعًا،

لم يمـر بالسـاحة وكان يتمنـى لـو فعـل، كذلـك تمنـى عبـد الله الـذي وضـع ابنـه عـلى الأرض واعتـدل بوقفتـه وهـو يسـمع الصيـاح البعيـد وقلبـه يتـألم دون أن يفهـم لمـاذا...

وسـألته يـارا بفضـول: «مـا هـذا الصيـاح؟»، فربـت عـلى رأسـها وهـو ينظـر إليهـا بصمـت.

وتماثلـت لعينـي مجـدي دار حمـزة، دُفـع حتـى بابهـا، صفعـه الرجـال عـلى مؤخـرة عنقـه وأليتـه وهـو يصعـد سـلالمها...

انفتح الباب، أطل حمزة..

بـدا مهمومًـا وهـو ينظـر إلى القادمـين، خجـل مجـدي أن يرفـع رأسـه إليهـم.

«لا» قالهـا حمـزة وهـو يشـير إلى الرجـال بكفـه المفتـوح موقفًـا قبـل أن يكمـل «أحذيتكـم متسـخة، اتركـوه معـي وغـادروا»،

«الجميـع ينتظـر يـا حمـزة، قـد ثبتـت عليـه التهمـة» قالهـا آمـر المجموعـة وهـو يمـد ذراعـه بهاتـف مجـدي.

«وجدته بداره؟».

«نعم».

«أين؟» سأل حمزة، فأجاب الرجل سريعًا «على سريره».

هز حمزة رأسه بهدوء، أمسك بذراع مجدي وسحبه للداخل ومن دون كلمات أغلق بابه في وجه الرجال الذين ظلوا يرمقون خشبه لثوان دون أن يتحركوا.

«اجلس على أي كرسي»، قال وهو يمشي إلى برطمانه الممتلئ بالشاي، نظر حوله باحثًا حتى وجد كوبًا ورقيًّا، صب فيه بعض شايه وهو يقول: «لا تحاول الهرب، الناس ينتظرونك بالخارج، ليس لك سبيل»، واقترب منه وهو يتفحصه، قميصه ممزق، جسده العاري، به بعض بدانة طيبة تميز الآباء الصالحين، وأضفت عليه بقع الدم والجلطات هيبة ودودة توارث الناس تقديسها من حكايات آلام عيسى ومحمد.

رمشت عيناه للحظة،

كان حمزة يحبه،

صادقه في الزمن البعيد، أهداه كتبه وأحب سماع رأيه فيها، كان من هؤلاء القلة الذين يطمئن لوجودهم بمريمة وكأنه يتبرك بهم.

«أعرف أنك لا تشرب بالأكواب الزجاجية»، قالها وهو يمد له يده بالشاي، تناوله مجدي بيد مرتعشة قبل أن يحاوطه بيده الأخرى.

«لم لا تشرب بها؟».

«العدوى» أجاب مجدي بوجه ممتقع..

هكذا طلبت منه زوجته، كي لا يلتقط مرضًا من الخارج أو من عند أقاربه وينقله إلى أطفاله؛ لذلك ابتسم حينما قال له حمزة مازحا: «ألم تكن هذه الأكواب الورقية لتصيبك بالسرطان لو عشت طويلًا؟»، ما أكثر ما فكر بقلق بموت أسرته، كان يستيقظ من نومه فزعًا لأحلام مخيفة تصور له ذلك، لكنه لم يفكر بموته هو من قبل..

بطريقة ما تمناه..

قرب حمزة كرسيه منه، ووضع برطمانه إلى جواره، مد ذراعه ووضع يده على ركبة مجدي، نظر بعينيه طويلًا قبل أن يسأله: «لماذا فعلت ذلك يا صديقي؟»،

وكمعجزة تكلم الرجل الذي صمت طوال حياته..

باح بسره..

كاملًا..

بكل تفاصيله..

قص كل شيء وكأنها حكاية يمثلها لصفية وأختها، حكاية أخيرة...

استمرت حكاياته تلك حتى بداية الغروب، تتابعت واحدة بعد الأخرى، كان يعتصر روحه اعتصارًا حتى يجبرها على الحديث، ولذلك لم ينقطع الدمع من عينيه لحظة..

وبينما الناس تفور بالأسفل بانتظار الحقيقة ولحظة الانتقام، كانت عينا حمزة الحمراوان تتابعان ما يقوله باهتمام، بل إنه دمع في لحظات حاول فيها أن يخبئ عينيه عن مجدي.

بـدا أمامـه الرجـل أنبـل مِـن كل مَـن بهـذه القريـة حـين تكلـم عـن أحلامـه لبناتـه..

أكثـر مَـن بهـا عبقريـة حـين أخـبره بعهـده الـسري مـع الله.. أن يصـبر ويكـون جـزاؤه جنـة للطفلتـين عـلى الأرض وبالآخرة..

كان أقوى رجال مريمة بما صبره..

وسـأله حمـزة: «أنـت مـن أخبرهـم بأمـر الفرقـة يـا مجـدي؟»، رفـع الرجـل عينـين صادقتـين إليـه، هـز رأسـه نفيًـا وهـو يهمـس: «يشـهد الله أني لم أفعـل»،

«ولمـاذا امتنعـت عـن إخبارهـم بـما يـدور بالسـاحة؟»، ابتلـع مجـدي مـاء حلقـه بصعوبـة، لمـس كوبـه بأناملـه وهـو يفكـر للحظـة قبـل أن يقـول: «هـل سبق أن زرت المسـجد الحرام بمكـة يـا حمـزة؟»،

هـز رأسـه نفيًـا وهـو ينظـر لـه بارتبـاك، فتابـع مجـدي: «أنـا فعلـت..

حـين تدخـل مـن الأبـواب المذهبـة وتمـشي عـلى المصليـات كالمسـحور إلى الصحـن، ومـن بـين الأعمـدة المزينـة تلمـح أطراف الكعبـة بينـما تقـترب، كلمسـة عجيبـة خارجـة عـن نطـاق كل زمنـي وزمنـك وكأن الله العـالي يقـول «أنـا»، يهتـز قلبـك بعنـف وربـما تدمـع عينـاك أو تجلـس باكيًـا قبـل أن تعـاود المسـير..

وحـين تضـع قدمـك بالسـاحة، وتـرى الـدوران العظيـم والأصـوات الخاشـعة الممتلئـة شـجنًا، ويصلـك نسـيم محمـل بمسـك لامـس جسـم صخورهـا، حينهـا تـدرك أنهـا جـزء منـك، وكأنهـا مـن أهلـك،

تسير نحوها وتطوف وفي كل لحظة يهمس قلبك «ستكون بخير ما دمتَ قريبًا»،

هكذا كانت الكعبة..

و هكذا كانت ساحة عبد الله..

بما فيها ومَن فيها،

عبد الله ويارا ومحمد،

حسن،

والطفل،

كلما نظرت بوجهه، ملأني اليقين القديم نفسه بأن ابنتاي ستكونان بخير، أراهم نساءً وبأيديهم أطفال يسيرون في مزارع عربية بثياب من حرير،

أشعر بأن كل الظلام داخل زائل وكأنه وهم وأن الله لن يتركني مهما فعلت..

آمنت أن بقاء أهلي بخير، مرتبط ببقاء هذه الساحة..

مرتبط بإسماعيل..

حمايته ومن معه حماية لهن..

فكيف تريدني أن أخونه؟! ومن أجل ماذا؟!»

ترقرقت عينا حمزة بدمع صامت، توقف ومشى مبتعدًا موليًا مجدي ظهره إلى خزانة مغلقة.

«تعلم أنك ستموت يا مجدي»، قالها دون أن ينظر إليه،

دق قلب الرجل وهو يهز رأسه بنعم..

«لن أستطيع إخراجك، تمتلئ شوارعنا بعائلات تنتظر

موتـك، كل مريمـة تريـدك، الوشـاية التـي صنعهـا النظـام لـك انتــشرت في كل بيــت، ســيقتولنني إن لم أقتلــك، ثــم يقتلــون بعضهــم بعضًــا كأيــام الحــرب الأولى، يجــب أن تهلــك كــي لا يكــون ذلــك»،

«بناتي»، قالها مجدي بصوت مبحوح،

«سأعتني بهم من أجلك»،

أغمـض مجـدي عينيـه، تجمـد صـدره بسـقيع كئيـب، شـعر أنـه سـيتقيأ، استنشـق الهـواء بعمـق وزفـر باكيًـا وهـو يفكـر فيهـن.

«سـأحكي لهـن القصـص»، قـال حمـزة بصـدق، «سـأوفر لهـن الطعـام والـشراب والملبـس والكتـب، لـن يمسـهن أحـد بسـوء... هذا عهدي لك أمام الله»،

رفـع مجـدي رأسـه إليـه وهمـس «كنـت أتمنـى أن أكـون أنـت.. لا ذلـك الخائـن»،

ابتلـع حمـزة مـاء حلقـه، نظـر حولـه كأنـه يتأكـد ألا أحـد هناك واقـترب مـن مجـدي قائلًا:

«أنــا كاتــب ملــوث، أقولهــا لــك قبــل أن تخــبرك الملائكــة، بداخــل صــدري ألــف جريمــة وقــذارة ســوداء وعنــاء اكتئــاب مهـول، لكـن الله يبقـى بالداخـل، بحـروف اسـمه المهيبـة رغـم كل شيء.

أصر أن أحبـه، ويـصر عـلى أن الأمـل مـا يـزال معقـودًا بي»، واقـترب أكثـر مـن مجـدي مكمـلًا «يبـدو أن الله يحبنـا يـا صديقي»، وتقـوَّى مجـدي فوجـد في نفسـه القـدرة أن يقـول:

«لا تقتلنـي أمامهـم» قالهـا راجيًـا فهـز حمـزة رأسـه وقـال:

«يريد الناس أن تقتل أمام الجميع، بالساحة نفسها، لكن عبد الله سيرفض قتلك بساحته وأنا كذلك»،

وزفر بصوت منخفض وهمس: «سأقتلك هنا يا مجدي»،

قالها وهو يفتح الخزانة الخشبية،

سمع مجدي صوت المعدن وهو يرن في الدرج حتى استقر بيد حمزة، وزاره صوت نقرات طبول صوفية تعالى حين رأى المسدس في يده..

للحظة ارتعب، أراد أن يجري هاربًا لكنه تماسك دافعًا ظهره للخلف بالكرسي، بل إنه استطاع أن يقول بصوت غريب عنه وكأنه لا يخصه: «سيغضب الناس إن قتلتني وحدك»،

أجابه حمزة ملاطفًا: «فليغضب مَن يغضب، أنا الأمير هنا يا صاحبي! ألا يحق لي أن أكون دكتاتورًا ولو مرة واحدة؟!» وضحك فضحك مجدي دون أن يفهم كيف فعلها...

جاءته لحظة صفاء مريح جعلته يجد القدرة ليقول: «أخبر حسن أن ابنته ما تزال حية»،

«زهوة؟» سأل حمزة بانفعال فأمن مجدي برأسه..

ثم مرت لحظة صمت..

وببطء ارتفعت فوهة المسدس مشيرة إليه بهدوء..

يرتعش ذراع حمزة الذي يحاول عبثًا أن يتمالك أعصابه ويكتم دمعه..

وغابت الابتسامة عن مجدي وارتعشت شفتاه وهو يسمع صراخ امرأته بعقله كوسواس أخير..

«أخبرتـه بـكل شيء أيها السـفيه؟ ملعـون أنـت! حتـى سرك مـع الله قـد احـترق الآن وقـد تحدثـت بـه!»، ارتجـف وعينـاه تدمعـان باضطـراب نـادم، ثـم سـمع الصـوت الكاسـح بعـد أن لمعـت الـشرارة وللحظـة ظـن وكأنـه سـمع صـوت اخـتراق عظـم رأسـه ولم يتسـع الوقـت لمـا بعـد ذلـك..

فقـط سـمع صـوت امـرأة حنـون لا يعرفهـا ينطـق بعربيـة زاهيـة...

«تعالَ يا مجدي».

دم دم دم

دم دم تك

دم دم دم

دم دم تك

أسمع الدقات الخافتة،

ومن بُعدٍ أرى رجلًا ممتلئًا تبدو على حركاته رهبة إشفاق، ينز الدم ورديًّا بمرح من جبينه فيخلق ورودًا في السماء المظلمة وهو يقترب من امرأة يضيء وجهها ما حولنا، رأيتها تمد ذراعها نحوه مبتسمة.

تنهدت وأنا أغمض عيني والمركب الصغير يهتز بنا،

كان الألم بجسدي يزداد، فهمت أن الرهبة داخلي لم تكن من الظلام ولا هدير الموج وندف البرد، إنما من الوحش المتكبر بداخلي، وألم عظامي الذي ينخرني حتى أطراف أصابعي ليس من تضارب الأمواج بالمركب وإنما من مرضي أنا.

نظرت إلى إبراهيم بن محمد بعين دامعة، اشتقت إلى الدلع الحلو الذي كنت أفتعله مع أبي حين أتظاهر بالحزن فيضمني إليه ويقبل رأسي مهدهدًا..

الآن لا يوجد إلا ألم حقيقي لا يجدي معه شيء، ولا يترك فسحة لأي تظاهر...

ابتسم لي إبراهيم برقَّة وقال: «عبرت مع أطفال كثيرة يا صديقتي، أوصلتهم كلهم إلى بر الرحمة من كل شيء»، همست:

«أي بـر هـذا؟»، فأجـاب بلطـف: «اعكـسي الحرفـين تجديـه»، قلبت الباء والراء في بر..

رب..

ارتعـش قلبـي، لكنـي تذكـرت حكايـات أمـي وأبي عـن الله فتثبَّـت،

حـين فعلـت علـت الدقـات الموسـيقية، شـعرت بهدوء يتسـلل إليَّ، وسـمعت صوتًـا يشـبه البـوق أو صيحـة طائـر عمـلاق، نظـرت لإبراهيـم في حـيرة فرأيتـه ينظـر لأبعـد ركـن بالسـماء وعينيـه ترتعشـان بدمـع مكتـوم، فعلـت مثلـه، رأيـت بقايـا رداء أحمـر يرفـرف مـع الريـح، يسـتر جسـدًا متناسـق الخلقة، لم أسـتطع أن أراه كامـلًا، فقـط ميـزت آخـر لحيتـه حيـث كانـت شـعرات بيـض صبغـت بحنـة داكنـة.

وهمـس إبراهيـم ونظـرة مثبتـة عـلى صاحـب الـبردة الحمـراء، «يبـدو أني يجـب أن أحكـي لـك حكايـة الـدم يـا زهـوة»...

الحكاية الثالثة
الدم

«لم لون الدم أحمر؟»

هذه حكاية أول من سأل،

رأى الإنسان الدم أول ما رآه بالحيوان، وكان هابيل من أوائل الذين رأوه؛ لأن آدم دخل داره في يوم شتوي وأشار إلى ولديه أن يتبعاه إلى مربط الماشية ليساعداه في ذبح إحداها من أجل لحم وكسوة جديدة. صاح قابيل بذعر وهو يتقهقر مبتعدًا، وحين اقترب منه آدم آمرًا، اختبأ في حضن أمه مستغيثًا، أمسك آدم بذراعه يجذبه لكن حواء ربتت مستعطفة على كف آدم طالبة منه أن يؤخره هذه المرة، ويكتفي بهابيل الذي وقف يراقب كل ذلك صامتًا.

هكذا غادر آدم داره ومن خلفه هابيل، صمتا حتى منتصف الطريق قبل أن يلتفت إليه آدم، رأى نظرة عينيه المتوترة فأشفق عليه وأبطأ في مشيته حتى أصبح محاذيًا للطفل، ضمه إليه ومس شعره الطويل الفاحم، رفع هابيل رأسه إلى أبيه بامتنان فرأى آدم في عينيه جمالًا ذكره بالسماء وأحب أن يحتضنه.

هكذا سارَا حتى اقتربَا من مربط الماشية، كان مجرد شق مفتوح بين جبلين، مفروشًا بالكلأ، في صخوره المجوفة صب آدم الماء حتى لا تضطر حيواناته إلى الابتعاد لتشرب، ليس له باب ولا سور؛ لأن فعل السرقة لم يكن قد خلق بعد.

مشـى آدم بـين ماشـيته، راقـب الأغنـام، الأبقـار والعجـول، تلمســهم هابيــل وكأنــه يحيهــم، استأنســوا بهــم وكانــوا قــد اعتادوهـم، أشـار آدم إلى بقـرة سـمينة لهـا لـون بنـي فاتـح، ولدت ثـلاث ولـدات مـن قبـل، لهـا عينـا أم رحيمـة، ميزهـا هابيـل مـن فـوره، كان يحـب هـذه الحيوانـات، يهتـم بهـا، يعرفهـا واحـدًا واحـدًا، قصصهـا وأبناءهـا ومـن أيـن جاءت، وصفاتهـا المتمايـزة.

لذلـك مشـى نحوهـا بـتردد، لـف ذراعيـه حـول وسـطها، استسـلمت لـه، دفنـت رأسـها في صـدره كـما تفعـل دائـمًا وصـدر منهـا صـوت خـوار ناعـم فأغمـض هابيـل عينيـه متألمًـا مـن أجلهـا واقـترب آدم، جـز هابيـل عـلى أسـنانه بصعوبـة، لم يكـن قـد رأى مـا سـيحدث مـن قبـل، اعتـاد أن يجـد اللحـم مطبوخًـا، يأكلــه مســتمتعًا وفي اليــوم التــالي حــين يــزور المربــط، يخمــن سريعًـا مـن ذهـب مـن حيواناتـه..

«هابيل.. افتح عينيك»،

متهيبًـا فتـح عينيـه، كان أبـاه أمامـه وفي يـده الصخـرة المصقولة التـي يضعهـا جـوار فرشـته بالـدار، واتسـعت عينـا هابيـل وآدم يقـترب مثبتًـا نظـره عـلى عينـي الذبيحـة، للحظـة ارتعـش آدم وهـو يلمـح عينـي طفـل إبراهيمـي فيهـما، اقـترب خطـوة أخـرى فغابـت العـين البشريـة وعـادت عـين البهيمـة الخائفـة، وهمـس هابيـل عـلى رغمـه: «أبي!»، «أمسـك بهـا جيـدًا وإيـاك أن تفلتهـا» قـال آدم بصرامـة ورفـع رأسـه وهـو ينظـر مبـاشرة إليـه: «ولا تغلـق عينيـك»..

وضـم هابيـل ذراعيـه حـول البقـرة بشـدة، شـعر باختلاجـة متوتـرة فيهـا للمـرة الأولى، دفعتـه برفـق تريـد أن تبعـده، بينـما آدم يعطـي ظهـره لباقـي القطيـع الـذي توقـف عـن الرعـي ووقـف

يتابع ما يحدث، التفت إليها غاضبًا، أشاح بيديه باتجاهها وهو يصيح: «دع ... دع »، فتراجعت الحيوانات خطوات وبدأت بالرعي مرة أخرى، حينها التفت آدم بكل جسده إلى الذبيحة وهمس: «باسمك اللهم»، ورفع عينيه مرة أخيرة إلى هابيل فلمح دمعة صامتة، وهوى بصخرته من دون انتظار فانبلج دم أحمر قانٍ كثيف مكتسحًا مجال أبصار الطفل الذي ارتعشت يداه بعنف وانفجر بأحشائه خوف مشؤوم مغلف بتسمم شيطاني قاتم..

شله مرأى الدم وانتفاضات البقرة بين ذراعيه وهي تطيح به في الهواء حتى أنه لم يسمع صياح أبيه وهو يأمره أن يفلتها.

نهج بعنف وجسده كله يهتز معها وهي ترقص رقصتها الأخيرة، رقصها معها مرتفعًا عن الأرض ومن بعد سمع همسًا: «أنت أول العائدين»، ضربت حوافرها قدميه فعض شفتيه متألمًا وأفلتها وهو يتراجع وعيناه ثابتتين عليها بينما تسقط على الأرض مرتجفة.

انتفض حين لامست كف أبيه كتفه، نظر إليه بانكسار، فابتسم له الأب وهو يربت على ذراعه ومسح هابيل دموعًا أفلتت وسأل سؤاله وهو ينظر للأرض المعكرة بالدم.

«لماذا هذا اللون القاتم؟!»، انطفأت ابتسامة آدم وهو يمسح عرقه عن جبينه، التفت إلى البقرة التي خارت مرة أخيرة وقدماها ترتجفان، وهمسًا أجاب: «كي لا نقتل إلا ما نحتاج إليه لنبقى».

انحفر هذا الدرس بتلافيف مخ هابيل عميقًا، اختار بنفسه أن يرعى الماشية كي يكون أكثر الناس رحمة وأمانة

علـى أرواحهـا في الحيـاة وعنـد الذبـح، مدفوعًـا بشـعور دفـين خلقـه عتـاب عينـي البقـرة الأخـير وهـي تسـقط تحـت قدميـه.

لكـن أخـاه لم يشـهد ذلـك الـدرس، ولـو شـهده لما اسـتوعبه مثلـما فعـل هابيـل، لم يفكـر لحظـة وقلبـه ينـوء بـما فيـه مـن غضب وغـل، بينـما يهـوي بالحجـر عـلى رأس أخيـه في الـدم الـذي انبعـث منـه، وحـين رآه خالجـه شـعور بنـدم مخلـوط بانتشـاء غـير مفهـوم في لحظـة آمـن فيهـا أن قدرتـه بـلا حـدود، تلـك المشـاعر التـي مـا لبثـت أن انطفـأت داخلـه وهـو يـرى أخـاه هامـدًا للأبـد.

كانت هذه بداية قصة الإنسان مع الدم يا زهوة...

يا من تتحملين الألم بصبر..

وعنـد نهايـة زمـان الإنسـان سيسـفك الـدم بـلا خشـية ولا نـدم ومـن دون أسـباب ولا حتـى للبقـاء.

حينهـا يحـل مـرض قاتـم بأهـل الأرض، ينـدس في أجسـادهم بنبـض خافـت محـولًا لـون الإنـذار الأحمـر في دمائهـم إلى لـون أبيـض صديـدي لا حيـاة فيـه، كأنـه لا دم بعـد أن فقـد مغـزى وجـوده.

باضطـراب قالـت الطفلـة: «لكنـي حـين مرضـت رأيـت دمائـي بهـذه الصـورة!»،

هـز إبراهيـم رأسـه متفهـمًا وهمـس: «لا تثريـب عليـكِ يـا صديقتـي»، واهتـز المركـب مـن جديـد حتـى كادا أن يسـقطَا منـه، أمسـكَا بحوافـه بقـوة ومـن الأعـلى سـمعت زهـوة صـوت تخبـط.

كانت ملامح الرؤيا تتضح أكثر ليلة بعد ليلة...

في الظلمة الباردة، تحت اللحاف القديم الذي جلبه مجدي له، متعرقًا رغم البرد، مستأنسًا بأصوات الطفل الهامسة مع زائريه غير المرئيين، كان حسن يغلق عينيه وينام.

الآن بشرني بالرؤية،

لأن قلبي يطمئن حين تأتيني،

نبي أنت؟

يهمس عقله وهو يغرق في عالم الحلم،

يعبر من فوق سماء حمراء قانية، رياحها نارية كعواصف شمال المملكة،

من فوق أبراج مكة المتعاظمة بالواجهات الزجاجية، ما أوهنها؟! صخرة صغيرة تخرج من جوف الجبال المحيطة قادرة على كسرها.

كأنها جيوش أبرهة...

يقترب من الأرض حتى يصبح قادرًا على تمييز الثياب البيضاء والأغطية المطرزة والعقالات، يصطدم حلمه برؤيا محمد الشاب بمكة؛ لأن الأخير يراه وهو يهبط من علٍ وبيده سيف من خشب بينما يقف بساحة رخامية مزدحمة إلى حد الموت.

يهبط حتى يجلس على الأرض الباردة...

وأمامه تمامًا، صاحب البردة الحمراء...

يبتسم له؟ يفكر حسن، لعله فعل، ثم يتفحصه بعينين ساحرتين بصبر رحيم،

تضطـرب عينـا حسـن، ترتعـش شـفتاه وهـو ينظـر لـه بـما يشـبه الخجـل،

يغرق في تفاصيل وجهه،

كأنه البدر،

ما يزال الرجل ممسكًا بقطعة الخشب بين يديه،

كأنها صقلت قليلًا عن الليلة الماضية،

كأن أجزاءً منها طالتها فضة لامعة،

كأنها تتحول،

كما يتحول حسن،

كما تتحول أنت...

كما تتحول القماشة السوداء خلف الرجل،

تبهت نقوشها العربية،

تذبل زخرفاتها،

واللون الأسود المتعاظم،

يصطبغ بألوان أخرى وكأن الشمس قد أبلته،

لكن مهابته تزداد،

حتـى مـع بقـع دم الصغـار التـي انبلجـت في أجـزاء الكسـوة، بينـما تصحبهـا نظـرة حـزن بعينـي صاحـب الـبردة، انظـر إليهـا...

وتظهر في قماشها ندوب الأرامل ومن فقدن آباءهن،

لها لون بني باهت مثل قلب مريض،

وكل ألم الذيـن أجـبروا عـلى فعـل أشـياء كرهوهـا كـي يعيشـوا...

أجـبروا عـلى الإبحـار في مـوج مـع عائـلات ضعيفـة حتـى غرقــوا..

عـلى الهـرب بـين الأحـراش، ورفـع الأعـين في السـماء بحثًـا عــن الطائـرات...

واغتصبن...

لكـن قلبهـن نبـض بحـب متـألم حـين احتضنـوا أولاد الحـرام للمـرة الأولى وبكـين،

كل هؤلاء...

الذين يحبهم الله ويكره محنهم،

كل هؤلاء الذين قربهم الألم منه إلى حد لا يصدق،

كل هــؤلاء ظهـرت أحواهـم عـلى الكسـوة خلـف الرجـل الصابــر،

بزخارف مفهومة،

وألوان صادقة لا نعرفها..

وتمزقات رقيقة عند الأطراف،

مــن أجلهــم حــزن صاحــب الــبردة وهــو ينظــر إلى حســن منتظــرًا،

بينما تلقى عليه القذارة...

برجال نجسة،

يسكب البول المعتق،

وترمى النعال المرصعة بالذهب،

وأجزاء الدمى العارية،

يصاحبها السباب المختلط بالضحك الماجن،

والرجـل عـلى حالـه رغـم ذلـك، وكأنـه لا يهـم بالدنيـا إلا حســن،

ربما تتسع ابتسامته أو تغيب،

ربــما يهتــز قليــلًا برفــق وكأنــه صــورة ترصدهــا كامــيرا غــير ثابتــة،

لكنه لا ينظر لمن ألقى وماذا ألقى عليه،

ويحتار حسن،

ومثل فركة أصابع بالكاد تكون محسوسة،

تتخلق داخله حمية افتقدها طويلًا،

من أجل الرجل،

ويتمنى لو أخذ السيف وضرب به مُدافِعًا عنه...

ويفتح عينيه،

دامعة مرة أخرى،

يصدمـه وجـه دميانـة الجالسـة أمامـه ترقبـه، تضطـرب شـفتاه، تنثيـان بحـزن شـبيه بزعـل الأطفـال، تمسـك دميانـة بيـده وتفـك قيـده بعصبيـة وهـي تقـول: «يريـد حمـزة أن يـراك الآن»، تتحـرر ذراعـاه، يسـيري فيهـا شـعور بالخـدر، ويشـعر بـكل جـزء منهـما ينبـض منفصـلًا ويـكاد يضحـك مـن تنميـل قدميـه وهـو يرفعهـما في الهـواء بابتهـاج غـير معلـن، يرفـع رأسـه ويغمـض عينيـه بـألم والهـلال يلتمـع بضـوء الشـمس المنعكـس، تخـرج دميانة سـلاحها وتوجهــه نحــوه بصمــت، يلتفــت عنهــا نحــو عبــد الله ومــن معــه، رآهــم وهــم يفــردون قطعــة القــماش العملاقــة، كســوة مريمــة، تتخللهـا الريـح فترفـرف مثـل علـم جبـار، يتعجـب مـن بهائهـا حتـى أن قلبـه ينبـض بعنـف وهـو ينظـر إلى قطـع الثيـاب

المتجاورة، كأنها أجساد الناس وقد التحمت، مشدودة بقوة إلى بعضها، متداخلة في تفاصيلها وكأن أصحابها كانوا حكاية واحدة، وحين اتخذ خطواته الأولى إلى جوار دميانة كان عبد الله يقف بمنتصف الكسوة وفي يده برميل دهان تلطخت حوافه بالأحمر الدموي وباليد الأخرى فرشاة دهان.

رغم اشتياقه للمشي، شعر حسن أن جسده ساخن، لم يشعر بملمس الأرض من تحته، ذلك الشعور الذي افتقده، شعر أن كل شيء باهت، حتى صوت طائرات الاستطلاع الذي يأتيهم على مراحل متعاقبة بدا له شديد البعد وضعيفًا وكأنه يحدث في عالم آخر.

منذ يومين فقط تفحصه عبد الله بدهشة وهو يقدم له طعامه الذي أصبح يزهده، تلمس جبينه بقلق، كان ساخنًا، قاس نبضه واستمع إلى صوت صدره ونظر في حلقه ولم يجد شيئًا.

بعدها كانت آلام تنتشر في أعضائه، بدأت بظهره، لم يستطع الجلوس على نفس الوضعية طويلًا، أصبح يتقلب في جلسته كل عدة دقائق حتى أثناء نومه، جاءه عبد الله بقيد جديد أطول من سابقه ليتيح له بعض حركة، لكنه بدأ يشعر بضغطة هائلة في الجزء الخلفي من باطنه، كأنه كبده، يتلوى في مكانه، أحيانًا يقيء من شدة الألم، وزادت ساعات نومه، ينام النهار بطوله، متعرقًا رغم البرد، مستيقظًا في الليل بصداع جنوني وكأنه لم ينم لحظة منذ أيام.

يفتح عينيه والأطفال يستعدون للنوم، والكسوة قد زاد حجمها، والسماء قد أمطرت، ويسمع الطفل يحادث أشباحه.

حين وصلوا إلى دار حمزة كانت خالية على غير عادتها،

لا زوار ولا أصحاب حاجة ينتظرون دورهم بالدخول، وكأن منظر مجدي برأسه الذي اخترقه الرصاص قد أبعد الناس عنه ونزع صفة الرحمة التي طالما ألصقوها به عنه، هو نفسه بدا شاحبًا وهو يفتح بابه لهم، انعقد حاجباه حين لمح حسن وقال: «ما أشد ما تبدو مجهدًا!»، وتركزت عيناه على ذراعه وهو يسأل متعجبًا: «ما هذه البقع على ذراعك؟ هل أصابك الجرب؟!»، بسرعة التفت دميانة إلى حيث ينظر حمزة وخفض حسن رأسه وهو يفرد ذراعه أمامه، أوشك أن يتقيأ تقززًا وهو يتذكر كتف ابنته في آخر مرة رآها فيها.

«اطلبي من عبد الله أن يتفحصه جيدًا حين تعودين به يا دميانة»، هزت المرأة رأسها بكآبة وابتسم حمزة متحيرًا وهو يرى النظرة القلقة على وجهها وهي تنظر إلى حسن. هز رأسه لها شاكرًا وهو يطلب منها أن تنتظر بالخارج، وحين أغلق الباب اقترب من حسن مشيرًا إلى كرسي قريب: «ألا تجلس؟»، «لا» أجاب حسن باقتضاب، كان وجهه ممتقعًا، ربما جزعًا كذلك، أراد حمزة أن يطمئنه فقال بهدوء: «عندي لك خبر سعيد»، التفت إليه بصمت فتابع حمزة: «أخبرني مجدي أن ابنتك ما تزال حية يا حسن»، ابتسم بدهشة، وفي لحظة اغرورقت عيناه بالدموع، تراجع خطوات حتى جلس على الكرسي عاجزًا، نظر إلى البقع على جسده وهمس لنفسه: «فليكن عقابه لي أنا إن كان في هذا شفاؤها»، تابعه حمزة بتأثر حاول أن يخفيه فأشاح بوجهه عنه بينما حسن يسأله بلهفة «هل تحدث إليها؟ هل تحسنت حالتها؟»،

«لم يقل أكثر مما قلتُ لك»، أجاب حمزة وأضاف بوهن: «كان هذا آخر ما قاله قبل أن يموت»، ومرت لحظة صمت

طويلـة.

«أحتاجُ إليك يا حسن».

رفـع حسـن رأسـه إليـه فتابـع حمـزة: «سـيدخل العميـد هضبتنـا، كل مريمـة تعـرف ذلـك الآن، طائـرات الاسـتطلاع هـذه والقصـف السـابق ومعركـة التسـعة وأربعـين رجـلًا، كلهـا علامـات اقـتراب نهايتنـا»، وتنهـد حمـزة، كان مدفوعًـا للدفـاع بالواجـب نحـو قريتـه وليـس بالأمـل، تمالـك نفسـه وسـأل: «أخـبرني عـن العميـد يـا حسـن».

وتكلم حسن،

أخبره بكل ما يعرفه،

وغيمت فوقهم سحابة كآبة سوداء،

ومـن الخـارج كانـت دميانـة ملتصقـة بالبـاب، تسـمع الأصـوات متداخلـة لكنهـا تفهـم السـياق، وبمـرارة غـير مصدقـة تضغـط عـلى صدرهـا لتوقـف اضطـراب قلبهـا،

حتـى بعـد عودتهـا إلى الـدار حيـث تبيـت ظـل قلبهـا يؤلمهـا وهـي تتذكـر صـوت شـهقة حمـزة بعـد أن طلب منه حسـن سـكينًا وشـق ذراعـه ليرقـب الـدم الصديـدي ينـز ببـطء مـن جرحـه، أما حمـزة فلـم يسـتطع النـوم ثـلاث ليـال متتابعـة وكلـمات حسـن عـن العميـد تتكـرر داخـل عقلـه وكأنهـا دسـتور أو سـطر أخـير مـن حديـث نبـوي..

«العميد غير قابل للهزيمة».

لكنـه حـين نـام أخـيرًا بعـد تلـك الليـال رأى نفسـه وهـو يقتـل العميـد،

وارتاح لدرجة جعلته يقهقه وهو نائم.

رغم أن المشاعر قد ماتت مع مقتل التسعة والأربعين رجلًا ومن بعدهم مجدي، ورغم القلق الكئيب بانتظار المأساة المقتربة من مريمة، إلا أن روحًا جديدة سرت حين دعا عبد الله أهلها إلى التجمع لرؤية الستار معلقًا.

ذلك الذي أخبره شيخ الحلوى أنه سيحميهم، كل من سيجلس تحته، ربما كل من يلتجئ به سيعيش، كل من قدم قطعة ملابس من أجله أو اعتلى سطحًا ليرَ ما نقش عليه سينجو.

من الصعب تصديقه، لكن عبد الله في لحظة أمل تشبث بتلك الكلمات وأراد يشارك اللهُ فيها، فرسم بالدهان في منتصفه وبحروف كبيرة «الله».

هكذا فردت الكسوة العظيمة، أمسك الرجال بأطرافها ساحبين إياها إلى نهايتها، كثيرون تسلقوا ما بقي من سور الجامع والبيوت القريبة، مثل جماهير كرة القدم الفقيرة. تعالت همهمات بالمكان، متداخلة ومتعاظمة، بينما كلمة «الله» تتضح أمام الأعين بحروف بسيطة لكنها متفاخرة، ولم تفخر العربية بنقش مثل نقش اسمه العظيم، جُلب سلم عملاق كان قد سرق من وحدة إطفاء القرية ولم يظهر من حينها إلا الآن وكأن سارقه يتوب، تسلقه أحد الرجال، مبتسمًا، له وجه دقيقةٌ ملامحه، تحاوطه لحية خفيفة ويغمر جبهته عرق بارد وهو يسحب القماشة الثقيلة رابطًا نهايتها بنتوء ظاهر من أحد الأعمدة المتبقية من أسوار جامع صخر.

ظل يربط القماش حوله طويلًا بينما يرقبه الناس، وفي

لحظة خارج مفاهيم الأرض المتعارف عليها ظهر صاحب الثوب الذي يلف حول العمود، ومشى دون إضاعة لحظة ومن دون أن يراه أحد لأنه ميت، حتى وقف إلى جوار أمه التي كانت عيناها تحاول أن تميز ثوبه في الكسوة العملاقة.

أراح الفتى خده على كتفها الأيمن واشتم رائحة الياسمين التي تفوح منها، فابتسم بهدوء بينما اشتعل برد محبب داخل صدر الأم ونزلت دمعة لم تفهم سببها على خدها ما أن مسحتها حتى تتابعت دمعات أُخَر حتى أنها لم تعد قادرة على النظر إلى الكسوة.

في تلك اللحظة المهيبة، الهاربة من نطاق زماننا الكئيب، تتابع دخول أصحاب الثياب إلى الساحة متخفين بين الأهالي، مقبلين بمحبة قديمة لم ينتزعها الموت ولا أصحاب السلاح من النظام، احتضنوا الأحياء، لامسوا الأيدي، مسحوا الوجوه وربتوا على الرؤوس، ولأول مرة رأت يارا ما كان أخوها يتحدث عنه طوال الوقت، ميزت أمها بوقفتها اللطيفة وجسدها المعتدل وحجابها الطويل، تمامًا كما تركتها، أصابتها لهفة ملفوفة بالأسى والاشتياق وهي تنظر إليها، واحتضنت الرضيع إسماعيل الذي شعر وللحظة سريعة أن أمه هي التي تحتضنه، تلك التي نام بين ذراعيها آخر مرة تحت أنقاض السرير الخشبي القديم، وابتسم بسعادة وهو يغلق عينيه فشم رائحتها وسمع صوت شفاها اللطيف على خده.

علق طرف الكسوة الآخر على الركن الأبعد مما تبقى من أيام الشيخ محمود الزكي، علقها شاب في الطرف المعدني

الـذي كان يربـط حبـال نـشر الملابـس أيـام كان الشـيخ مـا يـزال حيًّـا، حـين فعـل، سـمع كثـيرون صيحـة ضاحكـة وكأنهـا جـزء مبتـور مـن أذان سـعيد، وظلـوا يُقسِـمون بعدهـا أنـه كان صـوت الشـيخ نفسـه الـذي انتشـا بمـرأى الكسـوة وهـي تلتصـق بـداره، وسـار حسـن مبتعـدًا عـن دميانـة، تركتـه يفعـل وهـي تمـشي وراءه بصمـت، رأتـه وهـو يقـترب مـن عبـد الله، يهمـس بأذنـه وببـطء يوسـع لـه عبـد الله فرجـة بـين الرجـال فيمـد حسـن ذراعـه المرتعشـة والـدم المتجلـط مـا يـزال يغطيهـا ويحمـل الكسـوة معهـم.

وصـاح صائـح لم يعـرف أحـد مـن هـو بصـوت جهـوري «قـد رضي الله!».

دائـــمًا أظــل مســتقلًّا، مــدركًا لحــدود جســدي حتــى مغــادرة الممــر..

أقبلهـا حـين أدخـل في بـزة الجاذبيـة الضيقـة وأسـيرُ بصعوبـة حتــى أصعــد طائـرتي وحتــى حــين أقودُهــا عــبر الممــر الإســفلتي أكــون وهــي جزئــين منفصلــين، أشــعر بســيطرة مختلطــة بعــدم راحــة وتوتــر فقــط حتــى تــأتي اللحظــة العظمــى.

حين تنفصل عجلات المقاتلة عن الممر.

حينهــا أنســى ذلــك الإحســاس في نفــسي وأصبــحُ جــزءًا مــن طائــرتي،

وتدخلني عظمة هادئة،

أصبحُ أكبر من كل شيء في حياتي حتى أحبتي،

لأني بالأعــلى في الســماء أرى كل الأشــياء وهــي تتصاغــر مــن تحتــي إلا أنــا أتعاظــم،

ومثل الآلهة أستمتع بالأعالي..

مــا تــزال المســافة طويلــة حتــى أصــل هــدفي؛ لذلــك أرتفــع أكثــر حتــى تصبــح الســحب تحتــي،

تضيــق بــزتي عــلى رجــلي مــع ارتفاعــي كــي يســتمر تدفــق الــدم إلى رأسي بسلاسة،

وأفكر أن الحروب لم تعد كما كانت،

كل ذلــك العــرق والألم والجــراح التــي رأيتهــا في الأفــلام الحربيــة القديمــة،

أيام أفغانستان وحروب الشرق القديمة قد اندثرت.

هذه الأيام أسهل...

بالأمس فقط كنت أسير باتجاه النادي الذي بناه بعض الجنود في زاوية ترابية بعيدة بالقاعدة، ليس ناد قانوني تمامًا لكن القادة تركوه لنا؛ لأنهم يعلمون أننا نحتاج إليه، نحتاج أن نتذكر به نوادي مدننا التي أوحشتنا في هذه المهمة الكئيبة التي تبدو وكأنها ستطول سنوات، بنادينا هذا نجد أنواع العصائر والفطائر والمثلجات التي اعتدناها، فرقة موسيقية تشكلت بجنود مختلقة من فرق سلاح مختلفة تلعب موسيقى الروك، وفي ليالي الإجازات أو احتفالات النصر تكون زجاجات خمر معتق حاضرة.

حتى الطعام هنا، ألذ من أي شيء أكلته من قبل، جلبوا طباخين محليين لأن وصفاتهم عبقرية! يستخدمون البهارات بدقة وتنوع ساحر وأنا أحب ذلك...

فقط أتمنى لو استطاعت زوجتي أن تجربه معي...

هي الشيء الوحيد الذي أفتقده في رحلتي هذه ولا يمكنني تعويضه.

وجهها لا يغيب عن مخيلتي خاصة بالأوقات التي أكون وحيدًا بها، وقبل أن أنام أظل أتذكر لحظاتها معي ساعة أو أكثر حتى أغيب أخيرًا،

لطيفة مثل قطة نادرة،

لعوبة مثلها،

مرحة حتى في ساعات الغضب،

تقبلني كثيرًا حين ندخل سريرنا لننام، تحتضنني مثل طفلة من دون مقدمات...

وتسمع لي بهدوء،

تحب كل ما أفعله معها،

حتى أهلها أفتقدهم الآن، الليال التي أبيت بها عندهم، المدفئة العتيقة ورائحة الخشب المحترق، والاهتمام الطيب في نظرات أعينهم،

الأمسيات التي ألاعب أباها الورق فيها أمام التلفاز...

كل شيء على ما يرام ببلدتي،

ولا شيء يستحق البقاء هنا...

حتى المنظر من أعلى...

يبدو بلا قيمة، يقاتل هؤلاء العرب من أجل أرض لا تساوي شيئًا،

لم يكن الرب معجزًا إلى هذا الحد فيما خلق بها، إعجازه الحقيقي ببلدي وبلدان أخرى قريبة زرتها طائرًا،

في الغابات البرية والبيوت الرشيقة...

الدببة المتجولة والذئاب البيضاء، الصحاري الثلجية والجبال الملونة، تمامًا مثلما لم يكن معجزًا في خلقه لناس هذه الأرض..

ببلدي الرجال والنساء أرباب جمال بألف لون في أعينهم وشعورهم وجلودهم،

وهنا مجرد بشر،

قيـل لي يومًـا إن كنـز العـرب في قلوبهـم وكنـز الأوروبيـين في صورهـم،

محض فلسفة...

الآن..

أقترب من هدفي،

تنساب طائرتي للأسفل ببطء،

أعبر السحاب،

أريد أن أرى ما سأفعله جيدًا،

تتباطأ سرعتي لأمتلك القدرة على التحديد،

بلـدة كاملـة في حجـم زر الإطـلاق أو أصغـر، فكيـف آسـى عليهـا؟!

هل يحزن الإنسان على تدمير مستعمرة نمل؟!

لكني لن أحرق إلا هدفًا واحدًا هذا الصباح،

وقد اقتربت منه.

مـر مـن جـواري سرب حـربي غـير بعيـد حتـى أني لمحـت ألـوان أعلامـه المزخرفـة بنجومهـا البيضـاء وخطوطهـا الحمـراء الأنيقـة.

لـو كان بيننـا موجـة اتصـال مشـتركة لقلـت: «هـاي!»، أذكـر أني في طلعـة طـيران ناجحـة بهـذا البلـد وفي خضـم نشـوة أدرينالـين كاسـحة عصفـت بجسـدي بعـد أن أنجـزت مهمتـي مـررت إلى جـوار مقاتلـة لهـم.

حازيتهـا بسرعـة متقاربـة كأننـا سرب واحـد، ثـم رفعـت كفـي

محييًا بمرح كأننا رفقاء، فرفعَتْ قائدة المقاتلة نظارة خوذتها ودق قلبي بعنف وأنا ألمح أجمل عينين رأيتهما في حياتي، وحين رفعت نظارتي مثلها ابتسمت، عرفت ابتسامتها من رسم حواجبها وأشارت لي مودعة وهي تنفصل.

كانت تلك أعظم لحظة لي بالسماء، أكثر اللحظات فخامة وزهوًا وغبطة...

ابتسمت حين تذكرتها، ربتُّ على عصا التحكم بفخر وهمست: «انظروا ماذا صنعنا»،

صفرت أذناي وأنا أسمع صوتًا عظيمًا يهدر فيهما «انظر ماذا صنعت»، انتفضت بعنف، نظرت إلى موجة اللاسلكي، كانت ساكنة، سكت وخوف يلفني ونظرت من زجاج نافذتي متفحصًا فرأيت السحاب العظيم.

كانت السحب تنضح الآن بآلاف الأشياء، سحب ركامية تعج بالكهرباء، برق منتشر كجبال سماوية وأمطار على وشك الهطول، ورغم كل ذلك بدت مزدحمة بالطير وللحظة ارتعشت يداي؛ لأنها بدت ممتلئة بمخلوقات فضائية.

«يجب أن أنتبه»، فكرت والأدرينالين يتصاعد فيَّ، فيجعل الأشياء تتباطأ من حولي، أخفض ارتفاعي أكثر، الآن تتوقف كل أنواع مشاعري وأفكاري وأتابع كل شيء من حولي حتى أكاد أميز حركة الذرات وأنا اخترق البياض الشاهق للسحب كأني أبحر في كيس قطن، تغطي زجاج قمرتي رشات ماء ما تلبث أن تختفي متبخرة بالسخونة الميكانيكية...

ثم تظهر الدنيا من تحتي...

بسرعة تنطلق مشاهد الأطلال المبعثرة والبيوت القديمة والمزارع الخضراء والشوارع الضيقة وتجمعات الرجال التي ترفع رؤوسها للأعلى نحوي وكأنني المسيح قادمًا، إلى خلفية عقلي تراكمت تلك المشاهد وتجسد هدفي الذي انفتحت عيناي وأنا أنظره...

بساط عظيم انتشر بين البيوت والأسوار المتهدمة، مغطيًا رقعة واسعة، مهيبًا كوحش خرافي رغم بساطته، متحديًا بتلك الكلمة الحمراء التي دهنت عليه بلون الدم، ميزتها من فوري، كانت من أهم الرموز التي علمونا إياها حين أتينا إلى هنا، طُلب منا احترامها أمام أهل البلاد وإن بصقنا عليها بعد ذلك وحدنا.

تسارعت نبضات قلبي وأنا أقترب،

الآن سأحرق هذه الملآة العملاقة،

تكلمت قائلًا: «الهدف أمامي»،

«تعامَل» جاءتني الإجابة فورًا،

مددت يدي إلى زر الإطلاق،

قبل أن أرهف سمعي مركزًا،

لكن الصوت لم يحتج إلى تركيز ليسمع، لم يأت مستترًا بضجيج الطيران مثل العيوب البسيطة الأخرى، جاء واضحًا مستمرًا ككابوس لا يمكن الاستيقاظ منه، كصوت سعال عجوز مشرب بسوائل حلقها العفنة، ارتجت الطائرة حتى أن يدي انزلقت عن الزر، بدأت التحدث للقاعدة لكن الصوت انطمس تمامًا مع حروفي الأولى ومالت الطائرة

بعنف جهة اليسار، فقدت ارتفاعي في لمح البصر وأنا أصرخ «جُنَّ المحرك!»، ثم سمعت أقبح صوت سمعته بحياتي، عملاقًا جاءني وكأنه مكرر ألف مرة ورأيت في الفضاء من خلفي ذيل طائرتي الذي انفصل وهو يدور في الفراغ وكأنه يحتفل بحريته! امتلأت عيناي بدمع مذعور بينما أسمع الأمر المشؤوم على موجة الاتصال يرن بخوذتي: «انفصل عن الطائرة الآن وحدد مكانك»، سيأتون من أجلي، أعرف ذلك لكني لا أعرف إن كنت سأكون حيًّا حينما يفعلون، لا وقت لأي تفكير، هذا وقت النجاة فقط، ضغطت زر إطلاق الكرسي وأنا أغمض عيني بقوة...

وصرخت وجسدي يرتجف مع انخلاع زجاج الطائرة،

ارتد جسدي للخلف بعنف حتى أني سمعت صوت احتكاك عظامي وانفصل الجزء الأعلى من خوذتي فارتطمت قطرات الماء البارد بعيني بعنف وصرخت وأنا ملتصق بالكرسي الذي ظل ثابتًا في الطائرة الهاوية، شعرت أن لحمي يتقطع مع قوة الريح، حاولت فك حزامي فلم أفلح، بكيت وأنا أضرب زر الانفصال من جديد مرات متتابعة، أيقنت أنها النهاية..

انفتحت عيناي على اتساعهما، شعرت بخراب حدقتي عينيي مع الريح المسعورة، وانفلت الدم من منخاري، رأيته يزوى في الهواء، صفرت أذناي بجنون وفي لحظة أخذت آخر قرار لي..

ثبتُّ يدي على عصا التحكم...

هذا وقت خلق نهايتي بيدي لا بالمطر..

سأتم ما جئت من أجله،

ولتروى قصتي على أطفال المدارس، وليطلق اسمي على أكبر مستشفيات بلدتي، لأكن قديسًا تُدرَّس قصته للعسكريين الجدد وتُعرض صورتي أمامهم على شاشة عرض كبيرة مرتديًا بزتي العسكرية ورائحة عطري تكاد تصل إلى أنوفهم.

لتخلد زوجتي معي وهي تستلم نوط الشجاعة والتضحية نيابة عني...

هكذا فكرت،

ورغم الثوان الفاصلة عن الارتطام الأخير،

رغم أن كله انشغل بتوجيه طائرته نحو الساحة وقد قرر أن يكون هدفه اللام الوسطى بكلمة «الله» المدهونة بالأحمر، استطاع أن يجد الوقت ليتذكر وجه زوجته،

رآها في ثياب بيت بسيطة،

منقوش عليها أزهار أنيقة،

وفكر في لحظة أخيرة إن كانت ستعيش لذكراه أم تبدأ من جديد مع غيره،

وتمنى أن يحتضنها...

في ذلك الوقت كانت هي متكئة على سريرها الكبير ببيتهم الجديد بوسط العاصمة،

يتساقط الثلج بنعومة خارج نافذتها بينما تمسك يدها بهاتفها الذكي وأذنها موصولة بسماعة أذن باهظة اشتراها لها زوجها من إحدى رحلاته لألمانيا، تسمع أغنية لفرقة «تشين سموكرز»...

في بلدة ملأى بالسيارات الباهظة
والمقاهي المزدحمة بالنساء الفاتنة
تبدو تمامًا كما رسمت داخل عقلي
عندما حلمت بها
كل الأشياء التي استطعت أن أعيش بدونها
أريدها الآن لأنها في كل مكان حولي
والشيء الوحيد الذي لا أتحمله
هو أن أخسر نفسي محاولًا أن أكون شخصًا آخر

بينما يدها الأخرى بين فخذيها تلامس بظرها وهي تقرأ الكلمات الماجنة المشتعلة بالخلاعة الفاسقة التي يرسلها لها شاب عربي مهووس بالجنس ضل طريق الكتابة، فاخترع لنفسه أسماء وهمية وحكايات خيالية ودخل غرف الدردشة بحثًا عن نساء متزوجة متظاهرًا بأنه شخص آخر.

وفي لحظة غير منسية بتاريخ مريمة، رأى أهلها الصاروخ وهو ينطلق من تبة قريبة لم يعلم أحد أن هناك من يسكن بها واخترق الهواء المعبق بالريح والمطر والبرق بسعة عظيمة مخلفًا وراءه خيطًا أبيض انبعث بسبب محركه المحترق حتى التحم بمعجزة بجسم الطائرة الساقطة، مسكتًا كل ضجيجها بلحظة انفجار آنية رشيقة في السماء، مضيئًا ظلمة الغيوم ومحولًا إياها إلى أشلاء مبعثرة سقطت ببطء شديد ومن غير صوت.

أُذِّن لمغرب جديد وصلى الناس في ما بقي من جوامع، ودق باب منزل مجدي.

انتبهـت زوجتـه مذعـورة، امتـلأت عيناهـا بدمـع خائـف وهـي تدفـع بنتهـا إلى أقـصى غرفـة بالـدار وتدخـل معهـا حاملـة رضيعتهـا.

وانكتمت الأنفاس حتى يبتعد القادم.

لكـن حمـزة صـبر طويـلًا، ودق مـرات متتابعـة بهـدوء، وبنغـمات مميـزة، كأنهـا ألحـان أغـان شـعبية قديمـة أو دق طبلـة يحملهـا المنـادي بليـالي رمضـان، نـادى باسـمه مـرات مطمئنًـا، وعـد خـيرًا، انتظـر كثـيرًا حتـى انفتـح البـاب أخـيرًا.

وارتعـش قلبـه وهـو يـرى الطفلتـين الجميلتـين، تنظـران مشرئبتـان كأرانـب خائفـة وأمهـما أمامهـما تنظـر نحـوه بهلـع لا تحـاول أن تخفيـه.

كان مصممًا عـلى الوفـاء بعهـده كامـلًا لمجـدي، متحـضرًا لكل أعـذار المـرأة وطرقهـا التـي سـتحاول بهـا أن تبعـده عـن الطفلتـين أو تفقـده الأمـل في الاقـتراب منهـما، أخـبره مجـدي بـكل شيء وعينـاه تدمعـان، وخلـق خيـال الكاتـب عنـده سـيناريو محتمـل لـكل مـا سـيمر بـه معهـا، فـكان صـبره أشـد مـن محـاولات إثنائهـا.

تجاهـل توسـلاتها، نوبـات الذعـر والبـكاء المرتجـي ثـم صيحـات الغضـب واللعـن، صـبر عـلى كل ذلـك برفـق حليـم ووعـود بإعادتهـم سـالمين، وبعـد وقـت صعـب كان خـارج الـدار

معهما، ممسكًا بيد صفية وحاملًا أختها على ذراعه، ترقبه عينا المرأة الباكيتين من نافذة غرفتها وصلواتها تتردد أن يعيدهما الله إليها سالمين ويلعنه بعد عودتهما إليها.

سار معهما بالطرق التي ما تزال عامرة بالناس، لم يكن بمريمة سيارات تعمل فاطمأن لترك صفية تسير بمفردها أمامه في برد لطيف وأنوار قناديل يدوية الصنع، وبيوت من حجارة كبيرة لها نوافذ عامرة بحياة سحرية وكأن عمر بن الخطاب سيظهر متفقدًا إياها بأي لحظة.

بأمر علوي، خبأت الظلمة مشاهد البيوت المدمرة بينما أعين الطفلتين تمران بكل شيء بهدوء عجيب، تابعهما حمزة بنظره، الصغيرة بين ذراعيه تمد عنقها بفضول وشعرها يلامس وجهه، في بدء مسيره بها كانت تحاول ألا تمسه بذراعيها، تبعد وجهها عنه وكأنها تبقي على المسافة بينهما، ثم حين طافوا الشوارع طويلًا واعتادت صوته الهادئ، أحس بذراعيها يرتاحان على عنقه ولامس خدها وجهه حتى أنه شعر بنفسه وقلبه يدق بتتابع مريح لم يشعر به من قبل.

صفية، كان الخوف باديًا في عينيها، في مشيتها المترددة، لا تكاد تلامس الأرض بخطواتها، كأنها تمشي على سحاب تخاف أن تقع منه.

رأى خوفها وسطوة كلمات أمها المحذرة يكتسحان كل قدرتها على التحرك، بدت وكأنها تؤنب نفسها؛ لأنها ابتعدت كل هذه المسافة، أمسك يدها بلطف، ربت على رأسها وهو يهمس: «أنارت حارات مريمة بوجودك فيها الليلة»، نظرت له بامتنان وببطء لمح ابتساماتها وهي ترى أشياء تسعدها،

تألـق فسـتانها البسـيط عليهـا، أعظـم مـن ثيـاب أغنيـاء عالمنـا، اهتـز ذيـل شـعرها الطويـل عـلى ظهرهـا سـاحرًا، مـن طـرف خفـي بمنزلهـا كان حمـزة قـد رآهمـا وأمهـا تلبسـهما ثيابهـما، رغـم غرابتهـا وعـدم الارتيـاح الـذي تثيره حولهـا، رآهـا حمـزة وهـي تهتـم بهـن حـين زينتهـن للخـروج معـه، رأى كيـف كانـت تحتفـظ بملابسـهن بحـرص في أكيـاس شـفافة حتـى لا تسـتهلك سريعًـا، وكيـف حاولـت أن تدخـل قميـص الرضيعـة داخـل بنطالهـا القصـير الـذي بهـت لونـه حتـى تخبـئ قطعًـا بنهايتـه داخـل الملابـس، كيـف صففـت الشـعر بعنايـة وتـأنٍ.

رأى كيـف كان جسـدها نحيـلًا وكأنهـا مريضـة وكيـف تبـدو أجسـادهن عفيـة، وتذكـر قـول مجـدي لـه: «ربـما في النهايـة هـي امـرأة مسـكينة»، وتباطـأ حمـزة في خطواتـه، ثـم بـدأ بالحديـث ليزيـل كل رهبـة، لم يكـن لديـه مـا يقولـه لكنـه وجـد نفسـه ينظـر للأشـياء مـن حولهـم ويختـرع الحكايـات.

كانـت حكايتـه الأولى حـين فزعـت صفيـة مـن خنفسـاء مـرت أمامهـا ببطء، ورغـم تقززه وضـع أختهـا عـلى الأرض وانحنـى ممسـكًا بهـا، أراهـا إياهـا مـن قريـب وهـي تحـاول أن تفلـت مـن بـين أصابعـه وقـال «تريـن هـذه الخنفسـاء؟

حـين اشـتد الحصـار عـلى مريمـة ومنعـوا عـن قريتنـا كل شيء حتـى الـدواء، وجـد عبـد الله، الطبيـب الوحيـد الـذي بقـي بمريمـة، نفسـه عاجـزًا عـن عـلاج الأطفـال مـن الحمـى، كان هـؤلاء الأطفـال سـيموتون أمامـه لـو لم يختـرع الـدواء بنفسـه؛ لذلـك قـرر أن يجـرب كل شيء مـن أجلهـم، خـرج مـن داره المجـاورة لجامـع صخـر الكبـير، وأخـذ يجـرب كل الأشـياء

الموجـودة بقريتنـا مـن أجـل تريـاق جديـد، أوراق الشـجر وجذوعـه، الرمـل والـورود والبتـلات، صنـع الكريـمات مـن الطـين وريـش الطيـور، جـرب كل الأشـياء، أطعمهـا، سـقاها أو دهـن بهـا الأطفـال وهـو يدعـو الله، لم يفلـح منهـا شيء.

وبينـما هـو جالـس أمـام عتبـة داره مهمومًـا مـن أجلهـم، مـرت أمامـه خنفسـاء كهـذه، فكـر قليـلًا ثـم مـد ذراعـه وأخذهـا إلى صحـن داره حيـث طحنهـا ثـم خلـط مـا طحنـه باللبـن وسـقاه للأطفـال بـاردًا»، كانـت عينـا صفيـة متسـعتان باهتـمام، نسـيت اشـمئزازها وخوفهـا وهـي تسـتمع بانتبـاه تـام، وللحظـة تذكـرت أباهـا.

«تخيـلي يـا صفيـة أنـه خـلال سـاعات قليلـة شُـفي الأطفـال؟! توقفـوا عـن التـألم، قامـوا مـن أَسِرَّتهـم ووقفـوا عـلى أقدامهـم وبـدأوا يلهـون بـداره حتـى أنهـم كـسروا مزهريتـه الثمينـة!».

«صنع دواء من خنفساء!».

«قـد فعـل» أجـاب حمـزة وهـو يشـير إلى رأسـه بإصبعـه ويقـول: «لأن الله لم يخلـق شـيئًا في هـذه الحيـاة، جميـلًا كان أو قبيحًـا، مريحًـا أو مخيفًـا إلا وجعـل لـه فائـدة، ولأنـه يعلـم أن هنـاك أشرارًا يريـدون إيذاءنـا فقـد مـلأ مريمـة بهـذه الأشـياء لندافـع بهـا عـن أنفسـنا ونعيـش».

توالـت الحكايـات الخرافيـة بعـد ذلـك طـوال الطريـق، وجـد نفسـه يقصهـا واحـدة بعـد أخـرى، حكايـات أعظـم مـن كل مـا نقـرأ وكأنهـا تخـرج مـن قلـم عـدي الحربـش نفسـه، تلـك الكذبـات كانـت الحقيقـة المطلقـة في عينـي صفيـة وبـما يشـبه وحيًا إلهيًّـا اسـتمعت لهـا الرضيعـة وهـي تنغـرس بعقلهـا الصغـير،

هكـذا حكـى لهـما عـن الكلبـة التـي أنقـذت رضيعًـا وربتـه أيامًـا حتـى وجـده أهـل القريـة، وعـن الجـدار الـذي تكلـم باكيًـا طالبًـا مـن أهـل الـدار الهـرب قبـل أن ينهـدم في غـارة، وعـن الشـمس التـي قـررت أن تجنـب أهـل مريمـة حرارتهـا وأرسـلت الشـتاء مبكـرًا رحمـة بهـم بعـد أن ضرب النظـام محطـة الكهربـاء.

كانـت آخـر حكاياتـه حـين ظهـرت المئذنـة المكسـورة أمامهـم، تحتهـا حسـن المريـض، قـال لهـم إنـه حـين مـات الشـيخ محمـود الزكـي مـؤذن الجامـع ودفـن إلى جـوار سـوره، سـمع النـاس صـوت انبعـاج المعـدن داخـل المئذنـة وتلـوي الصخـور وانبعـث الغبـار منهـا مصحوبًـا بصـوت مسـتمر خافـت تشـعر لـو اقتربـت مسـتمعًا لـه أنـه يشـبه النـواح، ببـطء شـديد انثنـت ولم تتوقـف حتـى أشـار هلالهـا إلى المـكان الـذي دفـن الشـيخ فيـه...

وسـألته صفيـة برهبـة «هـل تنثنـي الأشـياء مـن أجـل مـن تحـب بعـد موتـه؟».

«نعم أيتها الأميرة»..

كاذبًـا قالهـا، لكنـه لم يكـن يعلـم أنهـا الحقيقـة؛ لأن دعـوة مجـدي قبـل موتـه للطفلتـين انحنـت عـلى نفسـها بعـد موتـه، ظلـت تنثنـي حتـى شـكلت مـا يشـبه دائـرة انمحـت فيهـا نقطـة البدايـة والنهايـة، وكأنهـا تـتردد ألـف مـرة كل يـوم وليلـة وبـلا توقـف، لدرجـة أن صفيـة هـذه عاشـت حتـى قاربـت المائـة عـام، بصحـة وعافيـة وبأقـل القليـل مـن الـضرر والألم حتـى أنهـا لم تسـتطع أن تتذكـر الكثـير، وهـي تحكـي لأولاد أحفادهـا عـن أيـام الحـرب تلـك سـوى نزهـات ليليـة مـع رجـل ضخـم يحـب أن يـشرب الشـاي مـن برطـمان زجاجـي، وعدتهـا الملائكـة

وهـم يـرون حياتهـا امـرأة نالـت حـظ مائـة إنسـان سـعيد في حيـاة واحـدة في الدنيـا، ومثلهـا أختهـا التـي عاشـت حبًّـا تكلَّـل بسـبع أبنـاء أسـمت أكبرهـم مجـدي، متمتعـة بهنـاء لا أجـد تفسـيرًا لـه إلا دعـوة أبيهـم الصادقـة التـي انثنـت عـلى نفسـها بـلا توقـف كل هـذه السـنين وكأنهـا طـواف حـول كعبتنـا.

ودخلوا الساحة...

ارتعشت يد صفية في يد حمزة حين لمحتهم،

يـارا ومحمـد الـذي تـدلى سـيفه مـن يـده لحظـة قبـل أن يقفـز صارخًـا باسـتثارة وهـو يجـري إليهـما ومـن خلفـه أختـه وخلفهـما الرضيـع. بحـرص أنـزل حمـزة الرضيعـة وأصـوات الـصراخ السـعيد تتعـالى بينـما يتحـرك الصغـار مـن حولـه.

وللمـرة الأولى سـمع قهقهـة صفيـة الرشـيقة ورأى قلبهـا يرقـص داخـل صدرهـا وهـي تحتضـن أختهـا ألا تقـع.

لكنـه انقبـض وهـو ينظـر إلى حسـن، هالـه منظـره، وجهـه الشـاحب وقطـرات العـرق المتجمـد عـلى جبينـه وارتعـاش يديـه، واضطـرب وهـو يشـم رائحـة بحريـة مالحـة تفـوح منـه مثـل العـرق فنـادى بتوتـر عـلى عبـد الله الـذي اقـترب وعـلى وجهـه نظـرة حزينـة.

«ألا تفعـل لـه شـيئًا؟» سـأله حمـزة، فهـز عبـد الله رأسـه بانعـدام حيلـة وهـو ينظـر إلى سـجينه بصمـت، وأشـاح حمـزة بوجهـه عنـه متنهـدًا، رفـع رأسـه إلى السـماء، يسـمع الجميـع أصـوات الطائـرات الآن لكنهـم لا يسـتطيعون رؤيتهـا بسـبب قطـع السـحاب العملاقـة التـي أظلـت مريمـة منـذ أيـام، لم يـأت

شتاء كهذا على الأحياء بهذه القرية، يعلم أن الموعد يقترب، طائرات الاستطلاع هذه وصوت مكبرات الصوت البعيد علامات، يعلم أنه لو اقترب من حدود مريمة الشرقية سيمكنه أن يشم رائحة القار وعوادم المركبات ورؤية أعلام فرق النظام ترفرف.

لكنه لم يكن مستسلمًا، كان هو ورجاله يعملون من دون كلل منذ سقطت المقاتلة من قبلها وانسحق قائدها في السماء مثل شيطان بشهاب لم يعرف أحد من أطلقه.

عملوا في كل أنحاء القرية، عند الجسر المحطم والشارع التجاري،

بشارع دوار العمدة القديم ودور المهجرين ومحطة المياة المهجورة،

استخدموا كابلات الكهرباء وأسفلت الطرق وما تبقى من معدن بمريمة.

يعملون حتى لحظة المواجهة.

هكذا أمرهم،

كان يعلم عن عدوه ما قاله حسن له وهو يصدقه ويعلم عن نفسه ما أراه الله في حلمه ويصدقه أيضًا وإن كان خائفًا وهو يفعل.

والتفت إلى البنات...

ابتسم حين ميز أطفالًا جديدة تلهوا معهم،

عائلات تجلس مجتمعة، مستأنسة بقناديل تتدلى من الكسوة،

رأى رضعًا جدًا، متى ولد هؤلاء؟! وبأي إيمان في غدٍ آمِنٍ استطاع آباؤهم أن يفعلوا؟!

أطرق برأسه ومسح جبهته، لن يسمح أن تفتح قبور هؤلاء، يريدهم أن يعيشوا بجنون...

نادى على بنات مجدي، انحنت صفية على أختها، حملتها بصعوبة وتحركت نحوه ببطء، التفت مرة أخيرة لحسن وهمس «تشجع»،

لكن حسن لم يسمعه، كان يغوص في عالمه الخرافي أكثر،

كانت أحداث مهولة تقع فيه الآن، الرجل الهادئ ذو البردة قد قام! هل تصدق ذلك؟! ظننته جالسًا للأبد، لكنه توقف الآن والخشب في يده قد تغير لونه، لمع وانصقل، أصبح كاملًا الآن.. سيفًا حقيقيًّا.

رفعه الرجل فتجمع أعداؤه بذعر وهم يتسلحون لقتله، لكنه تجاهلهم، مشى نحو حسن، هز رأسه له مبتسمًا مشيرًا بالسيف، ومد حسن يده ليستلمه منه وجسده كله يرتعش، لكن صاحب البردة ترك السيف يسقط من سماء استوعب حسن الآن فقط أنه يقف بها وهو ينظر فزعًا للسيف الساقط عابرًا السحب ومن دون تفكير وجد نفسه يقفز خلفه ومن تحته لمعت أمواج بحر هائج بوسطه يهتز مركب صغير.

انسلخت زوجة العميد عن جسده، ابتعدت عنه بخطوات، تابع جسدها العاري، مسح قطرات العرق عن صدره، أغمض عينيه وزفر، والتفتت تنظر إليه طويلًا حتى فتح عينيه متوترًا وقالت: «لم تعد كما كنت».

هز رأسه بدهشة وهو ينظر إليها، بصعوبة ابتلع ماء حلقه وهو يرى نظرتها المتفحصة، ستعرف الحقيقة إن أطالت النظر أكثر، ستجعله يعترف أمامها، قفز من سريره وتوقف، كان بكامل ثيابه رغم أنه رأى نفسه معها عاريًا، مشى نحوها وهمس: «ماذا تعنين؟».

«أعني أنك لست أنت أيها العميد، لم تكن المقاتل الذي أعرفه هذه الليلة، كنت مجرد رجل بقلب».

«ألا تريدينني أن أكون بقلب؟».

«أتريد أنت أن تذكر الأيام القديمة؟»، قالتها وهي تتفحصه بغضب، هزت رأسها وكأن أملها قد خاب فيه، «أتريد قلبك من جديد؟ إن حصلت عليه في هذه الحرب ثق أنك ستتبعني إلى حيث أتعذب، ستكون حيث أنا، أتعلم ماذا أسمع الآن؟»، قالتها وهي تضغط وجنتيه بعنف، اهتز نهداها أمامه فارتعش وهو يرى نقطة دم.

«أسمع الآن موسيقاك اللعينة، بلا نغم، بلا قصة، بلا كلمات، فقط نوتة واحدة لجيتار مجنون له صوت ألف كلب، تتكرر بلا توقف داخل رأسي، أبحث عن كمالتها، عن الطبلة المصاحبة، عن كلمات لها معنًى، فلا أجد سوى

هـذه النوتـة القـذرة وأكاد أتقيـأ منهـا! تخيلنـي أقـول لـك حـرف واحـدًا مـن كلمـة لا تعرفهـا وأكـرره عليـك دون توقـف، كيـف كنـت لتشـعر؟»، تسـارعت أنفاسـه بـين يديهـا، انفتحـت عينـاه عـن آخرهـا، همس بخـوف يترجـى: «ربـما هنـاك بعـد هـذه الحياة شيء»، لطمتـه وهمسـت آمـرة: «اقتـل فكرتـك»...

اقتل فكرتك،

هكذا همس لنفسه وحده،

وهو يسمع أصوات التحضيرات الأخيرة بالخارج،

والأرض ترتـج تحتـه، يميـز تقافـز الحصـوات عليهـا، يشـبك يديـه الاثنتـين مفكـرًا،

قد حانت اللحظة،

وحين يترك خيمته سيبدأ الأمر،

هو إله الحرب الآن،

الأمـر جـاء مـن السـلطة الأعـلى، لكـن الحركـة عـلى الأرض مرهونـة بـه،

يجب أن تباد مريمة،

لأن قصة تبدأ فيها تشبه قصص ملاحم العرب القديمة،

تلـك الملاحـم التـي ختمهـا الله بملحمـة أخـيرة اختلـط فيهـا الشـجن وحكاياتـه بالنبـي المرسـل نفسـه،

منـذ ذلـك لا يكـف المسـلمون عـن خلـق الملاحـم والحكايـات الجديدة،

لا يكفون عن خلق الأنبياء والقادة المعجزين والأولياء..

وكل ولي وراءه جيشه، معجزته وكعبته،

كل ولي يخلق دولة جديدة تلتهم ما سبقها،

منذ جاء النبي محمد ماحيًا كل ما كان قبله..

لا بد أن تنتهي هذه الملحمة في مهدها،

لا بد أن تندثر قبل أن تبدأ شرارة جديدة،

هكذا يفكرون،

لكنه لم يفكر في كل ذلك وهو يتلمس قماش بدلته العسكرية، فقط أغلق عينيه محاولًا أن يكون نفسه القديمة،

حاول أن يمحو ذكرى رائحة النعناع بعقله،

أن يقتل أي صورة في ذلك العقل إلا صورته هو، أن يتضخم كما كان فيقتل بلا رحمة ويكسر الحد اللعين بعقل الإنسان الباطن الذي دائمًا ما يمنعه من أنجع الحلول بدعوى أنها مظلمة.

ومن فوقه كانت السماء...

لا يمكن رؤية القرية من تحتها،

السحب تتكاثر بلا توقف، تتداخل خالقة البرق..

يعرف الطيارون تلك السحب، تنبئ أجهزة رادار خاصة الطيارين ومراكز العمليات بأماكنها ودرجة خطورتها، لم تهتم بلادنا يومًا بمثل هذه الأنظمة، كانت سحبنا قليلة، ما أسرع أن تتبدد، لا تؤذي طائراتنا ولا تتكون بأشكال جبلية مخيفة إلا لمامًا، فماذا حدث لمريمة وما جاورها؟! انظر للطائرات وهي تدور حولها بانتظار انقشاع غيمة أو فرصة سانحة وكأنها تعتمر قصرًا طائفة حول ساحتنا..

نعم...

كانت الساحة اليوم كعبة فطرية لم يفهم أهلها أنها كذلك لكنهم التجأوا إليها بوحي غامض كما فعل آدم من قبل.

وخرج العميد من خيمته، نظر حوله بانفعال دفنه تحت قناع من الوقار، ورهبة غطّى عليها صوته الواثق وهو يصدر أوامر للرجال بالمسير، وقلب يرتعش للمرة الأولى منذ زمن حبيبته خبأ نبضه الصاخب عصف الريح وهي تضرب الأعلام المتجاورة لحشد عظيم من الرجال والمركبات والأسلحة.

سيدخل الآن الأرض الفقيرة التي ذبح من مقاتليها تسعة وأربعين رجلًا منذ أيام مثل قطيع خراف تائهة والآن جاء دور من بقي بها.

كان مكتوبًا بأمر الاشتباك أن تمحى الساحة بساكنيها، ألّا يكون هناك مداهنة أو شفقة بعد أن أسقطوا الطائرة.

سيدخلها وهو يعلم أنه منتصر لكنه مهموم؛ لأنه الآن يعلم أنها قاتلت من دون استسلام له من أجل طفل اغتصبه جندي ثم قتله، ذلك الجندي ظل يبكي بتألم وهو في النزع الأخير من حياته بينما يعترف بعد المعركة الحارة القصيرة، ولم يسكته إلا المشنقة الغليظة وهي تكسر عظام ترقوته.

سيدخلها وهو خائف لأن رائحة النعناع لا تفارق أنفه رغم أن زوجته أخبرته بالحقيقة المظلمة، وذلك الإحساس القديم بالقدرة الكلية، وتبلد المشاعر قد غاب عنه، منزلًا إياه من رتبة الأبطال غير القابلة للهزيمة وأشباههم إلى

مصاف الناس.

وتجمعت الفرق، ما أشد اختلاف مَن فيها، حتى أنك لتتساءل كيف جمع هؤلاء بكل أديانهم وجنسياتهم ضد عدو واحد، وتعالى صوت طقطقة معدني فج ثم انطلقت الجرافات أولًا، تحيط بها دبابات سارت بأبطأ سرعة لها، ثم كانت المركبات والمشاة، وركب العميد سيارة جيب مفتوحة السقف، شد قبعته العسكرية للأسفل مغطيًا أكثر وجهه وبهدوء أمر سائقه: «اعبر بينهم لتكون بالمقدمة».

حاول تشغيل هاتفه الذكي بحثًا عن أقل المنحدرات وعورة، كان قد حدده بدقة على تطبيق خرائط أثناء ركضه على حدود الهضبة الصغرى.

لا إشارة استقبال للإنترنت.

رفع رأسه للسماء المكفهرة وهمس: «بالطبع»، معتمدًا حدسه أشار للسائق، فانطلق من خلفه جيشه الصغير، كانت المسافة لا تتجاوز الميل الواحد إلا أنهم ساروا ثلاث أميال بمحاذاة الجرف في طرق غير ممهدة حتى وجد منحدرًا معقولًا، وفهم بغيظ أنه تجاوز المكان الذي حدده دون أن يميزه، أشار بيده آمرًا بالتوقف، خرج من سياراته فاردًا جسده الرشيق وهو يقترب من الجرف يتبعه مساعده عوني.

كان انحداره مناسبًا، لمسافة أطول مما جاوره حتى الأحراش، لا خوف على الدبابات فيه إلا أن الخطر لا يزال قائمًا على الجرافات العملاقة التي يجب أن تفتح طريقهم بإزالة كل هذه الأشجار، زفر وهو ينظر إلى خيال مريمة الظاهر على امتداد البصر، كانت السحب تتكاثر فوقها

كأنها تتوالد، فكر في أنه ليس هناك وقت طويل حتى تهب عاصفة، يجب أن يتحركوا سريعًا.

«ألا يوجد منحدر أقل وعورة من هذا؟» سأل عوني، «سيكون هذا مناسبًا» رد عليه العميد باقتضاب وهو يلتف عائدًا إلى سيارته مشيرًا لسائقي الجرارات بالتقدم.

وهكذا تحركت الجرارات مزيلة الأشجار، ممهدة لطريق صالح حتى مريمة، قطعت المنحدر ببطء شديد حسب أوامر العميد، عبأها الجنود بالجاز مرتين أو ثلاثة يدويًّا وأيديهم تكاد تحترق من سخونة المحركات، انكسرت أسنان أذرعها السميكة على سيقان أشجار عنيدة، والحق أن صوت تحطم هذه السوق كان كابوسيًّا، متتابعًا ودقيقًا وكأنه تغير في الخلقة قد يستجلب اللعن، حتى الأرض الطينية خرج منها صوت فج حين انخلعت الجذور منها، ذكَّر بعض الرجال بلحظات ارتطام اللحم في العلاقات الحميمة، صرخت طيور وحيوانات لم يروها، تداخل حفيف مقبض بدبيب زواحف وخرفشة حشرات على أوراق شجر جافة، وضحك أحد الهاربين من سجن مريمة بخلاعة، فارتعدت قلوب رجال كثيرة وهم يتلفتون حولهم.

ومع أن الثلة القاتلة بعالمنا قد توقفت عن الشعور بالخوف في المعارك؛ لأننا أصبحنا غير قادرين على أن نؤذيهم، يقتلوننا وهم يضحكون ويتفوهون بهراء منطق تعلموه من برامج تعليم ضحلة، فقد انزرع خوف غير مفهوم في قلوب كل الرجال في تلك اللحظة، خوف ورهبة وشعور بالنفور.

حتى العميد نفسه شعر به،

تعطنت طيات ثيابه بعرق ثقيل، وتلاصقت أوراق شجر على جبينه وذراعيه العاريتين، وأمامه اندفعت رافعة جراف في جذر شجرة عظيم انسحب جزء منها خارج الأرض قاطعًا طريقهم، فاصطدمت به بدوي مرتفع وارتجت بقوة ولم يتزحزح الجذر، وصرخ ضابط مهندس بسائق الجراف: «اخفض الذراع إلى أقصى حد واضرب بأقصى ما تستطيع»، وتتابع صوت الانخفاض الميكانيكي، توقف الجميع يتابعون بإثارة متنامية، تراجعت الجرافة إلى الخلف فوق حطام الأشجار والنباتات المهروسة مسافة كافية، ثم خرج دخان كثيف من خلفها وهي تندفع بسرعة مخيفة مباشرة باتجاه الجذر مثيرة سحابة طينية حولها، ثم كان الارتطام مثل انفجار هائل سد الجنود آذانهم بسببه وعيونهم تنفتح بشدة ليستوعبوا ما يرون.

ورأى العميد المشهد مصحوبًا بدقات بيانو ناعمة وغناء كابيلا،

رأى سن الجرافة ينغرس في لحم الجذر، وهيكلها يرتفع من الخلف إلى الأمام عن الأرض حتى أصبحت جنازيرها تواجه السماء، ثم تكمل دورتها منقلبة رأسًا على عقب وصراخ سائقها مسموع حتى مع كل أنات الخوف وصرخات الدهشة التي خرجت لا شعوريًّا من الجنود.

وعندما همدت على الأرض انقطع صوته،

قليلون من سمعوا تحول الصوت بينما تتمزق الحنجرة،

وصمت كل شيء.

ثم اندفعت سيارة العميد، وقف فيها عظيمًا، رافعًا سلاحه للأعلى وصرخ: «اتركوا الجرافات واتبعوني»، وانطلقت سياراته بسرعة تتبعها سيارات الجنود وحاملات الذخيرة في صف متعرج يتفادى سيقان الأشجار وبرك الوحل والصخور العملاقة في مسيرة مهيبة نحو مريمة.

وعض العميد على شفتيه وهو يقف مستندًا على زجاج سيارته الخارجي، نظر إليه سائقه بسرعة، ظن أن وقفته هذه من أجل تحفيز الجنود، لكن العميد كان يتحرك بإرادته الخاصة، أراد أن ينظر إلى الهضبة الكبيرة من مكانه، مدفوعًا برغبة كاسحة في أن يدخلها، ممنيًا نفسه بأنه حين يقهرها سيدفن تلك النزعة الجديدة التي بدأت تتشكل داخل قلبه، سينجو من محنته هذه ويعيش طويلًا كما أراد وستنتهي عذاباته بهذه الأرض.

كانت الريح الباردة تضرب وجهه محملة بالتراب فيزيد إصراره، ارتسمت على وجهه نقاط بنية متناثرة صنعها رذاذ الطين، خلع قميصه الخارجي الذي تعرق فيه، علقه حول رقبته فرفرف كعباءات الأبطال، وصاح في الرجال مرة جديدة متاجرًا بالله كما علمته زوجته: «الله هنا! في ظهورنا نحن! فلا تخافوا!»، وللحظة بدا وكأن هذه هي الحقيقة؛ لأن الطريق أمامهم كانت تتفتح بطريقة عجيبة، بمسرى ظاهر بين الأشجار يبدو وكأنه يخلق الآن من أجلهم، لم ترتطم سيارة ولم يسقط جندي ولم تتوقف المسيرة منذ اتبعت العميد، فما يمنع أن يكون الله من يفعل ذلك الآن من أجلهم؟

وظهرت أمامهم الهضبة عارية.

عارية كما قال مستكشفوه.

مفتوحة للداخلين، يكللها ثوب البساطة والهدوء، تضفي عليها الريح الشديدة والشمس المستترة بالسحاب جلالةً قدسيةً، لا يسمع منها إلا صوت أذان بعيد تحمله الريح.

وبقي صعود التل عائقًا.

من دون انتظار أخرجت الحبال والجنازير، أقلقه صوت صلصلة المعدن وهو يسحب من المركبات فصاح وهو يبعد عينيه بصعوبة عن التل: «أسرعوا قبل أن يشعروا بنا».

في ذلك الوقت وفي عقل ابنة حسن أو لعلها روحها، كانت الأشياء تتبدل من حولها بسرعة، بدأ الأمر كله حين رأت سيفًا يشق السماء للأسفل حتى يخترق الموج ومن خلفه سقط رجل لم تميزه يحاول الإمساك به حتى غرق تحت الماء معه.

وظهر البر الآخر، رأت منه جبالًا صخرية مقفرة جعلت قلبها يرتجف، بوجل نظرت إلى إبراهيم فرأت شفتيه مزمومتين للأسفل حزنًا وهو ينظر إليه مثلها، واختفت بردة الرجل بالسماء لتحل محلها السحب، لم يتوقف المركب عن الاهتزاز مدفوعًا بالأمواج، ابتل وجهها وشعرها بماء البحر ومس ملحه طرف لسانها.

تصاغرت في نفسها ومن بين صخب الأمواج وسير السحاب في السماء الذي بدا صوته كعجلات حقيبة مدرسية تدور عجلاتها على أسفلت خشن، سمعت اسمها ينطق

بخفوت ورهبة وندم باكٍ.

استشعَرَتْه على الفور في قلبها، أحست به حتى قبل أن تتأكد من أن هذا الصوت الضائع في جنون اللحظة هو صوت أبيها، دق قلبها بتسارع عظيم والصوت يتكرر وهي تتلفت حول نفسها بحثًا عنه وقد اختفى خوفها وحل مكانه لهفة وخشية على حسن.

وشدت السيارات شدًّا للأعلى، تسحبها الحبال الغليظة، والدبابات شدتها روافع معدنية، واعتصر الجهد أجساد الجنود، نظر إليهم العميد بقلق مغتاظًا وهو يسمع أنفاسهم المتقطعة ولهاثهم المختلط بالسعال ويرى العرق يُغرِق ملابسهم رغم البرد.

ليست هذه علامات جيدة قبل أي معركة.

تحرك على مطلع الهضبة متفقدًا، ثم بدأ يختار خاصته الذين لازموه في معاركه، يخرجهم من جحيم العمل واحدًا بعد آخر، يشير إليهم ليتبعوه، اختار أيضًا رجالًا آخرين توسم فيهم القدرة، فاستطال صف هؤلاء الذين مشوا من خلفه، أراد فريقًا بكامل قدرته قبل أن تبدأ المعركة وانطلقوا حتى وصلوا قمة الهضبة.

حين فعلوا، تباطأت أنفاسه وبدأت ندف مطر تلامس وجهه، شعر بألم في صدغه الأيسر من صداع خفيف لم يعهده من قبل، دلَّك رأسه باستغراب، كان مثل تنميل نابض يتحرك من مؤخرة رأسه مارًّا بأذنه اليسرى وحتى أعلى جبهته.

وشعر بها إلى جواره.

خفض رأسه، استنشق بعمق، جزَّ على أسنانه وهو يبتعد خطوات عن رجاله، رمشت عيناه مرات متتابعة بسرعة وبحزم همس سائلًا إياها: «أين الله من الألم؟».

«هو غير موجود»، أجابته برقة، هز رأسه متفهمًا.

مسح دمعه كله مرة واحدة وفتح عينيه على القرية للمرة الأولى منذ صعد.

وانتفض..

وهو يراها، في ثوب زفافها الأبيض، شعرها الفاحم ينسدل على كتفيها، لو استدارت لرأى كيف يلامس منابت رجليها، ومن خلفها تبدت مريمة جميلة بظلمة السحاب التي تكلِّل البيوت المتفرقة وبستان البرتقال وشعاع شمس وحيد مارق يضيء منتصفها وكأنه يقدسه.

وصعدت أولى المركبات، اعتدلت على الأرض المنبسطة وتقدمت للأمام مفسحة لما وراءها، لمدة ساعة كاملة توالت السيارات وأربع دبابات حديثة، انتصبت في عدة تجمعات كما تم التحضير من قبل، بدأ الرجال يعدون أسلحتهم وسمع العميد الأصوات التي سئمها، تركيب أجزاء الأسلحة، تحضير الذخيرة، التلاوة الخائفة للقرآن والغناء الفاحش وضحكات التوتر.

والضرط، لا بد أن يسمعه قبل كل مواجهة وكأنه شخرة ساخرة في وجه الموت الذي سيواجهونه ويخلقونه.

«من أجل الله!» صاح، فرفع عادل رأسه وهو ينظر له

متفحصًا وفي لحظة حقيقة همس لنفسه «لا يصدق ما يقول» واضطرب فجأة، وبدأ العميد مسيره والحشد من خلفه، مترجلًا كعادته في بداية كل معركة، ليميز كل شيء بعين خبيرة، ويصغي لكل حركة، إلى جواره كانت زوجته، يسمع حركة رجليها في الفستان الطويل، ببطء تندثر رائحة النعناع التي عذبته وتستبدل برائحة يعرفها جيدًا، رائحة ضعيفة ببقايا عطر غير سكري لا يميزه إلا طيف دقيق كأنه مدهون بالحليب، رائحة جلدها هي، شمها على دفعات، ثم سمع صوت أنفاسها المختنقة.

تمامًا كآخر مرة..

آخر أيامهم بمنزلهم بعد أن فقد أطباء المشفى كل أمل.

حين أراحت رأسها على فخذه فانفرد شعرها الغزير أمامه، ظن ساعتها أن صاحبة هذا الشعر العجائبي لا يمكن أن تكون قريبة من نهايتها، في تلك الليلة كان يشعر بكل نفس يدخل صدرها وكأنه نبضة قلب واهن أخيرة، أي عذاب هذا؟ أن تعد الأنفاس حرفيًّا، وينقبض قلبك مع كل تأخير في الزفير، وكل سعلة جديدة، ساعتها، انحنى بجذعه أقصى ما استطاع، قرَّب رأسه من صدرها، لامسه بأذنه واستمع بصبر ودموعه تضطرب بعينيه.

دخل أعماقها وللحظة توقف الزمن وأصبح كل شيء صوتها..

اندهش لما سمع، فاضت عيناه بالدمع خارج سيطرته، كان نفسُها متحشرجًا ومختلطًا بالماء، خشنًا إلى حد لم يتصوره، مثل ريح تعبث في بيت خرب تعيش فيه حيوانات قذرة.

«آسفة»، همست له وهي تنظر بحزن إلى تعبير وجهه.

دفع عن وجهه أغصانًا خشنة لأشجار البستان، جرحت يده في أكثر من موضع، وتبدا له الجسر المنهار من بين بيوت الفلاحين وأشجار البرتقال.

حرك سلاحه في وضعية الاستعداد فسمع طقطقة مكتومة بكتفه، وزع قناصته على البيوت المحيطة وأعلى الأشجار وصاح آمرا «ليتوقف الجميع هنا بينما تتقدم فرقتي، احتموا بأطراف المزرعة حتى نستكشف الجسر».

سار متقدمًا ومن خلفه رجاله الذين اختارهم، ليس هناك توقع لشيء الآن إلا صوت إطلاق الرصاص من مكان لا يعلمونه بعد، والفرصة في أن يحدث أي شيء آخر غير هذا معدومة، سيظهر الآن الرجال وربما النساء أيضًا، ومن بينهم سيكون هناك رجل مسن، رجل ما يزال يعتقد أن بالعمر بقية تستأهل القتال، مدفوعًا بإيمان تدرب عليه على يد أبويه منذ سبعين سنة، إيمان يقتل الآن قتلًا في أتون هذه المعارك، سيحمل ذلك العجوز السلاح ويجري أمام الأعين المندهشة، مستحضرًا صور المقاتلين الأمريكان التي يراها بلتفازه، متلحفًا بشجاعة حمقاء متصاعدة وذكريات عتيقة بالية، متعشمًا في أن ينتصر ويعود إلى داره، فيجد زوجته المسنة جالسة أمام بيتها كشابة متلهفة على عودة حبيبها، ليحتضنها ورائحة عرقه المختلط بالبارود تفوح منه كدعوة جنسية.

سيقتل هذا المسن اليوم، لن تكون هناك حكايات ليلية في الدور عن بطولاته، وسيقتل الشباب الذين لا يعرفون ما يريدونه بالضبط، وهؤلاء الذين يقاتلون من أجل الله أو

من أجل خلافة هلامية من أبناء أسامة بن لادن، سيقتلهم بشتى أنواعهم؛ لأنه يصبر طويلًا قبل القتال من أجل تجنب المعارك وسفك الدم والحفاظ على الأرواح، لكن حين يأتي وقت القتال، فالكل عنده ميت ولو خرج طفل يرميه بحصاة صغيرة لفتت جسده بالرصاص.

«فلتتحرك سيارات الاستكشاف» قالها آمرًا فخرجت خمس سيارات متهالكة، أصوات محركاتها مثيرة للشفقة، تهتز باستمرار بينما تتقدم، بسرعة نزل منها سائقوها وركض جنود آخرون فوضعوا ألواحًا خشبية على دواسات الوقود وثبتوا المقاود بعصي معدنية، ببطء تحركت السيارات باتجاه الجسر القديم وأشار العميد بيده وهو يهمس «المفجر»، فأسرع أحد جنود الفرقة الهندسية يناوله إياه شارحًا له كيفية عمله لكن العميد أوقفه وهو يزيحه للخلف بصرامة، ورفع رأسه بانتباه باتجاه سياراته.

لو أن أحدنا كان داخل إحدى هذه السيارات لاستطاع أن يرى مجال الإبصار وهو يتدهور أمامه ولعرف قبل الجميع أن المطر يشتد؛ لأن النوافذ المتربة قد لطخت بخطوط طينية بينما تتساقط عليها القطرات الثقيلة، يتراقص الجسر بينما تقترب ومن خلفه تظهر محلات الشارع التجاري.

ضيق العميد عينيه وهو ينظر إلى السيارات وهي تتحرك بحرية، تساءل بدهشة: «هل سلموا؟! كيف لم يطلق عليها رصاصة واحدة؟!»، نادى برجاله: «أوقفوها قبل أن ترتطم وأعيدوها»، فجرى الرجال باتجاه السيارات وهو يمشي من خلفهم واتسعت عيناه غضبًا وهو يسمع صوت الانفجار

بأحـد السـيارات والنـار تندلـع فيهـا وتتحـرك إلى السـيارة التاليـة، كان متأكـدًا مـن الانفجـار قـد أتـى مـن داخلهـا، بسرعـة رفـع جهـاز التحكـم فوجـده مبتـلًا بـماء المطـر، ثـم كأنهـا عـدوى انتقلـت الانفجـارات مـن سـيارة لأخـرى، أقـوى مما اعتـاد رؤيتـه وأشـد، بعثـرت المعـدن والبلاسـتيك في الهـواء وأعضـاء أجسـام رجـال وفي غمـرة الهيجـان النـاري رأى رجالـه يتسـاقطون بـصراخ معـذب، والنـار تشـتعل في أجسـادهم، أربـع سـيارات احترقـت في ثـوانٍ بينـما تقدمـت السـيارة الأخـيرة محافظـة عـلى سرعتهـا، ملتزمـة حـارة مروريـة واحـدة، بصـوت موتـور أهـدأ مـن الأخريـات، وكأنهـا إحـدى سـيارات القريـة بأيـام مـا قبـل حـرب الملـوك الحيوانيـة، حتـى لامسـت بدايـة الجسر السـليمة ورفـع العميـد سـلاحه وخطـى خطـوة مقتربًـا والجنـود يجـرون نحـو المصابـين يحاولـون إسـعافهم قبـل أن يـرى دفقـة النـار الأخـيرة والسـيارة ترتـج بطريقـة مضحكـة، منفجـرة بكتلـة نـار اشـتعلت بمقدمتهـا وبصـوت مكتـوم وكأنهـا خَجْـلى، واندفعـت قطعـة معدنيـة بالهـواء باتجاهـه، ميزهًـا قبـل أن تصلـه بلحظـة، زنـبرك أحـد المقاعـد، وفي اللحظـة الأخـرى ارتطـم بوجهـه.

وأمـام جنـوده للمـرة الأولى بتاريخـه تراجـع للخلـف خطوات، فقـد اتزانـه وذراعـاه تضربـان في الهـواء ونزفـت جبهتـه دمًـا غزيرًا غطَّـى عينيـه فـرأى السـماء مـن فوقـه وكأنهـا نزيـف زوجتـه في الأيـام الأخـيرة لهـا، وبسرعـة اختلـط ذلـك الأحمـر بسـواد مريـح ظـل يحتـل مجـال إبصـاره قطعـة قطعـة حتـى شـمله.

وتسـللت إليـه أغنيـة أخـيرة، أغنيـة جديـدة، للمغنـي الـذي قتـل نفسـه معلنًـا أنـه فريسـة أخـرى للحيـاة رغـم أني ظننتـه

المفترِس، تشستر مرة أخرى، في أغنية لم يسمعها أحد قبل العميد ولن يسمعها سواه، أعظم من كل ما قال، ملحَنة بصوة امرأة متقطع تداخل مع صوته ولها دقات رشيقة متسارعة وكلماتها عربية، انتشى بها لكنه اضطرب مرة أخرى وهو يرى الصورة المعلقة بخيمته من زاوية جديدة، كأنه دخلها، رأى ظهر الشيخ أسامة وليس وجهه، ما أنحفه! اقترب منه وهو غير مصدق، وللمرة الأولى فهم أنه يحب جلسته المسالمة تلك وجلبابه البسيط وحركاته الخافتة، أمامه ظهر جسد طفلة صغيرة تركض نحوه بسعادة آمنة وبخطوات مهتزة، لا يمكن أن تكون قد تجاوزت العامين بأي حال، شعرها يرقص خلفها طويلًا رغم صغر سنها، تلقفها محتضنًا، ربت على ظهرها برحمة فشعر العميد بنغزة داخل قلبه، أغمض الشيخ عينيه طويلًا وكأنه يحتفظ باللحظة للأبد، وكأنه يعلم أن جندي مارينز سيطلق على رأسه الرصاص قريبًا بإصبع ما تزال رائحة مؤخرة صديقته الوسخة تفوح منه، أجلسها برفق على فخذه، حينها رفعت الطفلة جسدها واقفة على قدم الشيخ حتى أصبح رأسها فوق كتفه ونظرت إلى العميد...

وارتعش العميد وهو يرى زوجته طفلة..

فتح عينيه والرجال حوله يرفعونه، صاح غاضبًا وهو يضرب أيديهم بعنف مبعدًا إياهم، وشد جسده المترنح ماسحًا الدم عن وجهه وحين لم يفلح فك قميصه من حول رقبته ومسح به وبصق الدم من فمه.

تنفس بعمق مرات متتابعة وهو ينظر باتجاه الجسر

ضاغطًا شفتيه،

«نظموا أنفسكم» صاح، «لا يوجد رجال هناك، هذه السيارات انفجرت بسبب عطل بها»، قالها وهو يرفع بندقيته الآلية ويمشي باتجاه الضابط المهندس الذي ناوله جهاز التحكم، تراجع الرجل مذعورًا، التفت ليفر لكن رجال العميد أحاطوا به ودفعوه دفعًا للأمام حتى أصبح أمامه.

«أنت من صنع هذا الجهاز؟»، قالها وهو يرفع يده بالجهاز في وجهه، انهار الرجل باكيًا، سقط على ركبتيه وهمس باكيًا: «أرجوك!»، هز العميد رأسه وهو يوجه سلاحه إلى رأسه ويطلق الرصاص غير مبالٍ بالدم الذي أغرق بنطاله وحذاءه والرجل ينهار تحت قدميه، فقط دفعه في غير اكتراث والتفت إلى الرجال، تشاءم من الصمت الذي خيم عليهم مستترًا بصوت بقايا الاحتراق في السيارات الخمس، مسح وجهه مرة ثانية، هز رأسه أن تحركوا وخطى ليكون بالمقدمة ويديه تمتد إلى صدره مطمئنًا إلى أن صورتها ما تزال هناك.

كان هـو أول مـن وصـل إلى الجسر، مـارًّا بجـوار السـيارات المحترقـة دون أن يلتفـت إليهـا، دار بـصره بـين البيـوت الملاصقـة للجسر بحثًـا عـن أي إشـارة، لمعـة معـدن بندقيـة أو ظـل رجـل يسـتعد، مـع كل خطـوة كان يرجـع للخلـف بذكرياتـه حتـى أنـه وصـل إلى ذكريـات قديمـة ظـن أنـه نسـيها لأبيـه وأمـه.

وللمرة الأولى خاف...

شعر أنه ابتعد كثيرًا عما كانه منذ سنوات،

خـاف والحسـابات داخـل عقلـه تختـل وتضطـرب، شـعر أنـه يحتـاج إلى وقـت مسـتقطع ليراجـع كل شيء، وحـده أو مـع حبيبتـه التـي سـتزوره، مثـل تماريـن الأطفـال الصباحيـة كان يقـف في مربـع حجـري مـن إيـمان قديـم، ثـم فتـح رجلـه وقفـز إلى خانـة أخـرى لا يؤمـن فيهـا بالأشـياء لأنـه لا يعـرف قبـل أن يثـب بقـوة لخانـة جديـدة كافـرًا بـكل شيء، الآن يشـعر كأن اللعبـة اسـتدارت وقـد قفـز مـرة أخـرى لخانـة التيـه.

لكنـه الآن في خضـم رحلـة تبـدو لـه عصيبـة، لا يمكـن أن يفقـد بهـا جـزءًا مـن عقلـه وهـو يراجـع حسـاباته مـع نفسـه، فلتنتـه هـذه المعركـة بنـصره ثـم يعتـزل للأبـد، أو يعـود إليـه صوابـه فيشـعل ألـف معركـة جديـدة ينتـصر بهـا جميعًـا.

واعتـاد الرؤيـة بخلفيـة حمـراء باهتـة صنعهـا مـاء المطـر الـذي غسـل دمـه مغطيًـا عينيـه، بمنتصـف الشـارع التجـاري وقـف، رفـع رأسـه للسـماء فنظـف وجهـه المطـر الغزيـر وطهـرت جرحـه الريـح الشـديدة، ومـن دون مقدمـات رفـع سـلاحه الآلي وداس عـلى زنـاده، سـمع التكـة الأولى منفـردة ثـم حصلهـا تتابـع سريـع صاخـب وهـو يديـر سـلاحه عـن يسـاره ويمينـه، قاتـلًا المحـلات المتجـاورة المغلقـة والغـرف العلويـة التـي اعتـاد أن يبيـت فيهـا

التجـار والحجيـج قبـل أن تتحـول إلى مخـازن للمحـال، أطلـق عـلى النوافـذ الزجاجيـة واليافطـات والأبـواب المعدنيـة وانتظـر أن يسـمع شـيئًا، رصاصـة طائشـة مـن نافـذة أغفلهـا، أنـين توجـع أو صيحـة تكبـير، لكنـه لم يسـمع إلا صـوت أنفاسـه ولم يـرى إلا غرابًـا ضخـمًا يرفـرف بجناحـين ثقيلـين بصـوت مقـزز وهـو يدفـع نفسـه مواجهًـا الريـح محـاولًا أن يطـير مبتعـدًا قبـل أن تسـحبه الريـح معهـا ليطـير مرغـمًا باتجـاه شرقـي ويمـر مـن فـوق رأس العميـد الـذي اسـتطاع أن يميـز ريشـه الأسـود السـميك وبطنـه المشـدود للحظـة.

واشـمأز، انفعـل بضغـط نفسـي وكأنـه عـلى وشـك التقيـوء، ليـس هـذا أفضـل أيامـه، لكنـه تقـدم للأمـام بخطـوات واسـعة تتبعـه جنـوده ومـا اسـتطاع أن يعـبر الجسر المحطـم مـن مركبات.

وبينـما يضغـط عـلى صدغـه محـاولًا إخمـاد صـداع رأسـه ظهـر أمامـه أول الرجـال...

نعـم! هـا هـو ذا الجسـد العـربي النحيـل، ذلـك الـذي دائـمًا مـا تبـدأ المعـارك بـه وكأنـه شـبح حضرمـي يـدور عـلى سـاحات القتـال في كل أرض عربيـة، في كل أرض المسـلمين لتخرقـه رصاصـة نحاسـية ويبـدأ كل شيء..

كان العميـد يفهـم كل قتـلاه قبـل أن يأخـذ حيواتهـم، يأخذهـا بمعرفـه دواخلهـم، مـن حركـة أعضائهـم وانبعـاج أعينهـم ورعشـة شـفاهم وتدفـق الـدم مـن جروحهـم، يسـتنبط تاريخهـم وصفاتهـم، إن كان لهـم أطفـال أم لا.

وهـذا الشـاب أمامـه هـو النحيـل الـذي جـاء الحيـاة ولم يـرد منهـا شـيئًا ولم تعطـه هـي أي شيء، عاشـاها مسـكينًا مـن الطفولة، هـو الأخ الـذي لا يمـس الطعـام حتـى يشـبع الآخـرون؛ لأنـه لا يفهـم أن الجـوع شـعور مريـر ويفكـر فيـه كجـزء مـن حياتـه

العادية، هو الذي لا يستطيع أن يخلق عمله الخاص أبدًا ودائمًا يعمل بائعًا مساعدًا بأجر زهيد، أو حارس مخزن بضائع مستعدًّا أن يهب حياته من أجل الحفاظ عليها وكأنه مالكها، لا يطلب المزيد أبدًا، وبالليل حين يعود داره يهب ما تبقى من يومه إلى صلوات ليلية لله وبكاء اشتياق له كما علمه أبوه أن يفعل قبل أن يموت تاركًا إياه بمفرده، دون أن يفكر أن كل ذلك عبث وأن العمر ينسحب بسرعة منه حتى أن شعرات بيضاء تفرقت في وجهه القسيم وهو ما يزال يحمل البضائع، ليست له زوجة وربما كان ذلك أفضل له؛ لأنه لو تزوج امرأة لخانته ولو أنجب سيلعنه أولاده حين يكبرون ويحتاجون المال، هكذا فكر العميد وهو ينكب على ركبته، مسندًا سلاحه على ركبته الأخرى؛ لأن المسافة بينهما بعيدة، ركز انتباهه وسحب نفسًا، ضيق عينيه واستمع لنبض قلبه وبنظرة لا يخالجها الخطأ حدد سرعة الريح واتجاهها وهمس دون أن يشعر: «ها نحن نبدأ»، وأطلق الرصاص.

والشاب الذي كان يقفز من فوق ساتر إسمنتي ليحتمي خلفه كان في الحقيقة كما تخيله العميد وأكثر بؤسًا، في اللحظة التي ارتفعت فيها قدماه عن الأرض قافزًا ولامست رصاصة تلافيف مخه وأخرى استقرت أسفل ظهره، أدهشه أن قفزته المسكينة تلك بدت وكأنه لا نهاية لها، ولم يفهم أنه مات، استمرت طويلًا حتى أنه استكان لها كعادته، استمتع بها وبرفق بدا وكأنه يطير عاليًا بوقود دموي يتساقط من أسفل ظهره وانطلق للسماء ولم يعد.

هتف الجنود للعميد منتشين بالمشهد، حركوا متاريسهم أمامهم، وداروا حول مركباتهم وهم يتقدمون، لم ينتظرهم العميد، وجد نفسه يركض إلى حيث سقط الشاب، وسط

غابة من اليافطات القديمة المتقنة، وتلك التي صنعت على عجل بعد أن تغير نشاط المحال بأيام الحرب، شد انتباهه يافطة نقش عليها بالأخضر المزخرف الذي لفحته الشمس حتى أن أجزاء منه قد سقطت: «مكتبة ابن خلدون»، التفت عنها وقفز فوق الساتر دون انتظار وعلى الأرض كان جسد الشاب يرتجف بقوة، وخيط دم ينزف من عموده الفقري من جرح فوق مؤخرته بقليل، كانت أجزاء من أسنانه قد تكسرت أثناء ارتعاشة جسده وغطى فمه ماء كثيف لم يفهم العميد إن كان ماء موته أم هي قطرات المطر، قرب وجهه منه واشتم...

لم يفهم إن كان عليه أن يفرح أو يخيب أمله حينما لم يشم رائحة النعناع لكنه شعر أن نفسه القديمة قد عادت إلى حد ما، وليتأكد مد يديه إلى رقبة الشاب يخنقه حتى الموت، لكنه أغلق عينيه بقوة وهو يسمع صوت الزلزلة، مدفوعًا بدفقة هواء ساخن كاسحة من انفجار فجائي، تعثر في قدمي الشاب النحيل فسقط فوقه حتى أن وجهه التصق في وجهه، ولامس خده أسنانه التي تكسرت، كان الجسد لا يزال ينتفض بالموت فالتصقت شفاه بجبهة العميد وكأنه يقبله، دفع العميد رأسه للخلف بقوة، وبكى.

وتتابعت الانفجارات...

بتوالٍ دقيق وكأنها لوحة فنية اندفعت النيران من واجهات الحي التجاري الذي لغم حمزة ومن معه بمساعدة المهندس الشاب كلَّ شبر فيه.

وبتنغيم شبه موسيقي تبادلت ناحيتا الشارع الانفجارات.

طارت لوحة بقالة «أبو محمد الطيب»، البقالة المهجورة التي اشتهرت بأنها احتوت يومًا على كل أصناف المقرمشات

والحلـوى التـي يحبهـا الأطفـال، وكأنهـا أحـد محـال العاصمـة وهاجـر صاحبهـا إلى مـكان لا نعرفـه، ذاب بابهـا في جـزء مـن ثانيـة، جـزء صغـير منـه بالواقـع كأنهـا دائـرة قبـل أن يتبعثـر معدنـه كألـف طلقـة معدنيـة في كل مـكان، ثـم انفجـرت بقالـة عـم جابـر التـي كتـب عـلى يافطتهـا: «مشـهيات أبـو داود» ولم يكـن ابنـه قـد اسـتطاع أن يفـرغ محلـه كامـلًا قبـل التفخيـخ فـكان مـن نصيـب مـن احـترق بنارهـا مـن الجنـود أن شـموا آخـر مـا شـموا رائحـة زيتـون أخضـر وخيـار مخلـل وفلفـل مشـطط وآخـر حلـو مما تنبتـه مريمـة مختلطًـا بالمعـدن والنـار، ومـن الجهـة المقابلـة تفتـت يافطـة محـلات البيطـار العملاقـة التـي توارثتهـا العائلـة مـن الجـد الكبـير وجددوهـا بنقـوش صنعـت بـماء الذهـب، ولأن بابهـا كان الأشـد سـمكًا فقـد كتـم صـوت انفجـاره فلـم يسـمع منهـا إلا صـوت لفحـة هـواء محـترق انطلـق حتـى تلقـف جنديًـا كان هـو الأصغـر سـنًّا بـكل الفرقـة، مشـتعلًا في جسـده كلـه حتـى محاشـمه فظـل ينـازع طويـلًا وهـو يـضرب الأرض بأطرافـه صارخًـا: «دعنـي أمـوت!».

ثـم انفجـر محـل الألعـاب الـذي وقفـت أمامـه يـارا وأخوهـا مـن قبـل محاولـة تذكُّـر لحظاتهـا السـعيدة فيـه، لكنـه كان خاليًـا مـن كل ألعابـه، وانفجـر أمامـه محـل المـصري لكماليـات السـيارات، ثـم متجـر القـماش المجـاور لمحـل الألعـاب.

كان التتابـع المنظـم مدهشًـا، تمثلـت فيـه روح الهندسـة العظيمـة حتـى بـدت روعتهـا رغـم كل الدمار.

لكـن الأغـرب مـن كل ذلـك والعجيـب بحـق، كان تشـقق الأرض، ومـن دون داع وبسرعـة غريبـة وكأنـه زلـزال يابـاني صميـم، ظـن مـن بقـي لديـه قـدرة عـلى التفكـير في هـذا الجحيـم أن كل تلـك الانفجـارات قـد هـزت الأرض هـزًّا حتـى تباعـدت

لكـن الحقيقـة، الحقيقـة الصريحـة هـي أن الأرض نفسـها قـررت أن تشـارك في هـذه الحـرب، بـإرادة حـرة واختيـار كامـل ومـن دون أوامـر علويـة إلا الرضـا، اسـتغلت كل تلـك الجـروح والدمـار والنـيران وتزلزلـت منفرجـة، لعبـت لعبتهـا بصمـت كـي لا يشـعر بهـا أحـد؛ ولذلـك كان الانفجـار الواحـد مسـاويًا قوتـه المنطقيـة عـشر مـرات، وكان المـوت غـير معقـولٍ والجـراح بـكل أجـزاء الجسـد حتـى أصابـع القدمـين، وانهـارت مبـانٍ كاملة كان أولهـا تجـارة الأسـماك المعروفـة بالمعمـورة، والتـي لم تعمـل منـذ عـام ونصـف، ومخبـز أبـو ظريـف الـذي لم يجـرؤ أن يفخخـه أحـد؛ لأن العيـد اقـترب انفجـرت كل إسـطواناته وحدهـا منتظرة دورهـا ومحدثـة دويهـا الخـاص.

وكان الانفجـار الأخـير بهـذه المتتابعـة، الانفجـار الأجمـل والأكثـر إثـارة للشـجن، هـو انفجـار مكتبـة ابـن خلـدون نفسـها، راقبتـه دميانـة بتمعـن وقـد انحبسـت أنفاسـها مـن عـلى سـطح بنايـة قريبـة ومـن حولهـا زملاؤهـا، ممسـكة بسـلاح تتعـرق أصابعهـا عليـه ببـطء.

لم يسـمع لانفجارهـا صـوت حتـى أن الجنـود البعيديـن عنهـا ربطـوا نهايـة الانفجـارات بالمخبـز، كان مـا سـمع هـو صـوت تقليـب أوراق عمـلاق وكأنهـا صفحـة مصحـف قرأتهـا، وأنـت تبحـث عـن إشـارة مـن الله لأمـر أهمـك، غالبًـا مـا يكـون متعلقًـا بامـرأة إن كنـت رجـلًا، وبرجـل إن كنـت امـرأة، فلـما لم تجدهـا قلبـت الأوراق باحثًـا مـن جديـد.

اسـمع صـوت الورقـة وهـي تُقلـب، كـبره في عقلـك ألـف مـرة، ربـما ألـف ألـف مـرة، هكـذا كان صـوت انفجـار المكتبـة، تبعتـه دفقـة عملاقـة مـن أوراق صفـراء هادئـة وبيضـاء مصقولـة وآخـر لم يتـم إعـادة تدويرهـا مـن النفايـات جيـدًا، فخرجـت

كالحـة للطبعـات الرخيصـة التـي لم يعـد العـرب قادريـن عـلى شراء غيرهــا، أوراق أغلفــة ثقيلــة وأخــرى ورقيــة، تبعثــرت ملايـين الحـروف التـي لم تـزد بتاريخنـا عـن ثمانيـة وعشريـن حرفًـا صنعـوا كل الجنـون والمشـاعر واسـتجلبوا الدمـوع والـدم والثـورات وخلقـت معظـم معجـزات الأنبيـاء وأعظمهـا بهـا.

انطلقـت الحـروف في الشـوارع بـلا قيـد أو حاكـم، سـمع الجنـود وكذلـك العميـد أنصـت بانبهـار هسـتيري إلى أصـوات النسـاء الضاحكـة في القصـص والأطفـال وهـي تتحـول إلى أبطـال خارقـين صائحـين بحماسـة وخطـوات الأمـير الوحيـد عـلى القمـر والعاملـين بمـزارع المـوز بماكونـدو وعبـارات الغـزل وانشـقاق صـدر مـن أجـل رسـم صـورة أولى لقلـب مريـض ودمـوع الفقـد...

سمعوا كل ما كتب،

وقيل إن كل من سمع شيئًا في ذلك اليوم قُتل،

وكان آخـر مـا سـمع هـو صـوت الحسـن بـن عـلي نفسـه وهـو يبكـي بصمـت بعـد رؤيـا مريـرة لم يحـكِ عنهـا لأحـد في كتـاب لم يعـد أحـد يقـرؤه.

لكـن دميانـة دون معظـم رفاقهـا سـمعت صـوت طفلـة صغـيرة، كان دقيقًـا ولطيفًـا، كأنهـا تتنفـس بـين كل كلمـة، بلغـة عربيـة مسـكينة لصغـر سـنها ومـن حولهـا أصـوات أمـواج متلاطمـة وكلـمات طفـل صغـير مطمئنـة، ذكرتهـا الأصـوات بحكايـات آليـس ببـلاد العجائـب التـي قرأتهـا مـرات كثـيرة، طفلـة صغـيرة حتـى أنهـا كانـت تتصـور نفسـها سـفيرة بـأرض العجائـب حـين تكـبر.

كانـت تضحـك بصـوت خافـت وهـي تجلـس إلى جـوار أبيهـا بسـيارته القديمـة في قريتهـم الآمنـة بينـما ينتظـرون خـروج أخيهـا

بثيابه الرياضية البيضاء من تدريبه القتالي، كانت حياة لا يثير الخوف فيها إلا شواذ القصص.

زفرت بتوتر وهي تنظر أرض المعركة، سمعت الصيحة من ورائها: «الآن»!

كان ذلك هو أمين، قائد المجموعة، الذي قفز قبل الجميع ومن خلفه الرجال، كان شابًّا دمويًّا عرف عنه عدم خوفه من أي شيء أو احترامه له، لا يستطيع أن يلجمه سوى حمزة، يظنه الجميع شيطانًا بالفطرة من تقاسيم وجهه المتجهم الحادة، وكلماته البذيئة الغاضبة ولا يعلم أحد أنه وحده ليلًا يغلق باب غرفته على نفسه بعد أن يطمئن على أمه ويقدم لها الطعام، يمسك بأعداد مجلة قديمة ورثها عن أبيه وتدمع عيناه وهو يقرأ القصص القصيرة.

قفز من شرفة الطابق الأول ببيت قديم دون أن ينظر خلفه، انحنت رجلاه على الأرض بشدة معتمدًا على ركبتيه، سب كل الجنود وهو يقوم بسرعة ويطلق الرصاص في الهواء باتجاه من بقي منهم وخلفه دميانة والآخرون، الدخان يغطي كل شيء لكن الأمطار مثل الأرض اختارت جبهة المدافعين فتكاثف هطولها مختلطة بندفات برد حتى تهاوت سحب الدخان تاركة أجساد الجنود المذهولة عارية أمام الرصاص كعجول عيد أضحى متراصة بساحة ذبح في قرية مصرية.

وطاشت الطلقات، رغم ذلك استقر كثير منها بأجساد رجال تساقطوا بسرعة جنونية، لم يحاول أكثرهم تبادل النيران ولو حتى دفاعًا عن نفسه، كان الجميع يعلم أنها محسومة، الجميع استشعر اللعنة الغاضبة التي اكتسحتهم منذ أن تركوا الهضبة الصغرى، هي مسألة وقت لا أكثر من أجل موت أو نجاة، أما الفوز فليس اليوم يومه، الجميع شعر بذلك

بصفاء ذهني وكأن الحجاب انكشف عنهم، إلا العميد الذي دفع الجثة التي خمدت أخيرًا مبعدًا نفسه عنها، توقف وهو يرتعش وينظر باتجاه وسط القرية القريب.

الساحة...

هي سبب كل هذا، كان الأمر هو تدميرها بما فيها، إخفاؤها وكأنها لم تخلق بعد، يقولون بالعاصمة إن شيئا خبيثًا يتكون فيها، رقصة سرطانية توشك أن تنتشر، جنون الإنسان الذي يقلد جنون خلايا الجسم، يخرج عن دائرة التحكم فيه مدمرًا كل مَن حوله.

بهذه الساحة هناك شخص أو صورة أو مكان أو بئر تتكون من حوله القصص على عادة العرب وتبدأ رحلة قدسية جديدة، هذا الشيء يجب أن ينمحي الآن قبل أن ينتقل من مكان إلى آخر ويهدم الأوتاد القليلة التي استطاع النظام الحفاظ عليها، وتلك الجديدة التي أقامها بصعوبة وبمساعدة بلاد وحشية بعيدة، لا مكان لوثن جديد على أرضنا، لا مكان لكعبة أخرى، لا مكان لأضرحة حقيقية.

هكذا انطلق العميد ولم ينظر خلفه، فليخض جنودُه مواجهتم وليصل هو إلى هدف كل تلك المعركة وينهيه، جهز سلاحه من جديد، جربه في الهواء تحت المطر، اشتعل بصوت الرصاص، أصابه ما يشبه السعار، ومن نهاية الشارع التجاري ظهر بعض الناجين من رجاله، رأوه فأقبلوا نحوه راكضين، لكنه لم ينتظر أحدًا وهو ينطلق في الحارات الضيقة معتمدًا على حدسه.

وفي الساحة، تحت ظل الكسوة تجمع جلُّ سكان مريمة وما أقلهم، عائلات صغيرة وأطفال كثيرة ورجال معدودة للحماية، هناك كان عبد الله وابنه، يارا وأخوها، وعند البئر

حمـزة الـذي وقـف ممسـكًا بسـلاحه والتوتـر ينهـش داخلـه بينـما يـمازح بنتـي مجـدي، كانـت ميـاه العـين مـا تـزال جاريـة بينـما ترتعـش الأجسـاد برهبـة بـاردة مـع أصـوات الانفجـارات وإطـلاق الرصـاص المسـتمر، حسـن غائـب تمامًـا بعالمـه المريـض، ذبلـت عينـاه، علتهـما غمامـة بيضـاء باهتـة، وغـرق في بحـر عميـق سـاخن يسـمع فيـه صـوت ابنتـه تناديـه فيقـترب سـابحًا، ثـم يفقـده مـن جديـد قبـل أن يصـل، كان في طريقـه للجنـون التـام بعـد أن وجـد جسـدُه طريقَـه الخـاص بمـرض زهـوة بمعجـزة مـا، وكانـت أطـراف الكسـوة المباركـة تغطـي مـكان جلوسـه، لكنـه غـرق تحـت المـوج في عـالم ابنتـه حتـى أن أنفاسـه تحشرجـت بالمـاء المختنـق بحلقـه.

ثـم ظهـر العميـد عنـد طـرف السـاحة البعيـد، ميـزه حمـزة مـن فـوره ومـن دون سـابق معرفـة، تلـك النظـرة المصممـة الغاضبـة، وذلـك الجسـد الرشـيق إلى حـد البهيميـة واللمسـة الملكيـة في تقاسـيم وجهـه، لا بـد أن يكـون هـو، كأنـه نقـشٌ لإلـهِ حـرب فرعـوني، أو رسـمٌ كنـسي لفـارسٍ صليبـي متوحـشٍ أو صـلاحُ الديـن نفسُـه...

هـو أحـد تلـك الرمـوز التـي لا تمـوت، يركـض ركضًـا إلى السـاحة...

هـبَّ حمـزة وهـو يحمـل مسدسـه القديـم، دفـع البنتـين لأمهـما بالخيـام، انزلـق السـلاح مـن يـده فـأسرع ينحنـي ليلتقطـه، سـمع طقطقـة عظـام ظهـره وانسـكب الشـاي مـن برطمانـه عـلى حذائـه الممـزق ولسـع قدميـه، وحـين رفـع رأسـه مـن جديـد أفلتـت نبضـة خائفـة مـن قلبـه، تـرك شـايه ينسـكب وتقريبًـا بـلا وعـي ركـض باتجـاه العميـد ورجالـه.

كأنه يمشي على سحاب...

كأن مخه انزلق منه، لا يعي ما يصنع، حتى مفهوم الموت بالنسبة له قد اختلط.

وفي لحظة مسروقة من سياق الحدث رأى نظرة الرهبة في عين العميد وهو يتفحص الكسوة التي ظللت الساحة، المنقوشة من الوجهين باسم الخالق، بدا وكأنه تردد لحظة وسرعته تتباطأ، ثم دوت الرصاصة الأولى وسقط أقرب الرجال إليه..

لم ينتفض جسد القتيل أو ينسحب طائرًا للخلف مثل الأفلام، فقط تهاوَى مرة واحدة وكأنه لم يكن ورفع العميد سلاحه الآلي بيد واحدة وأطلق فبدأت مذبحة جديدة.

وكأنه استعراض رقص بمسابقة، تساقطت أجساد أهل القرية برصاص المهاجمين حاصدًا إياهم تحت الكسوة، حتى أن أرواحًا ميزت رائحة أقاربها السابقين وأرواحهم تخترق نسيج القماش للأعلى، لم يفرق العميد ورجالُه بين رجل وامرأة لم يضعوا حدودًا للسن، وكأنهم يلعنون وصايا النبي، المقاتلون من أهل الهضبة الذين دافعوا عن أهلهم استقبلتهم رصاصات ارتطمت بقلوبهم وانحشرت في تلافيف أمخاخهم، كان جنود العميد هم الصفوة من كتيبته القديمة، وكانت كل رصاصة منقوشة باسم قتيلها.

ارتطم الناس ببعضهم وهم يفرون بكل اتجاه مثل ألف أذان من منابر مساجد متقاربة وقت صلاة المغرب، تصاعدت الصرخات، والنداءات المتوسلة، وبكاء الأمهات، ديست القطة الأم تحت الأقدام في مصيدة موت لم تعهد مثلها قبلًا حتى انفرمت، لم ير أحد صغيرها بعد ذلك، سقطت جثة رجل شحيم على بئر الماء، كسرت الحواف الصخرية التي صنعوها حوله على عَجَل، انحشرت رأسه الضخمة

في النبع نفسه، للحظات سال الماء من حوافه، لكن الرأس باعد الطين وهو ينحشر أعمق فتوقف الماء تمامًا، اقترب أحد الرجال بسلاح غريب لم يره أهل القرية من قبل، ذكر بعضهم ببرنامج مسابقات ياباني قديم اسمه الحصن، بدا أشبه بسلاح كبير المدافعين فيه، لكنه لم يطلق الماء أو الليزر مثله بينما يباعد حامله بين رجليه مرتكزًا ويطلق نارًا عظيمة وكأنه فم تنين، مصحوبة بصوت هبة ريح صحراوية.

اشتعلت الأجسام أمامه وهي تصرخ معذبة، أمسكت النيران بالكسوة نفسها فتحولت إلى جهنم تقتنص ضحايا من أهل مريمة من الأعلى وبدأ كثيرون يفقدون إيمانهم.

يفقدون إيمانهم والنار تقترب من اسمه الذي أحبه،

يفقدونه وهم ينظرون لحمزة وهو يتحرك مناورًا،

مسكينًا إلى أقصى حد،

مزريًا في حاله،

متعبًا أكثر مما يستطيع التحمل وبطيئًا إلى درجة الشيخوخة،

يقفز ممسكًا بسلاحه الصغير من مكان إلى آخر،

ومرت لحظة توقفت فيها جميع الأشياء إلا حركة حمزة تلك..

بجسده الممتلئ وطوله الغريب وطريقته المضحكة في إطلاق الرصاص مثل طفل يمسك بذراع الألعاب للمرة الأولى خجلًا مما يبدو عليه أمام الكبار.

شعرت النساء نحوه بتعاطف متقزز والرجال حزنوا وهم يرونه...

كان بائسًا إلى درجة البكاء عليه،

لكنه كان يطلق الرصاص ويقترب باتجاه العميد.

وعند أطراف القرية كان الرصاص يتناثر بين الجميع، تساقط الرجال صَرعَى، أكثرهم من الجنود، التفت دانات الدبابات وأطلقت القذائف على المباني المحترقة فحطمتها، كانت تقتل اللاشيء؛ لأن المهاجمين كانوا قد التحموا بالجنود في كيان عشوائي واحدٌ يحاول أن يقتل نفسه ليخرج من خلق جديد منتصرًا وحده، وتقدم أمين حتى دخل وسط الجنود، بأكثر مواقعهم تحصنًا، مطلقًا نيرانه ككلب مسعور، بكل اتجاه، بأي سلاح يجده، محملًا بأحلامه السرية ومدفوعًا برغبة عظيمة في لذة الانتقام ومجد الانتصار، عرف أنه لن يغلب إلا إن غلب الموت نفسه ولن يغلب الموت إلا حين يتقبله بلا ذعر، هكذا فكر وهو يجري نحو دبابة علقت عليها صورة الزعيم، أمسك بقضيب معدني يحيط بجانبها، شد نفسه وهو يتصلقها، بصق على الصورة وهو يتخطَّاها، قال لنفسه لو انتصرت بهذه المعركة سأفرغ مثانتي على هذا الوجه، سحب نفسه للأعلى، ارتطمت رصاصات بجسد الدبابة مصدرة تكات معدنية، ارتد بعضها قريبًا من وجهه القبيح، قفز للأعلى إلى جوار علم النظام، تجاهله وهو ينظر في عيني جندي المراقبة المذعور، بالتصوير البطيء رآه يحرك ذراعه للأعلى ممسكًا بسلاحه وهو يصرخ بزميله، احتقر منظر فمه المعوج واصفرار أسنانه التي انحشرت فيها بقايا إفطاره ورائحة الثوم الكريهة التي فاحت منه، ضرب يد الجندي الممسكة بالسلاح ودفع سلاحه هو في وجهه حتى ارتطم به، وفي لمحة أخيرة دفع الجندي وجهه للأمام فارتد السلاح قليلًا وأطلق أمين الرصاص، فانفجر الوجه وتبعثر دمه على رفيقه الذي حشر نفسه في قمرة القيادة داخل

الدبابة، وعلى قميص أمين وعلى العلم بلطخة حمراء لمحتها دميانة من مكانها أمام مكتبة ابن خلدون محتمية بسيارة معطلة، رأتها مثل جثة سلطعون ممزق على علم أصبح قبيحًا كما كان في أعين أجدادنا العتيقة في الزمن البعيد حين جاءهم قادة لم يعلموا عنهم شيئًا بتلك الأعلام التي لا يقبل قبحها إلا العسكريون، أشاحت بوجهها وهي تعاود إطلاق الرصاص، مقتصدة في ذخيرتها مثل امرأة محنكة بأمور منزل تديره بأقل ما يمكن وتبقيه سعيدًا رغم ذلك، كما كانت قبل أيام الحرب.

لكنها ترددت وهي تلمح غبارًا معدنيًّا يبخ من جسد السيارة، من ناحيتها هي وليس من الناحية المواجهة لساحة القتال، كأنها بصقة تراب، زفرت بصعوبة، أصابها خوف طفولي قديم، للحظة بحثت عن أبيها باشتياق، رفعت رأسها ثانية وهي تغالب دموع خوفها وأطلقت نيرانها من جديد ورأت بعينيها انبعاج حديد السيارة قريبًا منها، ارتعشت عيناها بوجل وببطء مذعور التَفَّتت حول نفسها تنظر فيما خلفها، استطاعت أن تسمع صوت أقدام الموت وهي تفعل، فكرت أنه لا يحق له أن يأتي الآن؛ لأنها منتصرة ولأن المعركة تنتهي، هو موت لا علاقة له بالحرب بل بها، وحين واجهت الجندي ورفعت سلاحها في وجهه كانت تفعلها فقط كي لا تختلط نهايتها بانتحار، لكنها كانت تعلم أنها انتهت.

وأطلق الرجال رصاصة واحدة، كانت الأخيرة بخزينة سلاحه وسيموت بعدها بثوانٍ متأثرًا بإصاباته العديدة، أطلق رصاصته فارتطمت بصدر دميانة، بالضبط حيث لامستها يد حسن الآثمة يومًا ما..

«آآي» قالت بصوت عذب صادق، واهتز جسدها برفق

وهـي تلمـح مـن قريـب أطفالهـا حـول مائـدة عامـرة غمرتهـا رؤيتهـم بسـعادة؛ لأنهـم سيشـبعون مثـل الأيـام البعيـدة، اقتربـت منهـم فوجـدت أنهـم والمائـدة يقتربـون أكثـر، وقفـت حتـى وضع كـرسي خشـبي منقـوش خلفهـا، ابتسـمت مـن أعماقهـا حتـى أن ضحكـة أفلتـت منهـا وهـي تـرى رضيعهـا بـين ذراعـي أخيـه الـذي يطعمـه، مـدت يدهـا وهـي تقـول بحنـان: «أطعمـه قِطعًـا أَصغـر يـا بنـي»، مستأنسـة بأغنيـة طفوليـة لهـا سـمتٌ بـدوي لم تفهـم أنهـا كانـت أول مـا سـمعته وهـي مولـودة مـن جدتهـا بعـد أن أذن جدُّهـا بأذنهـا، جلسـت عـلى كرسـيها وجسـدها يتهـاوى بـأرض المعركـة وفي لحظتهـا الأخـيرة منسـلخة عـن عالمنـا إلى أرض أحلامهـا همسـت برضـا تـام: «اللهـم اغفـر لحسـن»، وانطلقـت مبتعـدة.

رأى الجميـع جسـدها وهـو يسـقط حـرًّا عـلى الأرض، رأوا حجابهـا القديـم الـذي لم تكـن تملـك غـيره والـذي ارتدتـه مبلـلًا بعـد أن غسـلته صباحًـا وهـو يطـير مـن فـوق رأسـها، رأوا طاقيـة الـرأس البيضـاء التـي ترتديهـا أسـفله عـلى عـادة الشـوام والأتـراك ولم يفهمـوا أنهـا طاقيـة زوجهـا القديمـة التـي كان يتزيـن بهـا لصلـوات الجمعـة.

الجميع سمع صوت ارتطام رأسها المكتوم بأرض الشارع،

وابتـدأ خيـط أسـود بالتكـون مـن تحتـه، لم يظهـر بالبدايـة لأن شـعرها العظيـم المتطايـر أخفـى كل شيء إلا بهـاءه، لكـن صـوت التشـقق تسـارَع، وانسـاق السـواد في خـط طويـل متعـرج، كان شـقٌّ بـالأرض نفسـها، بـدأ غـير منظـور واسـتمر في الاتسـاع كلـما ابتعـد، رآه المقاتلـون ومـن بقـي مـن الجنـود، تقافـزوا عنـه بارتعـاب حـين مـر أسـفلهم وإلى جـوار أقدامهـم، وانطلـق بـلا مواربـة نحـو السـاحة في خـط مسـتقيم سـليم، قاطعًـا الطرقـات

التي ازدحمت بالهاربين معبأة بصراخهم وكأنه كائن ملموس يمكن تحسسه، مر بجوار دار الشيخ شاهين الذي وقف شبحه ينظر إليه من نافذة داره بكرامة أخروية، وطقطقت البالوعة التي ذهب إليها محمود يوم الغارة بما يشبه الوحي بصوت تفتيت مقزز وهو يحطم معدنها بالضبط من منتصفه، فينفلج متباعدًا والشق يعبره بطريقه نحو الساحة التي بدت خالدة وهي تشتعل بالنار ويتطاير فيها الرصاص بالتصوير البطيء، بينما يلعنه الهواء الذي يمرق فيه، تسارع الشق وأجساد الناس تتراقص، تتساقط وتحترق، لم يلمحه العميد الذي كان يحرق بانبهار مأخوذ وكأنه فارس خرافي في حكايات هانس أندرسن، وداس حمزة فيه فالتوت قدمه بعنف وسمع طقطقة عظام مفصل قدمه وهو يصرخ بألم محاولًا ألا يبعد نظره عن العميد، ومر الشق أسفل المئذنة المقدسة فاهتزت قاعدتها ثم تصاعد منها صوت تشقق متعالٍ، من الأسفل إلى الأعلى، كان صوتًا شديدَ الرقة والعذوبة بطريقة سحرية، ممتلئًا بشجن معذَّب كلحظات جمال خاشقجي الأخيرة، وانشقت المئذنة على نفسها، تدفق الغبار الأحمر منها في دفقات متتابعة، ثم وبما يشبه صوت صرخة حدث المستحيل وسقطت بصخب غير معقول، حتى انغرس هلالها في الأرض الطينية وتفككت أحجارها الجبلية، حجرًا حجرًا وسحابة رماد تتصاعد إلى السماء رغم المطر حتى لامست السحاب وما فوقه، بينما الشق يتابع طريقه حتى لامس أطراف البئر فارتجت الساحة برجفة شعر بها كل مَن فيها، والجند والمقاتلون عند أطراف مريمة وأمين الذي كان يبول على صورة الزعيم متحملًا بصبر احتراق قضيبه بألم ملحي، تساقطت الأحجار المتبقية حول النبع، كان من الممكن الآن رؤية تراقص الحصى على

الأرض حولـه، واهتـزاز الـرأس المدفونـة فيـه، رأس العـرب الثقيلـة، المحملـة بصـور البغايـا وأصـوات الغنـاء وبقايـا الطعـام، ثـم انفجـر النبـع بالمـاء مزيحًـا الـرأس عـن فوهتـه، وانبلجـت دفقـة مـاء عظيمـة مثـل نافـورة سرعـان مـا غـيرت اتجاههـا إلى داخـل الشـق نفسـه وكأنـه ميـلاد نهـر جديـد، وانفعـل الجميـع بغضـب وحـشي وهـم يـرون المئذنـة المحطمـة ونافـورة المـاء، غضـب اكتسـح مـن طريقـه كل شيء حتـى الخـوف مـن المـوت، غضـب ربـما يكـون السـبب الرئيـسي الـذي خلـق الله مـن أجلـه هـذه الصفـة الخارقـة بالإنسـان وأورثهـا في أجيالـه رغـم مـا بهـا مـن عيـوب، غضـب منفعـل جلـب إلى الذاكـرة كل أيـام العيـش النكـد وسـحابات الظلـم المقيمـة مـن أجـل حثالـة حاكمـة مريضـة، غضـب مـن أجـل الأحـلام التـي قتلـت قتـلًا بصـبر خبـير والديـن الـذي أهـين بتحـدٍّ شـيطاني متصاعـدٍ والأطفـال الذيـن حرمـوا مـن الألعـاب، ثـم مـن العلـم، ثـم مـن الملبـس، ثـم مـن الطعـام، ثـم مـن الحيـاة نفسـها، غضـب للأمـوال التـي سرقـت والحـب الـذي اسـتحال والأقـارب الذيـن دفنـوا عـلى رغـم دعـوات الأجـداد العتيقـة وهـم يبنـون أسـماء عائلاتهـم لتخلـد...

هكـذا جاءتهـم الأفـكار الغاضبـة متدافعـة كسـيل جـارف بـين جبلـين عظيمـين يعلوهمـا تماثيـل للأنبيـاء والصحابـة تذكـيرًا بالأيـام التـي كنـا فيهـا قادريـن عـلى الـضرب بالعـصي عـلى رؤوس حاكمينـا إن أخطـأوا، والسـيوف التـي تلامـس رقابهـم إن شـتُّوا، بتتابـع رجـولي لثـورة لا تنضـب تمتلـئ أدمغـة أصحابهـا بالأفـكار العبثيـة عـن التحريـر والتوسـع في كل بـلاد الأرض، ورغـم ذلـك يحولونهـا إلى حقيقيـة، جاءتهـم ذكريـات آلام آبائهـم وأجدادهـم ومـن سـبقوهم حتـى وصلـوا إلى آلام آدم نفسـه وهـو

يجلس باكيًا عند أحجار الكعبة صارخًا بلوعة: «أعدني!»... وانطلقوا مدافعين...

وأمام عينيه الغاضبتين رأى العميد رجاله وهم يُلتهمون التهامًا وبكل ما للكلمة من معاني، رأى مرأة تقفز في الهواء، مسعورة وبلا سلاح منقضة على أحد رجاله، غارسة أنيابها في لحم رقبته وهو يصرخ غير قادر على انتزاعها حتى تقتطع من لحمه وهي مشبَّثة به، ثم تغرس أسنانها من جديد، رأى الرجال العجزة وهم يغرسون أظافرهم في أعين رجاله منتزعين ما فيها، رأى طلقات الرصاص وهي تشق طريقها مباشرة إلى رؤوس الجنود رغم أن مطلقيها لم يمسوا سلاحًا قبل هذه اللحظة..

ودار حول نفسه في لفة كاملة..

للمرة الأولى رأى الأشياء مجتمعة، الدخان الخانق متصلًا بالنار المشتعلة في القماش النابض ببكاء الأطفال، الملامس لجثث آبائهم وأمهاتم الشاخصة باتجاه المئذنة التي تهدمت فوق رؤوس رجاله، واختلط غبارها الكثيف بقطرات دمهم، ثم ماذا؟

لم هذه الحلقة منذ البداية؟!

ارتعشت يداه على سلاحه لثوانٍ لكن عينيه لمحتا الخيام القريبة، خيمتان، هما مركز هذه الساحة وأساس هذه المعركة، خيمتان وجب إنهاؤهما بمَن فيهما ليتم أمر القيادة، مشى نحوهما مترنحًا بألمه الباطني وغابة شكوكه، كانتا بخير، على أحسن ما يرام، لم تحترقا، لم تدعسهما الأقدام، منيرتان بقماشهما وكأنهما خيام النبي وأهله بالحجيج، اقترب من أولاهما، لامس قماشها، كان جافًا وكأن ماء المطر لا يصله،

حين وضع يده عليه انقطع صوت العويل والصراخ للحظة، اختفى صوت الاشتعال من فوقه وحتى عرق جسده جف من على قميصه والغناء داخل أذنه يتوقف، نظر داخلها مشهرًا سلاحه، كانت خالية من كل شيء إلا قماش غطى أرضيتها وقطة صغيرة منزوية في أحد أركانها، رفعت رأسها نحوه ومآءت مستعطفة، تراجع وهو يستدير إلى الخيمة الثانية، رفع قماشها وارتعش متعرقًا قطرات باردة وهو يشم رائحة النعناع من جديد، رأى عبد الله بالداخل محتضنًا ابنه، مغلقًا عينيه، يهتز جسده جيئة وذهابًا كأطفال الكُتَّاب القدامى، يلهج لسانه بدعاء هامس، هنا النبع الحقيقي ومبتدأ الحكاية، هنا ما يريد النظام إنهاؤه، هذا هو الوقت، فلتنمحي مريمة نفسها وتختفي وكأنها لم توجد من قبل حين يقتلهما، كتأثير جناح فراشة مهول.

انتفض وهو يرفع قاذف اللهب، تعرق وهو ينظر نحوهما، أراد أن يميز وجه الصغير مدفوعًا برغبة غامضة، لكن الصغير خبأ نفسه في صدر أبيه أكثر، مد العميد رقبته مستطلعًا وأصابعه تلامس مؤشر الحرارة معيدًا إياه لأدنى مستوًى له، ستكون دفقة لهب صغيرة وأخيرة، رحيمة بطريقة أو أخرى، مد إصبعه ملامسًا الزناد ثم رأى حسن..

كان شاحبًا إلى حد الموت، غاضبًا لدرجة الافتراس، مبللًا بعرق ساخن بوجه محمر تناثر شعره حوله بنوع من القدسية، وقبل أن تذهب دهشته لمرآه وجد نفسه يتراجع للخلف خطوات وحسن يدفع يديه في صدره بقوة إلى الخارج، وانطلقت دفقة نارية في الهواء كادت أن تلامس الكسوة عند آخر حروف لفظ الجلالة، استعاد توازنه لكن حسن قفز على جسده فسقط الاثنان أرضًا، ارتطم ظهر

العميـد بـالأرض بقـوة، قطـب جبينـه بغضـب وحـشي وهـو ينظـر إليـه وبسرعـة مـال بجسـده برشـاقة معتليًـا حسـن ومطبقًـا يديـه عـلى رقبتـه يعتصرهـا بقـوة، ثـم رأى عينيـه...

وأصابه ذعر لأنهما لم تكونا تنظران إليه..

كان هناك بعيدًا، عند ابنته...

يصارع الموج ليصل إلى مركبها،

يكاد أن يغرق في بحر مظلم،

مـا تـزال ذكـرى السـيف في مؤخـرة عقلـه ضاغطـة لكـن صـوت زهـوة قـد غطـى كل شيء،

وامتدت يد السائر على الماء إليه،

رفعـه ببـطء حتـى جـاوره، التفـت إليـه مـرة واحـدة، فالتمعـت عينـاه بدمـع حنـين جـارف قبـل أن يجـري فـوق سـطح المـاء بمعجزتـه الخاصـة نحـو ابنتـه...

سـيذكر أنفـه الدقيـق ورسـم عينيـه السـاحر ولحيتـه المبللـة مـا بقـي مـن عمـره...

ولمحته زهوة للمرة الأولى،

التفتـت إليـه بـكل جسـدها، رأى وجههـا فهتـف باسـمها متلهفًـا، وابتسـمت كأجمـل مـا يكـون، اطمأنـت حتـى أنهـا أغلقـت عينيهـا وقطـرات مـاء تلامـس جبهتهـا، إلى جوارهـا وقـف إبراهيـم بـن محمـد مشـدوها بـلا كلـمات ولا حكايـات،

كانت السماء تغني بصوت ملحن واحد...

أووووه...

آآوووه...

في نغمة طويلة حالمة...

وكانت قطرات مطرها تمسها وحدها،

أول قطرات مطر ساخنة تشعر بها بحياتها القصيرة...

وارتعشت شفتا حسن بوجل، ابتسم وهو ينظر إليها بسعادة وسح دمعًا انساب على خده وهو يراها تتوحد بالمطر وكأنها تغادر هذا العالم من خلاله...

وفي سريرها،

بين ذراعي أمها التي نامت إلى جوارها وعيناها ممتلئة بدمع ثقيل، انتفض جسدها مرة واحدة شديدة، شعرت بها أمها في صدرها فاحتضنتها دون أن تفتح عينيها وشفتاها تلامس جبهتها متوقعة السخونة المشؤومة التي تعذبها كل ليلة، لكن الأم ارتعشت وعيناها تزم بشدة وهي تلامس قطرات العرق البارد عوضًا عن الحرارة، تحركت يداها بوجل في الظلام تلامس الجسد الصغير الناعم، قد تعلمت أن تميز بقع النزف على ذراعيها وظهرها وبطنها، كانت أنعم قليلًا من باقي الجلد، ترتفع عنه بقليل لا يمكن تميزه إلا لمسًا وبواسطة أم.

لامست الجسد...

نسيج واحد بلا اختلاف، لمست رقبتها، كتفيها، الذراعين، البطن وأعلى الصدر، لا شيء!

فتحت عينيها بلهاث منفلت، مدت ذراعها تحاول فتح المصباح الصغير المجاور للسرير، اصطدمت به يدها وأوقعته لكنه انفتح بنور رقيق على الأرض وقد انكسرت قاعدته، ورفعت ابنتها أمامها، انساب دمعها بجنون وهي تخلع عنها ملابسها قطعة قطعة، سليمة بلا ألوان داكنة، بلا نزف أو ألم أو حرارة،

صرخت باكية وهي تحتضنها، وللمرة الأولى منذ ولادتها استطاعت يقينا أن تميز يد الله وهي تلامس قلبها نفسه فتنهدت بلوعة وهي تقربها أكثر باكية، يرتجف كل جسدها انفعالًا وشفتاها تقبل كل جزء من جسد زهوة.

وأغمضت عينيها بألم حامدٍ وشاكرٍ للأبد وهي تسمع ابنتها تهمس: «إلى اللقاء يا إبراهيم بن محمد...يا صديقي الحبيب».

وأفلت العميد رقبة حسن مثبتًا إياه على الأرض بذراع واحدة، كان حسن يعود إلى وعيه كاملًا خارجًا من تخاريفه، اتسعت عيناه وهو يرى العميد فوقه والتفَتَ باتجاه الخيمة وهو يصرخ «لن تمسه!»، ومد العميد يده الحرة إلى حجر من أحجار البئر المبعثرة، رفعه عاليًا ثم هوى به على رأس حسن، فأصدرت صوت تكة مكتومة وانفجر الدم من جانبها، وتراخت عيناه سريعًا ورأسه تسقط على الأرض، وسمع همسة من المجهول «قابيل»، «لا أريد أن أقتلك»، همس العميد برعب وهو يجز على أسنانه ناظرًا، قام من جديد، مشى إلى الخيمة محضرًا سلاحه وفتح قماشها مرة أخيرة، فرفع عبد الله عينيه إليه وأنفاسه تتسارع، وعيناه تمتلآن بدمع غاضب، ثم التفت إسماعيل نفسه نازعًا وجهه من كتف أبيه،

وانقطعت أنفاس العميد،

أفلت قلبه نبضات،

وتذكر والسلاح يرتعش بيده،

وهو ينظر للرضيع...

مد كفه ملامسًا صورتها طفلة في جيب قميصه،

دمعت عيناه وهو ينظر قلادة أم إسماعيل التي أصر عبد الله أن يعلقها حول رقبته منذ ماتت...

منقوش عليها اسم الله..

أمسك بطرف الخيمة محاولًا ألا يقع، انحنى ظهره كمسن بآخر أيامه، انفلتت منه نهنهات متتالية وهو يتذكرها جيدًا الآن...

قلادة حبيبته...

لم تخلعها يومًا منذ ولادتها،

ذهبية، نقشت بيد يمني يبيع الذهب في محل مغمور بالمدينة المنورة،

منقوش عليها «الله هو الحر الكامل»،

يتذكرها الآن..

لم يرها في شبحها منذ جاءته، دائمًا كانت تفاصيلها كاملة، إلا من هذه القلادة التي دفنها بها..

اشتعل صدره بسخونة حارقة،

لم تكن هي من تأتيه؟!

أغلق عينيه باكيًا، زم شفتيه بألم،

رأى صورتها الشبحية وهي تنمحي، تتحول إلى صورة من نفسه هو، من شره الداخلي وغضبه الذي لم يستطع أن يدفنه معها...

وانقطع عنه غناء عقله الطويل الممتد،

التقطت أذناه صوت المطر، اشتعال النيران والصراخ،

رغم كل شيء امتن لذلك التداخل،

تراجع خطوات للخلف وعيناه على إسماعيل،

وفي لحظة واحدة ضربت ذكرياته مع زوجته كل تلافيف عقله، مثل مخدرٍ عبقري أو لحظةٍ في الجنة..

وانسحق داخله كل جديد لازمه منذ موتها،

وارتطم بجسد ضخم، التفَّ ملتفتًا إليه فوجد حمزة في مواجهته،

أفلت سلاحه من يده بينما أطبق حمزة على مسدسه القديم بقوة...

«افعلها»، همس العميد بصوت مرتجف...

رفع حمزة سلاحه حتى لامس بطن العميد،

وأغلق الأخير عينيه، همسَ نفس ما همسَت به زوجته ليلة غادرته...

«آمنت بالله ورسوله»..

تردد حمزة لحظة، انفرجت شفتاه وهو يرقبه قبل أن يضغط الزناد...

وبدلًا من أن يشعر العميد بالمعدن الحارق يخترق أحشاءه، شعر بمعدن آخر نفيس يوضع على رأسه، رفع يديه فلامس التاج الذهبي الذي غطى شعره، فتح عينيه باندهاش فرآها أمامه، كاملة، سليمة، جميلة أكثر من بدر، على عنقها قلادتها القديمة، والملائكة تحيط بها.

شد قامته باعتدال كي لا تراه مهزومًا، لامس صدر ثوبه الجديد الدافئ معدلًا إياه كعادته ولم يستطع أن يكتم ابتسامته وهو يمشي نحوها...

في الحقيقة أنه كان يجري إليها جريًا وهو يضحك كطفل في ثياب ملك...

ورائحة نعناع بري تملأ أنفه.

انقشعت السحب عن قرية هادئة.

الموتـى فيهـا أكثـر مـن الأحيـاء، والأحيـاء فيهـا يسـاوي الواحـد منهـم ألفًـا منـي ومنـك...

انسـدل الكسـاء الـذي حلـم عبـد الله يومًـا أن تُغطَّـى بـه الكعبـة نفسُـها مـع مقتـل آخـر الحـكام المتجبريـن، محترقًـا تفـوح منـه رائحـة ثقيلـة كعـود نـادر غـير محببـة رائحتـه إلا لمـن يفهـم أسراره وحـال لـون كلمـة: «الله» فيـه إلى رمـادي أقـرب إلى الأبيـض في بعـض أجزائـه، وكأن السـحب قـد خزنـت داخلـه حـين غابـت.

واسـتفاق سـكان القـرى المجـاورة والهضـاب القريبـة وحتـى قوافـل المهاجريـن هربًـا مـن البطـش عـلى شـق رقيـق يمتلـئ بـماء جـارٍ، اتبعـوه بصمـت ومـن دون جـدال كثـير لطبيعـة جُبلـت عـلى الإيـمان بغـير المرئـي.

وبينـما يدفـن الأهـالي موتاهـم دخـل مريمـة آخـرون، كان الدفـن احتفاليًّـا بطريقـة غامضـة كدفـن الصحابـة العظـام بعـد معـارك الأعـراب الفجـرة والفـرس والـروم، نحـن مـن قاتلنـا أمـم الأرض كلهـا إلا الضعيـف منهـا، لاعنـين أيامهـم وقلوبنـا معلقـة بـالله بحبـل غـير منظـور حتـى وإن كان حكامنـا معلقـين بطـين الأرض، وكعـادة أهـل هـذه الأرض نبضـت القلـوب رغـم الألم، فـكان الـزواج هـو أكثـر الأشـياء تكـررًا بالأيـام التاليـة...

وأخـرج أخـو يـارا سـيفه الخشـبي مـن مخبئـه، بتعاسـة مشـى بـه حتـى وصـل إلى حسـن الـذي كان جالسًـا إلى جـوار حمـزة محـاولًا سـماع الصـوت القـادم مـن العاصمـة، دموعـه تمـلأ عينيـه وهـو يسـمع صيـاح ابنتـه الضاحـك المختلـط بكلـمات أمهـا الملهوفـة،

دموع فرحة راضية وإخلاء سبيل وعودة رحيمة إلى الطفل الذي كانه يومًا قبل أن يتلوث، رأى محمد ويارا فاحتضنهما من دون كلمات، ارتكنوا طويلًا إلى صدره، ثم انسلخ الولد عنه، أخرج سيفه ومد ذراعه إلى حسن الذي نظر إليه بتوتر وشفاه ترتعش وهو يتذكر أحلامه، شملته برودة مثلجة وهو يلمس السيف، كانت قطعة الخشب قد تغير شكلها كثيرًا عما كانت عليه حين أخرجها الأطفال من الطين، ربما بفضل اللعب وربما كانت مجرد معجزة أخرى، على الخشب نفسه كانت كلمات محفورة بحروف عربية لم يستطع حسن ومَن قبله أن يستنبطها ولم يعرفها إلا محمد الذي قرأت له أمه الكلمات في جلساتها معه وهي تطلب منه إعطاءه إلى حسن.

«أخذه عكاشة الأسدي من يد النبي، ودفنه من أجل محمد بن عبد الله الأخير»...

ارتعشت يدا حسن وهو يتلمس الأحرف، تعرق جبينه وهو يتذكر الرؤيا التي حكاها له مجدي عن أخته في المسعى، وتذكر الكعبة خلف صاحب البردة الحمراء..

ستظهر أحرف جديدة، وسيتغير شكل السيف مرات في طريقه إلى أرض النبي نفسه إيمانا برؤيا لا يفهمها مثل رؤيا إبراهيم الأولى لأرض مكة...

وعندما يغادر سيظن أهل مريمة أنه تركها عائدًا إلى عائلته بالعاصمة، وحده سيعلم حمزة بسره وسيخفي نبأه إيمانًا منه بما رآه وحكاه له...

لن يعلم أحد سرَّه هذا، سواء من أهل القرية القدامى ولا حتى كل هؤلاء المهاجرين الجدد الذين وقف عبد الله

يستقبلهم حاملًا رضيعه الذي رأى فيه كلُّ قادم جديدٍ حلمًا قديمًا وجب تحقيقه أو دعوة مستجابة أو ملجأ أخيرًا أو حتى بداية رحيمة...

مثل كعبة كاملة.

KAYAN PUBLISHING

كيان للنشر والتوزيع

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235688678 -0235611772**

هاتف محمول: **01001872290/ 01000405450**

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصدراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية يمكنكم متابعتنا على الروابط التالية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing